بسم الله الرحمن الرحيم

التطور و الثبات

في حياة البشرية

تأليف الأستاذ

محمد قطب

مقدمة

هذا العصر هو عصر التطور..

كل شيء فيه يتطور..

الأفكار والعقائد.. القيم والمفاهيم.. والآخلاق والتقاليد.. الصور المادية للحياة.. المسكن والملبس والمأكل.. وسائل المواصلات ووسائل الإعلام.. الحرب والسلم.. الآلة.. الإنسان!

ولا يمر يوم ولا تمر ساعة.. بل لا تمر لحظة لا يذكر فيها لفظ التطور من أقصى الأرض إلى أقصى الأرض.. في الغرب " المتحضر " والشرق " المتأخر ".. في كل مكان!

ولا يوجد شيء واحد ولا عمل واحد ولا مفهوم واحد لا تدخل فيه فكرة التطور.. ولا يتصور الناس شيئا فـــي الحياة كلها إلا من خلال فكرة التطور التي تشمل كل شيء وكل كيان!

*　　*　　*

وحين تستولي فكرة التطور على أفهام الناس بهذه الصورة، فلا بد أن يصطدم تفكيرهم بالدين! فالدين – في حس البشرية – يمثل الثبات. ثبات الإله. وثبات العقيدة. وثبات القيم. وثبات المفاهيم. وثبات التقاليد. وثبات الحياة.

وما دام الدين في حس البشرية يمثل هذا الثبات كله، فلا بد أن يصطدم في حسها بمفهوم التطور الشامل، الذي لا يطيق تصور الثبات في أي شيء على الإطلاق، ولو كان فكرة الله أو فكرة الدين.

*　　*　　*

وفي الغرب اصطدمت بالفعل فكرة التطور بمفهوم الدين. وقام بينهما صراع عنيف منذ " عصر النهضة " الذي قام على أساس لا ديني. وانتهى الصراع بتنحية الدين عن الحياة العملية. وعن الاقتصاد والاجتماع والسياسة. وعن العلم والفن.. ولم يبق له إلا

ركن ضئيل في حياة الأفراد.. يشبعون ميلهم الشخصي إليه بالذهاب إلى الكنيسة، أو اتباع بعض تعاليم الدين في السلوك الشخصي، بينما الحياة الواقعية كلها تحكمها المفاهيم المضادة لفكرة الدين.

وفتر الصراع الذي كان حادا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لأن الدين لم تعد له القدرة على الصراع، والمتدينين ورجال الدين لم يعد في وسعهم إلا الرضى من الغنيمة بالسلامة الشخصية، والانعزال عن الركب المتحرك.. أو ومحاولة اللحاق بذلك الركب عن طريق " تطوير " الدين (!) وجعله تابعا ذليلا للتطور، بعد أن عجز عن قيادة الحياة!

* * *

أما في الشرق.. " الإسلامي ".. فما زال الصراع قائما بين الدين والتطور!

لأن الدين – من ناحية – ما زالت له قبضته على نفوس الجماهير، كعقيدة وفكرة إن لم يكن كواقع وسلوك، رغم الجهد الضخم الذي يبذل لتفتيت العقيدة وتحطيمها، وتحويل الاهتمامات عنها إلى مفاهيم جديدة وأفكار جديدة..

ولأن " التطور " من ناحية أخرى لم يبلغ مداه بعد.. لا التطور الصناعي ولا الاجتماعي ولا الاقتصادي المجلوب من الغرب، والذي يحمل في أطوائه المفهوم " اللاديني " للحياة.

ومن ثم فما تزال هناك معركة!

والكتّاب ورواد التطور يختلف موقفهم من المعركة باختلاف درجة اصطباغهم بالفكر الغربي، ودرجة صراحتهم في إدارة العراك!

فبعضهم يهاجم الدين صراحة، ويقول إنه بقية من الماضي المظلم ينبغي أن تزول.. وخرافة لا يصح أن تعيش في عصر النور!

وبعضهم لا يجد في نفسه الجرأة التي يهاجم بها الدين صراحة، فيستتر وراء مهاجمة " الأفكار الرجعية " أو " رجال الدين ".. ومن هناك يهاجم كل المفاهيم الدينية وهو آمن من تهمة الإلحاد والمروق. فلا يستطيع – مثلا – أن يقول إن الله – سبحانه –

رجعي لأنه يقصر زينة المرأة على رجلها أو محارمها. فهذا القول الوقح يعرضه لا محالة لغضبة الجماهير، فلا ينسب إلى الله هذا القول! وينسبه إلى رجال الدين الرجعيين! ولا يجرؤ – مثلا – أن يقول إن الله – سبحانه – مخطئ حين يحرم الفاحشة، وقيام أي علاقة جنسية خارج الزواج الشرعي. فلا ينسب هذا التحريم إلى الله سبحانه! ويقول إن " المفاهيم الرجعية " للأخلاق، التي تحرم الصداقات والعلاقات بين الجنسين هـــي مفاهيم بالية ينبغي أن تتطور.. وأن تزول!

وبعضهم يقول إن الدين أفكار سامية جميلة (!) ولكن ما فيه من تشريعات وتوجيهات قد نزل لعصر معين وظروف معينة.. والظروف قد تغيرت.. فلا بد من إبقاء الدين " روحا " صافية، لا تتدخل في التشريع، ولا تحكم الحياة الواقعية.. من أجل الإبقاء على معانيه السامية وأفكاره الرفيعة، ومنعها من الاصطدام بالواقع المتغير المتطور، فتتحطم، وتترك الناس بلا هداية من روح الدين!

وبعضهم لا يذكر اسم الدين على الإطلاق.. وإنما يهاجم المفاهيم الدينية " كمفاهيم " لا علاقة لها بالدين.. مفاهيم اجتماعية أو فكرية أو سياسية أو اقتصادية. ويسخّفها لعدم تمشيها مع روح العصر، والتطور العلمي والحضاري.. ويترك هذا التسخيف يفعل فعله الخفي في تحطيم القيم الدينية دون أن يتعرض إطلاقاً لذكر الدين!

وبعضهم – للتوريط – ينسب إلى الدين كل ما يريد بثه من أفكار " تطوّرية " بحجة مرونة الدين وصلاحيته للحياة في كل عصر.. فهو يبيح الاختلاط، ويبيح تزين المرأة، ويبيح قيام علاقات بين الجنسين (دون الفاحشة من باب التأدب!) ويبيح نقد المفاهيم بل النصوص الدينية ذاتها وتمحيصها (للاقتناع بها عن تفكر وتدبر!) ويبيح ترك بعض المفاهيم الدينية واستبدال غيرها بها (لأن الناس أعلم بأمور دنياهم!) أو بعبارة أخرى يبيح نقض الدين كله بحجة التجديد والتطوير!

وبعضهم – المضلَّلين المخدوعين! – يكتبون – في إخلاص! – عن وجوب تطوير الدين حتى لا يفوته الركب، وينعزل في زوايا النسيان!

*　　*　　*

والجماهير تتشرب الإيحاءات المختلفة التي يصبها في أذهانها " المثقفون " بمختلف وسائل الإعلام: الكتاب والقصة والمسرحية والمقال والخبر والتحقيق الصحفي والرسم الكاريكاتوري والنكتة المصورة.. والإذاعة والسينما والتليفزيون.. وتظل هذه المفاهيم

تدور في نفوسهم، وتصطرع – في وعي أو غير وعي – بمفهوم الدين. وتنتج عن ذلك نتائج متباينة.. فبعضهم ينتهي به الأمر إلى الخروج الصريح من دائرة الدين. وبعضهم ينعزل الدين في وجدانه عن الحياة.. " فيتدين " في داخل قلبه: يصلي ويصوم، وقد يزكي ويحج، ثم يمارس الحياة الواقعة بكل مفاهيم " التطور "، فيترك بناته – مثلا – يلبسن فساتين فوق الركبة، ويخالطن الشبان، لأن " العصر " يريد ذلك، وهو يريد لبناته أن يكنّ على " موضة " العصر. وبعضهم يتجمد – في تحجر – على مفاهيم معينة يظنها هي الدين، ويخاصم الحياة المتحركة كلها لأنها خروج على الدين. وبعضهم يظلون في حيرة، لا يدرون ماذا يصنعون!

*　　*　　*

وهذا البحث يتناول قضية التطور، في مواجهة قضية الدين..

وقد تناولت هذا الموضوع من قبل في كتب سابقة ولكن دون تفصيل.

تناولته أول مرة – بصورة مباشرة – في فصل " أنتم أعلم بأمور دنياكم " في كتاب " قبسات من الرسول " فتحدثت حديثاً سريعا عن قضية التطور، وعن الثابت والمتطور في كيان الإنسان، وطريقة الإسلام في معالجة هذا وذاك.

ثم تناولته في فصلين من كتاب " معركة التقاليد " تحدثت فيهما عن المفهوم الأوربي للتطور؛ وما يحمله في طياته من حقائق وأباطيل، وكيف أثر في الحياة الأوربية ثم انتقلت عدواه إلى الشرق عن طريق الاستعمار.

ثم أفردت له فصلا في كتاب " دراسات في النفس الإنسانية " بعنوان " الثابت والمتطور في كيان الإنسان ".

ولكن الرغبة كانت تتزايد في نفسي كل مرة أن أتناول الموضوع في بحث متخصص، لا تناولا عرضيا في أثناء الطريق.

وأخيراً كان هذا الكتاب، تناولت فيه الموضوع من جميع الزوايا التي جالت في خاطري، في الفكر الغربي والإسلامي سواء.

وهو يتناول أربع قضايا رئيسية:

المفهوم الغربي للتطور، وأسبابه ونتائجه في الحياة الغربية.

حقيقة الفطرة البشرية وما تشتمل عليه من جوانب ثابتة وجوانب متغيرة.

المفهوم الإسلامي " للإنسان " وطريقة الإسلام في معالجة الثابت والمتطور في حياة البشرية.

والقضية الرابعة تتناول الموقف الراهن للحضارة الغربية وللإسلام، وما يحمله الموقف من دلالة لمستقبل البشرية.

والموضوع واسع ما في هذا شك، والقضايا التي يتناولها شديدة الخطورة بالنسبة للمفاهيم الحالية للحياة. وهو في حاجة إلى دراسة واسعة مستفيضة جادة في كل مناحي التفكير البشري والحياة البشرية.

وما يتسع بحث كهذا لكل جوانب الموضوع بطبيعة الحال.

ولكن حسبه أن يتناول القضية في جوهرها. بل حسبه أن يفتح الباب للتفكير.

فإن نجح في ذلك فما توفيقي إلا بالله.. وله الحمد وله الشكر في جميع الأحوال.

محمد قطب

عَصْرُ التطوُرْ

في العصور الوسطى كان " الثبات " هو الطابع المسيطر على الحياة كلها في الغرب. وكان العالم الإسلامي قد أخذ دورة من النشاط الحي المتحرك الغلاب.. ثم أخذ يركن إلى الهدوء أو إلى الركود التدريجي البطيء.

وكان مفهوم الثبات في أوربا مستمداً من الدين، كما هو مستمد من الوضع الاقتصادي والاجتماعي الثابت الأركان.

كان الدين – بمفهومه الكنسي الأوربي – " عقيدة ".. أي علاقة بين العبد والرب تحكم الوجدان، ولا تحكم – إلا قليلا – واقع الحياة. أما هذا الواقع فتحكمه تشريعات مستمدة من القانون الروماني، ومستمدة من أهواء حكام الإقطاع، أي مستمدة – في النهاية – من أصول وثنية لا علاقة لها بالدين.

وما دام الدين " عقيدة " بهذا المفهوم، أي اعتقادا في الله، وارتباطا وجدانياً به، وتعبدا روحياً إليه.. فهو " ثابت " بكل معنى الكلمة، فالله في الوجدان ثابت، وطريقة الوجدان في التطلع إليه تمثل كذلك لوناً من الثبات.

على أننا حتى لو فرضنا أن الدين – بمفهومه الكنسي الأوربي – كان ديناً كلياً شاملا [كما هو مترل من عند الله قي الحقيقية] أي ديناً يحكم الوجدان والحياة الواقعة في ذات الوقت، ويشرع للناس أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية إلى جانب ما يشرع لهم عباداهم وسلوكهم الفردي.. فلا ندري على وجه التحقيق كيف كانت تصبح صورة المجتمع الأوربي، ما دامت الحكومات الأوربية لا تحكم بهذا الدين!

إنما نحن نعلم على وجه اليقين – من التاريخ – أن دور الإسلام لم يكن كذلك..

فهو أولا قد حافظ على مفهوم السماوي فترة طويلة من الوقت، كان فيها يشرع للوجدان وللحياة الواقعة على السواء. وعلى الرغم من الفساد الجزئي الذي أصاب الحكومة الإسلامية، وأصابها مبكرا منذ عهد الدولة الأموية، فإن " الدين " لم يعش في عزلة عن المجتمع قط، إلا في العصر الأخير.. في القرن الثامن عشر الميلادي وما تلاه، بعد الحملة الصليبية التي قادها نابليون على مصر، وتبعتها حملات صليبية أوربية متعددة على العالم الإسلامي: فرنسية وانجليزية وبلجيكية وهولندية وألمانية.. ثم أمريكية.. في صورة "

استعمار " حربي واقتصادي وسياسي.. يعمل بادئ ذي بدء على خلع الحكومة المسلمة القائمة بتنفيذ شريعة الله، وإخضاع الحكم لتشريع غير رباني، وبصفة خاصة غير إسلامي.

كما أن الإسلام قد " حرك " الحياة و " طورها " في كل مكان حل فيه.. وكانت آيات التطوير شاملة لشتى الاتجاهات.

ففي الجزيرة العربية وما شابهها في البناء الاجتماعي والاقتصادي، أحدث حركة ضخمة حين حول المجتمع القبلي إلى " أمة ". أمة متماسكة، تحكمها حكومة مركزية واحدة، وتطبق فيها قانونا واحدا، ويجمعها في النهاية شعور الأمة الموحدة، لا المقاطعات المستقلة ولا الأقاليم المتفرقة المنعزلة. وفي البلاد ذات الحضارات السابقة أحدث حركة مماثلة حين حرر الأمة من عبادة الوثن الحاكم إلى عبادة الله.. فانطلقت المشاعر التي كانت حبيسة في عبودية الحاكم، تنشط في مجالها المتحرر مختلف ألوان النشاط.

وفي جميع الأحوال أحدث " حركة " اقتصادية ضخمة، فانتقل بالمجتمع الإسلامي الواسع من مرحلة الرق، والرعي، إلى الزراعة والتجارة والصناعة على مستوى " دولي ".. فحال دون الركود الاقتصادي على وضع معين فترة طويلة من الوقت. وأهم من ذلك أنه – بتشريعاته الخاصة، الاقتصادية والاجتماعية – حال دون " ثبات " الوضع الاقتصادي والاجتماعي للأفراد والأسرات. فلا نظام فيه " للطبقات " كالذي عرفته أوربا. ولا " أشراف " بالمولد يظلون يتوارثون الأرض والمال والمركز الاجتماعي والسيادة. وإنما هو مجتمع " مفتوح " يستطيع كل فرد فيه بوسيلة أو بأخرى أن يرتفع إلى القمة وأن يترل إلى الحضيض. ثم تتفتت الثروات بتشريع الإرث فلا تبقى في يد شخص واحد أو أسرة معينة. ثم التجارة بتقلباتها تغني هذا وتفقر ذاك، وتحدث حركة دائمة في أوضاع الناس، فلا الغني يبقى غنيا إلى الأبد ولا الفقير يظل على فقره، وإنما يتبادلون المراكز كلما تقلبت الأحوال. ثم " الصناعة " في المدن الصناعية تحدث ألوانا من الثروة وألوانا من العلاقات غير ثروة الإقطاع وعلاقاته.. وهكذا تمور الحركة في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه.

وكذلك كانت الفتوح والغزوات التي صاحبت تاريخ الإسلام سببا في حركة من نوع آخر. حركة الجيوش وحركة الأفكار وحركة الحضارات. فمع كل فتح جديد حركة. ومع كل حركة تبادل حي بين الغالبين والمغلوبين. تتولد عنه مفاهيم اجتماعية واقتصادية وسياسية جديدة، يحكمها في النهاية مفهوم الإسلام.

وفوق ذلك كله كانت الحركة العلمية.. وهي تعتبر في ميزان التاريخ أكبر حركة فيه إلى ما قبل العصر الأخير. وهي ليست مجرد علم. وإنما هي على وجه التحديد " حركة

علمية ". حركة تأخذ وتعطي، وتنمو وتزداد. حركة تأليف وترجمة ونشر [عن طريق المدارس والمكتبات العامة] على نطاق واسع غير معهود من قبل في التاريخ. حركة في الفلسفة التجريدية والعلوم النظرية والتجريبية.. ويكفي من دلالاتها أن يكون العلماء المسلمون هم الذين أنشأوا المذهب التجريبي الذي سارت عليه العلوم كلها فيما بعد، وطبقوه على أوسع نطاق، في الجغرافيا والفلك.. وفي الطب والكيمياء والطبيعة.. وفي اتجاه الحياة عامة بلا استثناء.

في هذا الجو " المتحرك " النامي المتطور كان يعيش العالم الإسلامي، حيث كانت تعيش أوربا في جو من الركود و " الثبات "...

وحتى حين استهلك العالم الإسلامي طاقته [لأسباب تاريخية ليس هنا مجال تفصيلها، ولكن يمكن تلخيصها في كلمة واحدة: أنها البعد التدريجي عن " الإسلام ".. أي عن مصدر الحركة والإشعاع].. حتى حينئذ كانت فيه من بقايا الرصيد الضخم، رصيد الحركة والنماء والتطور، في أيام الحروب الصليبية، ما كان كافيا لأن يشعل الشرارة في أوربا، فيخرجها من الظلمات إلى النور.

في الحروب الصليبية التقت أوربا " ببقايا " الحركة الإسلامية.. أكبر حركة مد في التاريخ.. فكانت هذه البقايا تحمل من الحيوية والحركة والاشتعال، ما استطاع أن يوقظ أوربا من سباتها، ويبعثها تطلب الحركة والحياة.

أولى ثمار الحروب الصليبية كانت حركة البعث العلمي. فقد تعرف الصليبيون على المعارف الإسلامية، سواء ما كان منها من أصل إغريقي، وما كان إضافة جديدة أضافها العلماء المسلمون في فترة الركود الأوربي الطويل. وكانت حركة البعث هذه أول شرارة انطلقت لتحرر الأرواح في أوربا من ظلام الجهل والخرافات والأساطير.

ثم كان تحطيم النظام الإقطاعي والسعي لتكوين الدول والأمم في مكان الإقطاعيات والقبائل، حين لمس الصليبيون في حربهم مع المسلمين مزايا الحكومة المركزية الموحدة، والقانون الواحد الذي يسري على الجميع، القانون الذي لا ينبع من هوى حاكم الإقطاعية، ولا تتداخل فيه السلطة القضائية والسلطة التشريعية والسلطة التنفيذية، كما كانت كلها تتداخل في شخص الحاكم هناك. كما ساعد تكوّن المدن التجارية والصناعية التي نشأت في أثناء الحروب الصليبية – على غرار المدن الإسلامية الساحلية – على تفتيت الإقطاع وتحرير العبيد.

باختصار بدأت أوربا " تتحرك " من سباتها الطويل.

* * *

وحين بدأت تتحرك.. أخذت الحركة تصطدم بمفهوم " الثبات ".

وقد كان هذا المفهوم بعيد الغور في التربة الأوربية.. فلفترة طويلة من الزمن كان كل شيء ثابتا في أوربا لا يتحرك ولا يريم. العبيد في الأرض. والسادة في الإقطاعيات. كل منهما يرث عبوديته أو سيادته على مدار الأجيال ومدار القرون. ورجال الدين ذوو المترلة والسطوة عنصر يكمل الصورة ويثبّت الإطار.

الحياة هي الحياة.. الرجل والمرأة والأطفال يتعاقبون على طور واحد. فرد يذهب وفرد يخلفه في مكانه، يأخذ نفس السمت ويؤدي نفس الدور، فكأنما لا يذهب الذاهب ولا يجيء.. في حدود " الطبقة " بإطارها الجامد الذي لا يتحطم، يعيش كل إنسان. الشريف في " شرفه " والشعب في شعبيته، ورجل الدين في مسوحه.. بلا تبديل.

الحياة الاقتصادية والاجتماعية السياسية والفكرية والروحية تسير على نفس الوتيرة منذ عهود لا يعيها وعي الفرد، وإنما يتصورها امتدادا " أزليا " ثابتا في الماضي، ويراها في الحاضر ثابتة، فيتخيل لها كذلك ثباتا " أبديا " فيما يُقبل من التاريخ..

وفي ظل هذا المفهوم الثابت تثبت الأفكار والقيم والأخلاق والتقاليد.. ويشمل ذلك كلَّه من الخارج إطارُ الدين، فيُحكِم الصورة الثابتة، ويزيد في تثبيت المفهوم.

* * *

والجهل والأساطير والخرافة تزيد من عنصر الثبات..

فالعلم حركة.. حركة في الذهن تتبعها حركة في واقع الحياة. وما دام الذهن يعمل ويتحرك، ويعرف جديداً كل يوم، فلا سبيل للركود الجامد ولا الثبات الجائم.. وإنما السبيل للتغير والتطور، والتحوير والتبديل.

ولقد كانت الكنيسة الأوربية قيّمة على هذا الجهل حريصة عليه.. فأي شيء – كالجهل – يمكن أن يضمن لها استنامة الجماهير لسلطانها الطغياني، وأي شيء يمكن أن تحذره أكثر من العلم الذي " يحرر " الأرواح والنفوس؟!

ومن هنا كان الدور " الطبيعي " للكنيسة – من موقفها الذي ترصد منه الحياة الأوربية – أن تحافظ على الجهل أطول مدة تستطيعها، وتمنحه سلطان الدين وعنوانه، وأن تحارب العلم ما وسعتها المحاربة، وتسمه بالعصيان والمروق، وتطرده من رحمة الله.. كذلك فعلت مع كوبرنيكوس وجاليليو وجوردانو برونو.. ومع كل عالم تجرأ أن يناقض جهالتها المقدسة، ويفتح الباب للعلم كي ينير الطريق.

* * *

من هذا " الثبات " الهائل الراسخ العميق الغور، أخذت أوربا تتحرك على صدى الحروب الصليبية، وما أطلقته هذه الحروب في كيانها من هزات.

وكان أمراً طبيعياً أن تقوم " الحركة " في أوربا على غير أساس الدين..

أمراً طبيعياً من جميع الوجوه..

فالدين كما تصورته الكنيسة الأوربية وصورته للناس، كان – كما قلنا – يمثل الثبات المطلق في جميع الأمور. فالحركة إذن لا بد أن تصطدم به، كما تصطدم كل حركة بالسكون. ولا بد أن تقوم على غير أساس منه، لأنه لا يسمح بمفهوم الحركة، ولا يمكّنه من الوجود.

والكنيسة فوق ذلك كانت قد أصبحت غولا بشعاً يطارد الناس في يقظتهم ومنامهم، يفرض عليهم الخضوع المذل لرجال الدين، ويفرض عليهم العشور والضرائب، وأعمال السخرة فيما تملك من الأرض، والتجنيد في الجيوش التابعة لها التي تحارب بها الملوك. فكان رد الفعل الطبيعي هو " التحرر ". التحرر من سلطان الكنيسة الطغياني، وإقامة البناء الجديد – بناء النهضة – على مبعدة من ذلك السلطان.

فإذا أضيف إلى ذلك أن الكنيسة قد بدأت بالفعل بتعذيب العلماء وتحريقهم وقتلهم لأنهم يعلنون ما تصل إليه أبحاثهم العلمية المخالفة لأساطيرها المقدسة.. فقد كان

الطبيعي إذن أن تقوم الحركة " العلمية " مناهضة لسلطان الكنيسة، بعيدة عن مفهوم الدين.

وذلك كله فوق الروح الإغريقية الرومانية الوثنية العميقة الغور في النفس الأوربية، والتي كانت تختفي تحت قشرة رقيقة من المسيحية في العصور الوسطى، فما إن واتتها الفرصة في حركة العداء للكنيسة حتى برزت من تحت السطح، وعادت تحكم الحياة وتحكم الأفكار والنفوس!

* * *

ولا شك أن هذا كله كان بطيئاً جداً وتدريجياً جداً.. فالحركات – مهما اشتد أوارها – بطيئة الحدوث في النفوس، بطيئة التغلغل، لأن عليها أن تقاوم رواسب كثيرة واعية وغير واعية، وتصطدم بكثير من العقبات..

والأفكار التي تبدأ في نفوس أفراد متحمسين، يقتحمون المخاطر ويرتادون الطريق، لا تتحول إلى أفكار " جماهيرية " على نطاق واسع، إلا بعد أجيال من دورتها الخفية في النفوس.

ومن ثم فقد استغرقت " النهضة " قرونا عدة وهي تقاتل سلطان الكنيسة، وتقيم الحياة – جزءا جزءا – بعيداً عن سلطان الكنيسة، ولكنها كانت " لادينية " منذ مولدها، و" هيلينية " في وجهتها، وفي استمداداتها وإيحاءاتها، أي.. بعيدة عن روح الدين.

* * *

وقام الصراع.. الخفي والعلني في نفوس الناس بين مفهوم النهضة ومفهوم الدين.

صراع مرير بطيء طويل الأمد.

فقد كانت ثمار النهضة مغرية ولا شك.. ثمارها الفكرية والعلمية والفنية.. كانت – بالنسبة لأوربا – نورا ينفذ في الظلمات، وتتفتح عليه العيون مبهورة بعد طول الظلام. وكانت حركة من الركود الآسن المتعفن. والحركة في ذاتها محببة، لأنها تلبي الفطرة التي تكره السكون. كما أنها كانت تعتمد – في أغوار النفس الأوربية – على الميراث

الإغريقي الروماني الذي لم تكن المسيحية قد أطفأته إطفاء كاملا، إنما كان مكموراً فقط تحت غشاء الدين..

كل ذلك يسّر للنهضة أن تمضي قدما في نشر رسالتها في المعرفة والحضارة، والعلوم والفنون..

ولكن – من جانب آخر – كانت " العقيدة " عزيزة على الجماهير. فقد صاحبتها ألف سنة أو تزيد. وأيًّا تكن درجة تعمقها، وأيا يكن تغلغلها الحقيقي في الحياة، وحكمها لسلوك الناس.. فقد كانت " موجودة " ومؤثرة في وجدان الجماهير. ولم يكن من السهل اقتلاعها ولا محوها من الوجود.

ومن ثم عاشت أوربا فترة من الوقت غير قصيرة بشخصية مزدوجة: مسيحية من ناحية، وهيلينية من ناحية. مسيحية في داخل الكنيسة، وهيلينية في واقع الحياة. مسيحية في الوجدان وهيلينية في التفكير.

واستمر هذا " الطور " عدة قرون.

ولكن المعرفة الخفية كانت تدور في داخل النفوس.. وتدور – رويدا رويدا – في صالح الهيلينية المنبعثة في عصر النهضة لا في صالح الدين.. وإن كان الدين – بعد – صاحب سلطان في نفوس الجماهير.

* * *

وجاء اليوم الذي وقع فيه الصدام الحاد المدمر العنيف.

وقع على يد دارون..

فقد أصدر دارون كتابه في " أصل الأنواع " سنة 1859، وفي سنة 1871 نشر كتابه في " أصل الإنسان ".

ورُسم خط واضح من خطوط التاريخ.

فمن قبل وقع الصدام بين الكنيسة وبين كوبرنيكوس [1] وجاليليو [2] وجوردانو برونو [3]، وعذبتهم وأحرقتهم ونكلت بهم أبشع تنكيل حين عارضوا فكرتها في أن الأرض مركز الفلك والإنسان مركز الكون.. وقد تكون الجماهير قد استبشعت عمليات النكال والتعذيب، ولكنها رغم ذلك وقفت في صف الكنيسة تصفق لانتصارها على " الملحدين ".

ثم جاء دارون بالطامة الكبرى حين قال إن الإنسان أصله حيوان..

وكفرته الكنيسة بلا شك..

ووقفت الجماهير في بادئ الأمر في جانب الكنيسة. فقد عز عليها بطبيعة الحال أن يصمها دارون بالحيوانية، وينزع عنها " قداستها " وتميزها ورفعتها، حين ينزع عنها كرامة الإنسان ويردها إلى أصل الحيوان.

ولكنها رويدا رويدا في المعركة الحادة التي قامت بين دارون وبين الكنيسة، غيرت موقفها! فقد وجدت أن هذه فرصة سانحة للإجهاز على ذلك الغول البشع الذي يضطهد الناس بسلطان الدين.

ونسيت الجماهير بعد فترة كرامتها " الإنسانية " الملموزة، وفرحت بالانطلاق والتحرر.. ولو في إهاب الحيوان! وحمدت لدارون وقفته " الجريئة " في وجه الطغيان. وحمدت له أكثر من ذلك أنه أعطاها السلاح الجبار الذي تحطم به ما بقي من سلطان الكنيسة الجائر: سلاح " العلم ".. سلاح العرفان.

* * *

ولكن شيئاً كبيراً كان قد حدث في هذه الأثناء..

فكرة " التطور " حلت محل فكرة " الثبات "..

---

[1] سنة 1473 - 1543.
[2] سنة 1564 - 1642.
[3] سنة 1548 - 1600.

لقد كانت " الحركة " من قبل قد اصطدمت بالثبات فعلا، وبدأت تزلزله من مكانه. ولكن الصراع كان خفيا، وكان هينا لينا داخل النفوس. فقد عاشت الهيلينية والمسيحية معاً جنبا إلى جنب في ظل ازدواج الشخصية الذي عاشت به أوربا طوال عصر النهضة وما بعده.. وكان من الممكن أن تستمر في هذا الازدواج فترة طويلة أخرى لولا هذه الأحداث..

وكان دارون هو الناقوس الذي دق معلنا مجيء الأحداث.

لقد صارت الحركة المضادة للثبات الآن نظرية " علمية "، ولم تعد مجرد وجدان خفي في داخل النفوس. نظرية اسمها " التطور ".. اسم جديد، مغرٍ جذاب!

واندفعت الجماهير وراء اللعبة الجديدة..

العلماء أولا.. ومن ورائهم الجماهير..

" هيجة "!.. كل شيء يتطور..

إذا كانت الحياة تتطور.. من الخلية الواحدة إلى الإنسان المعقد الشديد التعقيد؛ وإذا كان الإنسان ذاته قد تطور من حيوان سابق إلى حيوان يشبه الإنسان، إلى إنسان يشبه الحيوان.. إلى إنسان.. فماذا يمكن أن يكون ثابتا على وجه الأرض على الإطلاق؟!

لقد كانت صدمة عنيفة لفكرة الثبات..

صدمة لم تطقها في مبدأ الأمر أعصاب العلماء ولا أعصاب الجماهير..

ولكن هؤلاء وهؤلاء حين أفاقوا من الصدمة أخذوا يتشبثون في فرحة ولهفة باللعبة الجديدة، وأخذوا ينطلقون بها في كل مكان.

إنه ليست الأحياء وحدها هي التي تطورت أو تتطور.

إنه كل شيء.. كل شيء في هذه الحياة..

حتى الأفكار والمجتمعات تتطور.. إنها ليست " ثابتة " كما كانت تبدو من قبل.

والدين..؟! يا للعجب! إنه هو الآخر يتطور! من كان يتصور؟!

إن فكرة الله " تطور " في تفكير البشرية! إنها ليست فكرة أزلية ثابتة كما كان يصورها الدين وتصورها الكنيسة. لقد تطورت من قبل، ويمكن اليوم أن تتطور. كانت عبادة للوالد. وعبادة للطوطم. وعبادة لقوى الطبيعة المختلفة. وعبادة للأوثان. ثم صارت عبادة لله. ولكنها يمكن أن تتطور.. يمكن أن تكون عبادة لأي شيء آخر.. ماذا لو أصبحت عبادة " للطبيعة "؟!

الطبيعة جميلة.. الطبيعة خلاقة.. الطبيعة هي الأم التي ولدتنا.. أو " خلقتنا ".. فلنعبدها! إننا كاسبون بذلك مكاسب عظيمة. سنحطم الكنيسة ذات السلطان الطاغي الذي لا يرحم، وذات الجهالات والخرافات والأساطير. وسنعبد إلها " جميلا ".. وفوق ذلك فإنه إله بلا كنيسة! بلا التزامات! بلا ضرائب ولا عشور. بلا رهبانية.. بلا تزمت. إله يمنحنا الحرية لأننا سنعيش في ظله أحراراً من كل قيد.. طلقاء.. نفعل ما يحلو لنا، لأنه لا يحاسبنا ولا يزجر أفعالنا. سنولد من جديد. لن نولد – هذه المرة – في المسيح. ولكن سنولد في أحضان الطبيعة.. فأي فرحة لنا في هذا الدين الجديد؟!

* * *

ولكن موجة الاندفاع وراء التطور، والابتعاد عن مفهوم الدين، لم تكن قائمة على دارون وحده، وإن كان دارون بطلها المغوار..

لقد كان هناك حدث اقتصادي واجتماعي ضخم يهز أركان الحياة هزاً، ولا يقل مفعوله عن مفعول نظرية التطور.. ذلك هو الانقلاب الصناعي في أوربا.

بدأ الانقلاب الصناعي بظهور الآلة.. وأحدث انقلابا كاملا في الحياة الأوربية لا يقف عند حدود العلاقات الاقتصادية أو الاجتماعية وإنما يتعداها إلى كل نواحي الحياة.

بدأت المدن الصناعية تنشأ، وتجتذب إليها الشباب من الرجال يعملون في المصانع الجديدة ويسكنون في المدينة على نسق جديد لا يعرفونه من قبل.

لقد كانت الحياة من قبل هادئة رتيبة بطيئة آسنة.. تمر بمتاعبها وملاعبها على وتيرة واحدة في القرية أو الإقطاعية.. الفلاحون يعملون في الأرض أرقاء أو طلقاء، وزوجاتهم في المنازل يدبرن شئونها ويغزلن الغزل ليبعنه في السوق.. والأسرة – في صورتها تلك – مكينة الروابط، لا يفكر أحد أو يجرؤ على تفتيت روابطها. والناس متعارفون على مفهوم معين للدين والأخلاق والتقاليد، يرعونه حق رعايته أو لا يرعونه، ولكنهم لا

يفكرون في مناقضته حتى ولو خالفوا تعاليمه في سلوكهم الواقعي. ولكل شيء من ذلك قداسة. قداسة استمدها من طول الممارسة وثباتها، فوق استمدادها من رهبة الدين.. والجريمة الخلقية يرتكبها نفر من الشبان الطائشين لأنهم طائشون.. وقد يتغاضى عنها " المجتمع " ولكنها في نظره جريمة. والفتيات لا يرتكبن هذه الجريمة لأن سمعتهن تذهب إذن إلى الأبد – كذلك تقضي مفاهيم المجتمع – فهناك الفضيحة وهناك العار.. وهناك أيضاً – في هذه الحالة – رهبة الدين.. فلا تقدم الفتيات عليها إلا فلتة عابرة في القرية في كل جيل.

وفجأة أخذت الأمور تتغير..

فالمصانع الجديدة تجمّع حولها الشبان الأقوياء المفتولي العضلات.. الذين يقدرون على الجهد العضلي العنيف فقد كانت الآلات في منشئها تحتاج إلى مثل هذه الجهد لإدراتها. وقد جاء هؤلاء الشبان إلى المدينة أفرادا بلا أسر، يرتادون الطريق ويمارسون هذه التجربة الجديدة، لا يجرؤون على إحضار أسرهم معهم قبل أن يستقر لهم المقام.

وهم شبان مغامرون.. انفلتوا من " القيد " الإقطاعي.. الذي كان يكبلهم بالأرض، والمذلة للسيد، فجاءوا يمارسون " الحرية " في المجتمع الجديد.

وهو مجتمع لا يعرفهم.. لا يعرف ذواتهم. إنهم في أغمار مجهولون، لا يحفلهم أحد، ولا يتقيد سلوكهم بمعرفة الناس لهم، واستحيائهم هم من الناس الذين يعرفونهم، ويعرفون أسرهم ويعيّرونهم بالسلوك المنحرف..

ثم هم شباب قوي في فترة الفتوة الفارهة.. بلا أزواج.

إذن.. فالطريق هو الجريمة الخلقية، والظروف كلها تمهد الطريق.

وجاء دور المرأة لتعمل..

ساءت العلاقة بين العمال وأصحاب المصانع. يشغلونهم فوق ما يطيقون ويعطونهم أبخس الأجور. ويضرب العمال أو يهددون بالإضراب، فيبحث " السادة " الجدد عن سلاح مضاد.. هو إيجاد " جيش احتياطي " مـــن العمال الذين يقبلون العمل بنفس الأجر بل بأجر أقل..

وجاءت المرأة التي هجرها عائلها، أو التي لا تجد عائلا بعد نزوح ألوف الشبان إلى المدينة وترك ما يقابلهن من الفتيات بلا رجال.. جاءت فوقعت في المصيدة المنصوبة. جاءت تبحث عن عمل لتعيش. ورضيت بهذا الأجر الدون تحت وطأة الظروف.

ورُسم خط جديد من خطوط التاريخ..

المرأة تعمل " بالجملة "..

وتاخذ أجرا في يدها تملكه لنفسها دون شريك أو رقيب.

وصحيح أنها تعول به نفسها أو أسرتها. ولكنها صارت " تملك " بعد أن لم تكن تملك و " تتصرف " في ملكها بعد أن لم تكن تتصرف. فقد كانت تقاليد المجتمع الأوربي وتشريعاته تحجب المرأة عن التعامل الحر في المال والملك، وتمنعها من حرية التصرف المباشر في أي شأن من الشئون.

وأحست المرأة رغم وطأة الظروف كلها أنها " تتحرر ".

والتقى شاب متحرر بفتاة متحررة!

لم لا يلبيان معاً – في حرية – داعي الجنس المحبوس؟!

ولم يكن هذا دفعة واحدة بطبيعة الحال، وما كان من الممكن أن يكون. فهناك الرواسب الواعية والخفية العميقة المترسبة في النفس تزجرها عن الانطلاق. ولكن رويدا رويدا تتم جميع الأمور.

*　　*　　*

ونشأ مع الرأسمالية الصاعدة جيل يمارس لونا من الحرية السياسية لم يكن موجودا من قبل. برلمان وانتخابات وتمثيل شعبي ومهني نقابي.. وخطب واجتماعات. وحرية في القول والعمل.. شيء لم يكن موجوداً في داخل الإقطاع. شيء دافع إلى النشاط والحركة. دافع إلى الأمام. وفي الوقت ذاته " متحرر ".. يطلب مزيدا من الحقوق مزيدا من الحرية. ويقابل صعابا في الطريق، من " السادة " أصحاب النفوذ، الحريصين على التفرد بالسلطان، فيحفزه ذلك إلى مزيد من الصراع في سبيل الحرية. ويعدي التحررُ النفسَ من

شعور إلى شعور. ومن فكرة إلى فكرة. فتطلب الحرية في جميع المجالات ومن بينها التحرر من قيود الأخلاق كما رسمها المجتمع الزراعي في ظل الإقطاع وثبّتها إطار الدين...

*　　*　　*

وتتفكك روابط الأسرة..

الرجل يعمل والمرأة تعمل والأطفال يعملون..

ولا يعود البيت في حسهم جميعاً هو ذلك الرباط المقدس الذي يربط بعضهم ببعض، والذي يلتزمون نحوه بآداب ومشاعر وتقاليد و " طقوس ".. كانت تنشأ في المجتمع الريفي من وجود " امرأة " مستقرة تنظم هذه المشاعر وتمسكها بيدها.. أو بقلبها.. فلا تفلت منها. كما تنشأ من سيطرة الزوج على الموقف كله داخل الأسرة، وصدور " التشريعات " في داخل المترل منه وحده، فيوجد رباطان متقابلان يربطان كل أفراد البيت: رباط عاطفي تملك قياده الأم، ورباط عملي يملك قياده الأب، والأطفال بين هذا الرباط وذاك يروحون ويجيئون في " حضن " الأسرة لا يتعدونه.

كل ذلك تغير حين خرجت المرأة من مستقرها فانفلت الرباط العاطفي.. فلا وجود له في زحمة العمل والجهد الناصب الذي تبذله المرأة فيه. وتغير كذلك حين " استقلت " المرأة اقتصاديا، فصارت " سلطة " مع سلطة الأب.. فانفلت الرباط العملي الذي كان يحكمه تفرد الأب.. ثم تغير مرة ثالثة حين ذهب الأطفال يعملون، فيصهرهم جو العمل مبكرا قبل أوانه، ويفسد فيهم مشاعر الطفولة، ويستحث فيهم مشاعر النضوج في كيان طفل، فتختل مشاعرهم وينفلتون من الرباط.. الرباط العاطفي والرباط العملي سواء.

*　　*　　*

ويحدث ذلك كله تغيرا ملحوظا في صورة المجتمع.

كل العلاقات المعهودة تتغير.. أو.. " تتطور "!

العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والخلقية والفكرية.. لا شيء على حاله، بعد أن ظل على حاله مئات السنين.

الصورة الثابتة، التي كان الفرد مجرد لبنة فيها، يذهب فيجيء غيره يخلفه في نفس مكانه.. لم يعد لها وجود.

لا الرجل ولا الطفل ولا المرأة.

لا البيت ولا الشارع.

لا العبد ولا السيد.

لا العمل ولا نوع الثروة.

كل شيء قد تغير..

وتغير بسرعة مدهشة لا عهد بها من قبل فقد كانت من قبل تمر السنوات العشر أو العشرون أو الخمسون او المائة لا تكاد تحدث تغيرا يذكر في الصورة. بحيث يغري الأمر بالظن أن كل شيء " ثابت "، لبطء الحركة وضآلتها. فاليوم صارت السنوات المائة، بل الخمسون، بل العشرون، بل العشر، تحدث تغير ملموسا واضحا في كل شيء:

رجل من حيث هو " رجل " لم يعد له السلطان المطلق قي بيته كما كان.

وامرأة لم تعد تعتبر نفسها قعيدة بيتها، ولا ملزمة بالطاعة الكاملة لذلك الرجل الذي كان.

وطفل مشرد نفسيا وإن كان يحمل بين أصابعه شيئاً من النقود.

وبيت لا رباط فيه.

وشارع مزدحم بالناس. أصناف مختلفة من الناس. رجال ونساء وأطفال، كزحمة المواسم والأعياد في القرية، ولكن في غير موسم أو عيد. وعلى نحو آخر غير ازدحام القرية. فهنا ناس لا يعرف بعضهم بعضا، ولا يحفل بعضهم شئون بعض، ولا يلتزمون إزاء بعضهم البعض بتقاليد التعارف والارتباط.

وعبد " تحرر " من ربقة الأرض. ووقع في عبودية جديدة، هي عبودية المصنع ورأس المال. ولكنه مع ذلك مستبشر: دخله زاد. وأصبح يصارع، يملك حق الصراع. ويطالب بحقوق. ويملك حق المطالبة بالحقوق. ويتكتل في تكتلات ذات فاعلية ووزن،

ويصبح بالتدريج قوة سياسية متزايدة. ثم هو يعيش مع غيره من العبيد في جو سمته [الظاهرية على الأقل] هي الحرية لا العبودية. وخصوصاً في الجانب الخلقي. ثم هو يشعر بفرديته المتميزة [في سلوكه الشخصي] حيث كان مقيدا في كل خطوة من قبل بالسلوك الجمعي الذي يربط إطار القرية كله؛ بينما يشعر بجماعيته المتكتلة [في النقابات والأحزاب والهيئات والجماعات] حيث كان يحس بالضياع من قبل كفرد لا مجموع له، لأن المجموع الذي يمثله ليس له حساب. وباختصار قد انقلب كيانه كله، بجميع جزئياته، وأصبح صورة مقابلة تمام التقابل لكل ما كان!

وسيد ما زال يشعر بالسيادة ولكن من نوع آخر. فهي سيادة صارت تعتمد على المال السائل بعد أن كانت تعتمد على الأرض. صارت مركزة في حيز أصغر ولكنه أفعل. ومع ذلك فهي سيادة تحتاج إلى صراع مع العمال والنقابات من جهة، والمنافسات الشديدة من جهة أخرى، بصورة لم تكن موجودة من قبل في الإقطاع المستقر الثابت الأركان.

وعمل من نوع جديد. لا يتعامل مع " المجهول " لا يتعامل مع " الغيب " كما كان يصنع وهو يبذر البذرة في الأرض وينتظر الناتج من السماء. وإنما يتعامل مع القوى المنظورة التي تتدخل في " المادة " فتشكلها وتصوغها كما يريد " الإنسان ". يتعامل مع " الطبيعة " لا " ما وراء الطبيعة "! يتعامل مع المادة لا مع الله.

كل شيء صورة مختلفة تمام الاختلاف عما كان قبل ذلك " الانقلاب ".

* * *

ثم يتدخل " العلم " فيكمل صورة التغير..

التقدم العلمي يقفز قفزاً هائلا كل يوم، ويغير شكل الحياة البشرية.

الآلة.. المركبة البخارية.. السيارة.. الكهرباء.. الصناعة الآلية في مكان الصناعة اليدوية.. كل شيء قد تغير عن ذي قبل. ثم.. هو دائم التغير لا شيء يثبت على حاله أكثر من بضع سنين، قد تختصر إلى بضعة شهور.. ثم يتغير. يدخل عليه تحوير جديد.

وصور الحياة تتغير تبعا لكل تغير جديد يحدثه العلم.

فالسفر بالقطار شيء يختلف تماما عن السفر على الحصان أو العربة التي تجرها الخيول.

والنسيج الآلي شيء آخر غير النسيج اليدوي..

والكهرباء غير الفحم..

والشارع الذي تصب فيه المخترعات الجديدة كل يوم، شيء آخر غير الشارع الثابت في طوله وعرضه ومعروضاته.

والبيت الذي يستحدث أدواته يختلف عن البيت الذي ظل قروناً يستخدم نفس الأدوات..

بل نظريات العلم ذاهّا تتغير.. في الطبيعة والكيمياء والطب والفلك والرياضة والأحياء.. نتيجة للكشوف الجديدة والآلات العلمية المستحدثة. وهل هناك ما هو أضخم من القول بأن الكائنات الحية تطورت من الكائن الوحيد الخلية؟ أو القول بأن الهواء مملوء بملايين من الأحياء الدقيقة التي لا ترى ولا تُحس، وهي مع ذلك شديدة الخطورة، تحدث الأوبئة والأمراض؟ أو القول بأن الكواكب ليست سبعة فقط، أو أن هناك ملايين من النجوم لا تراها العين وهي مع ذلك أكبر وأشد اشتعالا وإضاءة من الشمس؟!

وينشأ من ذلك كله شعور عميق بالتغير.. أو التطور. أو عدم الثبات.

*   *   *

وتجمع " حصيلة " هذا كله في اتجاه معين، او اتجاهين متصاحبين..

التطور من ناحية.. ومن ناحية أخرى الابتعاد التدريجي عن الدين..

التطور لم يعد " نظرية علمية " كالتي نادى بها دارون في داخل المعمل، وفي حدود العلم الذي بحث فيه: علم الأحياء.. وإنما صار " لوثة " أصابت العلماء كما أصابت الجماهير.

لوثة تصيب كل شيء، وتتصور كل شيء من خلال فكرة التطور.. لا شيء ثابت على الإطلاق

لا الدين. ولا الأخلاق. ولا التقاليد. ولا القيم. ولا الأفكار. ولا " الحقائق ". ولا المعلومات. ولا شكل الحياة. ولا شكل المجتمع. ولا كيان الفرد. ولا علاقات الفرد بالمجتمع. ولا علاقاته مـــع الدولة.. ولا مشاعر الرجل ولا مشاعر المرأة. ولا أهداف الحياة..

بل ينبغي العمل على محاربة " الثبات " بكل وسيلة من وسائل الحرب.

كل شيء " ينبغي " أن يُطوَّر بالقوة، إذا لم يتطور من تلقاء نفسه. لا شيء ينبغي أن يكون ثابتاً على الإطلاق. فالثبات ضد ناموس الحياة. والناموس هو التطور. وكل شيء ثابتٍ فهو إذن مخالف للناموس!

ومن ثم أصبح التغيير أو التطوير هدفا في ذاته وليس وسيلة إلى غاية فحسب. وأصبح الناس يكرهون أن يروا شيئاً ثابتاً على وضعه في كل الأرض!

فإذا كانت العقيدة في الله تمثل لونا من الثبات.. فلتتغير.. إما أن نغير المعبود أو نغير العبادة! فلنكف عن عبادة الله. ولنعبد الطبيعة. أو نعبد أنفسنا.. المهم هو التغيير! ولنكف عن الطريقة التقليدية للعبادة. فلنتعبد بطريقة أخرى، ولتكن العربدة والانفلات.. المهم هو التغيير!

وإذا كانت الأخلاق تمثل لونا من الثبات.. فلتتغير.. فلنستحدث أخلاقا جديدة. ولو لمجرد التغيير! فلتكن الانتهازية فضيلة، والأنانية فضيلة، وتقطع الروابط العائلية فضيلة..

وإذا كانت التقاليد تمثل لونا من الثبات.. فلتتغير.. فلتسبق المرأة الرجل. وليتجرأ الصغار على الكبار. ولتتغير الملابس: ملابس الرجل وملابس المرأة. ولتكثر " الموضات " فذلك أدعى للتغيير السريع والتبديل.

ذلك من جانب لوثة التطور..

أما من الجانب الاخر فلم يعد للدين وزن حقيقي في هذه الأمور!

لقد جاءت الزلزلة الأولى للدين من أنه يمثل مفهوم الثبات في عصر يتمثل كله بمفهوم التطور والتغيير، أو مفهوم الحركة على وجه العموم. الحركة التي تصطدم بالسكون.

ولكن الأمر زاد اتساعا في هذا الاتجاه.

إن كل علاقات المجتمع تقوم على غير أساس من الدين..

ليسن النهضة " الفكرية " فقط، هي التي قامت على أساس لا ديني " secular " وإنما الواقع العملي كذلك الذي انبثق من النهضة الفكرية..

فالنظام الرأسمالي الصاعد قام على أساس ربوي صريح. والدين يحرم الربا ويمنع التعامل على أساسه. وعلى الرغم من احتجاج الكنيسة وصراخها ضد نظام الربا، فقد مضت الرأسمالية الطاغية في طريقها لا تصيخ سمعا لصراخ الكنيسة، مدفوعة بشهوة المال المجنونة التي لا تتريث ولا تتأثم.. ولا تهمها قيود الأخلاق أو قواعد الدين.

والعلاقات الجنسية " الحرة " التي قامت بين الرجل والمرأة في ظل العمل المشترك، والاختلاط في المجتمع، والاشتراك في النوادي، والسعي المشترك إلى " الترفيه ".. وفي ظل الاستقلال الاقتصادي للمرأة وظنها – من ثم – أنها لم تعد ملزمة بالمحافظة على عفتها، لأنها تستطيع أن تعول نفسها إن رفض الرجل إعالتها بسبب أخلاقها.. وفي ظل صعوبات الحياة المتزايدة التي تشغل الشاب فترة من الوقت عن تكوين الأسرة والاستقرار الوجداني والجسدي في إطارها.. الخ.. هذه العلاقات قامت كلها على أساس مخالف للدين. ورغم المواعظ التي ألقاها " رجال الدين " بالمئات والألوف، فإن الصياغة الواقعية للمجتمع ظلت تسير في اتجاهها المنفلت من رباط الأخلاق. لأن الأخلاق كانت قد أصبحت مثلاً معلقاً في الفضاء لا رصيد له من الواقع. ولأن الدين – وهو في عزلة عن المجتمع منذ مولده في أوربا، لا يحكم الحياة الواقعة ولا يشرع لها في كل شيء – لم يكن يملك أن يوجه سفينة المجتمع في خضمها الهائج المضطرب الذي صنعه الانقلاب..

والعلم سار منذ البدء في طريق غير طريق الدين، لأن الدين – كما تمثله الكنيسة يومئذ – لم يكن في طوقه أن يمد العالم بشيء؛ لا بمذهب – كالمذهب التجريبي الذي أمد به الإسلام التفكير العلمي – ولا بمعلومات صحيحة تفيده، ولا بتشجيع من أي نوع. بل كان العكس هو الحاصل. فالكنيسة تشجع الجهل وتحارب العلم وتنكل بالعلماء.

ومنتجات العلم – بعضها على الأقل – تتجه نحو الكسب قبل أن تتجه نحو الفائدة، مدفوعة بشهوة رأس المال، وذلك مخالف لروح الدين. ولكن الدين هناك ليست له قوة التوجيه ولا الخبرة بالتوجيه في ذلك المجال..

ورويدا رويدا أحس الفرد العادي أن حياته تصوغها الأشياء " المتطورة " ولا يصوغها الدين.

العلم يصوغ حياته المادية ويشكلها..

والسياسة تصوغ علاقاته السياسية وتشكلها

والرأسمالية تصوغ حياته الاقتصادية

والانقلاب الصناعي ومعقباته تصوغ حياته الاجتماعية

والهيلينية تصوغ حياته الفكرية...

وينعزل الدين انعزالا شديداً في داخل الوجدان.. فكل يوم تنتزع الحياة الواقعية جزءاً من مساحته، وتزحزحه عن مكانه في النفس، فيسلك الفرد سلوكه سلوكه الاجتماعي والفردي، والعملي والعلمي، والسياسي والاقتصادي دون أن يحس بمكان للدين في هذا كله. أو يحس بمكان لفكرة الله.

وإن لم يكن ينفر من الدين.. فهو على الأقل يهمله وهو متوجه إلى واقع الحياة...

* * *

ولكن الأمر لم يظل في داخل هذه الحدود.. حدود " إهمال " الدين وعدم تحكيمه في أمور الحياة..

لقد مضى الأمر خطوة أبعد. خطوة " التحطيم " المتعمد لقواعد الدين.

وتلك كانت مهمة اليهودية العالمية!! وقد قامت بها بنجاح منقطع النظير.

* * *

لا ينسى اليهود قط حقدهم على الأمميين " او " الأميين " كما يعبر القرآن الكريم: " ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في **الأميين** سبيل ". ذلك أنهم هم شعب الله المختار، وغيرهم من " كلاب " البشرية لا جزاء لهم سوى الإضعاف والإفناء والتدمير..

وثأرهم مع المسيحية في أوربا ثأر قديم.. ثأر الاضطهاد الفظيع الذي نالوه تحت الحكم الروماني المسيحي، والإذلال الذي أصابهم في كل مجتمع مسيحي.

إذلال تمثله رواية " تاجر البندقية " لشكسبير، كما تمثله رواية " الزنبقة الحمراء Scarlet Pimpernel " تأليف البارونة أوركزي Orczy.

كان المسيحي يحتاج إلى المال فيقترضه من اليهودي، ومع ذلك يأبى إلا أن يحقر مقرضه، فلا يسلم عليه بيده، ولا يلمسه، إنما يوقفه بعيداً عنه كالمنبوذ، ويقول له آمراً موبخاً: ضع المال بعيداً واغرب عن وجهي يا خنزير. فإذا ابتعد خطوات في ذلة ذليلة، اقترب " السيد " المسيحي ليأخذ المال الذي اقترضه من اليهودي!

إذلال لا تنساه ذاكرة يهود..

وقد فرحت اليهودية العالمية أيما فرحة بقيام النهضة الأوربية الحديثة على أساس لا ديني (secular) فذلك نصف الطريق نحو تحطيم المسيحية، خصمها القديم.. وقامت تنفخ في هذا الاتجاه من وراء الستار.

وكانت فرحتها أعظم وأشد يوم ظهر دارون – المسيحي – بنظريته في أصل الأنواع وأصل الإنسان، فقد أحست بذكائها، بما وراء ذلك الحدث الضخم من صدام عنيف مع الكنيسة.

يقول كتاب بروتوكولات حكماء صهيون في ذلك: " إن دارون ليس يهودياً، ولكنا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع، ونستغلها في تحطيم الدين [المسيحي] "

وكان ذلك حقاً..

بذل اليهود جهود الجبابرة لتوسيع الهوة التي قامت بين الدين وبين الداروينية، على أمل تحطيم الدين في النهاية، تحقيقاً لحقدهم القديم ضد غير اليهود عامة، وحقدهم – في أوربا – على المسيحيين بصفة خاصة، من أجل ما لاقوه منهم من اضطهاد.

واستغلت اليهودية العالمية نظرية دارون أبشع استغلال..

استغلته على يد ثلاثة من أكبر علمائها.. قاموا بصياغة الفكر الأوربي كله في ميدان الاقتصاد وعلم النفس والاجتماع.. أخطر ميادين ثلاثة في عالم الفكر.. على أساس معاد للدين، بل محطم لكل مفاهيمه.

أولئك هم: ماركس – وفرويد – ودُرْكايم.

اليهود الثلاثة
ماركس / وفرويد / ودُرْكايم

من الحق أن نقول إن اليهود ليسوا هم الذين **أنشأوا** الفُرقة بين أوربا وبين المسيحية. فقد قامت الفرقة بالفعل منذ قيام النهضة دون تدخل من اليهود [وإن كان ذلك قد جاء على هواهم بلا شك] وقام الخصام والصراع على يدي دارون دون تدخل منهم كذلك [وإن كانوا قد فرحوا لذلك فرحاً شديداً كما تقول بروتوكولات حكماء صهيون].

ولكن الدور الذي قاموا به مع ذلك كان شديد الخطورة..

قامت الفرقة بين الدين والعلماء، وبين الدين والمفكرين، وبين الدين ودعاة الحرية، وبين الدين والمرأة الراغبة في اقتحام المجتمع و " الاستمتاع " بالحياة.. ولكن الابتعاد عن الدين، أو النفور منه، أو الاكتفاء بإهماله والانصراف عنه كان حتى ذلك الحين **مزاجا شخصياً** لأصحابه، يصنعونه لحسابهم الخاص كأفراد..

وقامت الفرقة بين الناس وقواعد الأخلاق – في ميدان الجنس بصفة خاصة – كمزاج شخصي كذلك، أو " كضرورة " يتلمس الناس إليها الأعذار..

ولكن " العلماء " اليهود الثلاثة تدخلوا في الأمر ليجعلوا من كل ذلك **نظرية** يسندها العلم، ويعطيها سند " الحقيقة العلمية " في أنظار الجماهير! فلا يعود الأمر بعد مزاجا شخصياً يحتاج الإنسان إلى الاعتذار عنه، وتلمس المبررات له، وإنما يعود **واجباً** يقتضيه التقدم العلمي، لا يحتاج إلى مبرر آخر، فهو يبرر نفسه بنفسه.. ولا يُعتذر عنه فهو في غير حاجة إلى اعتذار.. بل الذي يحتاج إلى التبرير والاعتذار هو التمسك بالدين والأخلاق والتقاليد.. فهي تهمة ينبغي التبرؤ منها أو تقديم المبرر المعقول!

وذلك هو الدور الخطير الذي قام به ماركس وفرويد ودركايم.. كل في اختصاصه.. وأثر تأثيراً بالغاً في الفكر الغربي كله في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين..

إنهم لم يقولوا إن المفهوم الكنسي للدين هو المنحرف، وهو الذي يحتاج إلى تقويم.. وإنما قالوا إن **الدين ذاته** هو الانحراف الذي يحتاج إلى تقويم!

ولم يقولوا إن المفهوم السائد للأخلاق هو المنحرف، المحتاج إلى تعديل.. وإنما قالوا إن الأخلاق ذاتها ليست قيمة حقيقية من قيم الحياة!

ثم قالوا هذه القولة وتلك لا كاعتقاد شخصي يراه المؤلف، ويدعو إليه كمذهب فردي! وإنما كدراسات علمية ونظريات علمية وحقائق علمية.. تلبس مسوح البحث والدراسة والتحقيق!

ومن هنا كانت الفتنة التي تعرض لها المجتمع الغربي كأعنف ما تكون الفتنة.. والتي يعيش في نتائجها منذ ذلك الحين!

*　　*　　*

لقد كانت العوامل كلها موجودة بالفعل لتؤدي لذلك الانحراف الخطير.. وكانت – في ذاتها – عوامل عنيفة، اجتماعية واقتصادية وفكرية.. متمثلة في نظرية دارون من ناحية، والانقلاب الصناعي من ناحية أخرى.. ومع ذلك فلم يكن من الحتم أن تصل هذه العوامل إلى تحطيم الدين وتحطيم الأخلاق.

لقد ابتعد الناس عن الدين مرات كثيرة في حياة البشرية لأسباب اجتماعية واقتصادية وفكرية. وانحرفوا مرات كثيرة عن الأخلاق وانغمسوا في الشهوات.. وكانوا في كل مرة يعودون.

ولكنهم في هذه المرة أبعدوا في الضلال جداً، وكأنما قرروا بينهم وبين أنفسهم ألا يعودوا بعد ذلك أبداً مهما فعل الفاعلون!

ذلك أنهم – في كل مرة سابقة – كانوا ينحرفون كمزاج شخصي، لا يجد سندا في النهاية حين يشتد ويعم المجتمع كله أكثر من سند " الأمر الواقع ". ولكنه انحراف. وانحراف مرذول.

أما في هذه المرة فقد قدم لهم " العلماء " السند العلمي للضلال المنحرف، فزين لهم فرأوا أنه الحق، وأنه الصواب، وأنه الأمر الذي ينبغي اتباعه، لا تمشيا مع الأمر الواقع، وإنما سعيا إلى الأفضل والأقوم والأصح!

قدموا لهم الفرملة التي تمنع العودة، وتسمح فقط بالمضي المجنون فـــي طريق الشيطان.

*　　*　　*

اتخذ اليهود الثلاثة نواحي مختلفة من الفكر. فكتب ماركس في الاقتصاد وفرويد في علم النفس، ودركايم في علم الاجتماع... ولكنهم في النهاية يلتقون في عدة أمور.

لقد أخذوا كلهم، بادئ ذي بدء، من النظرية الداروينية فكرة حيوانية الإنسان وماديته، فمدوها ووسعوا نطاقها، وعمموا إيحاءاتها المسمومة في كل اتجاه.

وليس هنا المجال – ولا هو من همي في أي بحث – أن أناقش نظرية دارون.. وإنما أنا دائماً أناقش **إيحاءاتها**، وليست هذه الإيحاءات نظرية علمية! ثم إني أكتفي في مناقشتها دائماً بإيراد الداروينية الحديثة Neo Darwinism التي تؤمن بالتطور كدارون، ولكنها مع ذلك لا تؤمن بحيوانية الإنسان ولا ماديته الكاملة، إنما تؤمن **بتفرد الإنسان**، تفرده بيولوجيا وسيكلوجيا، وتفرده كذلك في طريقة تطوره، **فهو يتطور على قاعدته الإنسانية الخاصة**، لا على قاعدة الحيوان.

وسنورد هذه المناقشة في مكان آخر، حين نحتاج إلى مناقشة الأراء... وإنما نحن هنا نثبت وقائع التاريخ.

*　　*　　*

كانت نظرية دارون ذات إيحاء قوي بحيوانية الإنسان لا شك فيه. يقول جوليان هكسلي في كتابه " الإنسان في العالم الحديث Man in the Modern World " – وهو من علماء الداروينية الحديثة –: " وبعد نظرية دارون لم يعد الإنسان يستطيع تجنب اعتبار نفسه حيواناً " [4].

وهذا الإيحاء هو الذي مده العلماء الثلاثة ووسعوه على أوسع نطاق...

[4] ترجمة حسن خطاب ومراجعة عبد الحليم منتصر.

وهنا يخطر – من أجل الحقيقة التاريخية – سؤال: هل كان في الإمكان حبس نظرية دارون في المعمل الذي نشأت فيه، وحجزها عن التأثير في المجتمع الغربي والفكر البشري كله؟

ربما كان هذا مستحيلا في نظرية من هذا النوع، وفي ظروف كالتي ولدت فيها تلك النظرية الخطيرة..

ومع ذلك فلم يكن حتما أن تتجه هذا الاتجاه في التأثير، لو تلقفتها أيدٍ أخرى، مخلصة للحقيقة، مؤمنة بالله، أو في القليل مقدرة " للإنسان " والخير الإنساني.

إن الفكر الغربي الذي كان يعيش في ظل فكرة الثبات المطلق، قد فوجئ مفاجأة عنيفة بفكرة التطور، فأفقدته الهزة صوابه، وصار عرضه للانحراف.. ولكن لم يكن حتما أن ينحرف.. كان يمكن أن يرتد إلى الصواب حين يجد الهداة الذين يردونه إلى الصواب.

ولقد عرف المسلمون التطور معرفة وثيقة، وصاحبوه مصاحبة عميقة في تاريخهم الحيّ كله، فلم ينحرفوا به عن سواء السبيل.

عرفوه في فقههم، حين قال عمر بن عبد العزيز: " يجدّ للناس من الأقضية (أي الأحكام) بقدر ما يجدّ لهم من القضايا ". وحين أخذ الفقهاء هذا الاتجاه فنمّوا الفقه بالاجتهاد حتى شملوا به كل ما جدّ في حياة الناس من أحداث ووقائع واتجاهات.

وعرفوه في علمهم: يقول " دريبر " الأمريكي في كتابه "النزاع بين العلم والدين": " وإننا لندهش حين نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر. **ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية الذي يعتبر مذهباً حديثاً، كان يدرس في مدارسهم. وقد كانوا ذهبوا منه إلى مدى أبعد مما وصلنا إليه،** وذلك بتطبيقه على الجامدات والمعادن أيضاً " [5].

[5] عن كتاب " الإسلام دين علم خالد " للأستاذ محمد فريد وجدي ص 233 من الطبعة الثانية. وينبغي الاحتراس هنا من مثل هذا القول وإن كان يقال في معرض إنصاف الإسلام والفكر الإسلامي. فالذي اهتدى إليه المسلمون في تفكيرهم شيء آخر غير مذهب النشوء والارتقاء كما قرره دارون وولاس. لقد لاحظوا التدرج في مراتب المخلوقات من الجوامد إلى الإنسان. ولكنهم لم يقولوا – كما قال دارون – إن الإنسان من أصل حيواني، و لم يبخسوه قدره ولا نفوا عنه مزاياه التي تفرد بها، وردوا

وظلوا مع ذلك مؤمنين بإنسانية الإنسان، ومؤمنين بالأخلاق. ذلك أنهم كانوا يؤمنون بالله.

أما اليهود الثلاثة فلم يأخذوا على عاتقهم رد أوربا إلى صوابها بعد هزة التطور، وإنما أخذوا على عاتقهم أن ينفخوا في انحرافاتها بقوة وعنف، وإصرار وتمكن، حتى تزيد الهوة اتساعا وتشتد سرعة الانزلاق.

*　　*　　*

كانت نظرية دارون قد أعطت إيحاءين متصاحبين: الإيحاء بالتطور الدائم الذي يلغي فكرة الثبات، والإيحاء بحيوانية الإنسان وماديته، بإرجاعه إلى الأصل الحيواني من ناحية، وحصر القوى التي تؤثر فيه من ناحية أخرى بالقوى المادية الممثلة في " البيئة " أو على الأكثر في " الطبيعة "، وإغفال الجانب الروحي إغفالاً تاماً، وإغفال تدخل الله في عملية الخلق أو عملية التطور سواء [6].

ومن هذين الإيحاءين – أحدهما أو كليهما، ومتصلين أو منفصلين – أخذ العلماء الثلاثة: ماركس وفرويد ودركايم.

فأما ماركس فقد كان ميدان بحثه علم الاقتصاد، ولكنه لم يقصر بحثه على دراسات أكاديمية في علم الاقتصاد، وإنما وضع مذهباً كاملا، يتناول تصوراً كاملا للحياة من زاوية معينة، يتمثل فيها الإيحاءان الداروينيان متصلين متصاحبين.

فهو قد وطد أركان التفسير **المادي** للتاريخ، وهو تفسير يجعل للقوى المادية السلطان الأكبر على نشاط الإنسان كله، كما يجعل هذا النشاط مادياً بصفة أساسية، ومنبعثا عن الكيان الحيواني للإنسان.

القوى المادية – والاقتصادية – هي العنصر الفعال في تاريخ البشرية:

تميزه – ابتداء – إلى إرادة الله الصريحة من خلقه هكذا متميزا متفردا ليصبح خليفة الله في الأرض. ومن ثم عرفوا فكرة التطور ولكنها لم تتحول في تفكيرهم إلى لوثة مدمرة كما حدث في الفكر الغربي.

[6] قال دارون: " إن تفسير النشوء والارتقاء بتدخل الله، هو بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت ".

" في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محدودة لا غنى لهم عنها، وهي مستقلة عن إرادتهم.. **فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة**، ليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم، بل إن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم [كارل ماركس].

" تبدأ النظرية المادية من المبدأ الآتي: وهو أن الإنتاج وما يصاحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذي يقوم عليه كل نظام اجتماعي. فحسب هذه النظرية نجد أن **الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية لا يجوز البحث عنها في عقول الناس، أو في سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين، وإنما في التغيرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل** " [فردريك إنجلز].

كلام صريح لا يداري هدفه الصريح!

فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية، وأسلوب الإنتاج والتبادل - وليس الحق والعدل الأزليان - هو الذي يحدد صورة العمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة، وإليه ترجع الأسباب النهائية لكافة التغيرات أو التحولات الأساسية..

وتاريخ البشرية كله هو هذا التاريخ المادي. اختراع آلة جديدة أو تغير أساليب الإنتاج هو الذي يصنع التاريخ. و " الأطوار " التي مرت فيها البشرية من أول الشيوعية الأولى، إلى الرق، إلى الإقطاع، إلى الرأسمالية، إلى الشيوعية الثانية [والأخيرة!] ترجع كلها إلى اختراع الآلات وتغير أساليب الإنتاج.

والعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية ليست قيما قائمة بذاتها، أصيلة في الكيان البشري.

إنما هي انعكاس لأسلوب الإنتاج في الحياة المادية.. أي نتيجة للكيان المادي.. في الحياة والإنسان.

والحق والعدل الأزليان ليسا قيمة حقيقية من قيم الإنسانية..

إنما القيمة الحقيقية هي التغيرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل..

وحين نرسم دستورا للحياة البشرية، فهو محصور في نطاق " المطالب الرئيسية للإنسان " المأكل والمسكن والإشباع الجنسي [المنيفستو أو الإعلان الشيوعي].

أما الدين والأخلاق والتقاليد فهي السخرية العظمى في نظر ماركس..

الرسالات السماوية بادئ ذي بدء وهم من أكبر أوهام البشرية.. " فحقيقة العالم تنحصر في ماديته " [7]! وفي ظل التفسير المادي للتاريخ لا يوجد الله. ولا الوحي. ولا الرسالات.

والدين ثانيا – أفيون الشعوب – شيء ابتدعه الإقطاعيون لتخدير العبيد والطبقة الكادحة عن المطالبة بحقوقهم المسلوبة، وإغرائهم بالصبر على سوء أحوالهم والرضى بها طمعا في الجنة في الآخرة، مما ييسر لهؤلاء الإقطاعيين أن يستمتعوا بالثروات المغتصبة وهم آمنون.

والقيم ثالثا – ومن بينها القيم الخلقية – إنما هي مجرد انعكاس للوضع الاقتصادي، ومن ثم ليس لها وجود أصيل في الحياة البشرية، فضلا عن كونها غير ثابتة. فهي متطورة بحسب الطور الاقتصادي الذي تمر به البشرية. ولما كانت الأطوار الاقتصادية للبشرية حتمية ومتعاقبة، فالقيم الخلقية تأخذ أوضاعا محددة ومتطورة.. وهي حتمية التطور مع تطور أوضاع البشرية.

وإلى هنا يتضح المقصود من النظرية في أوضح صورة وأصرحها..

أولا.. لا دين.

فالدين أسطورة ابتدعها أصحاب المصالح هنا في الأرض ولا علاقة له بالسماء، ولا رصيد له من الحقيقة.

وثانيا.. لا قيم ولا أخلاق.

فالقيم ليس لها وجود ذاتي، إنما هي انعكاس للأوضاع الاقتصادية. وليس لها ثبات لأن مصدرها – وهو الأوضاع الاقتصادية – دائم التغير. ثم هي حتمية التطور فلا يمكن الإمساك بها على وضع معين مهما حاول المحاولون من المفكرين أو رجال الدين.

.. ولم يقل دارون كل ذلك ولا شيئاً من ذلك!

---

[7] كارل ماركس في كتاب " Anti - Dihring "

ولا كان من همه أن يقول!

ولكن العالم اليهودي الذي أخذ إيحاء نظريته المسموم، قد مده مَدَّة واسعة فشملت الحياة كلها، تحت ستار البحث " العلمي " في علم الاقتصاد.

وانتشر الإيحاء المسموم – على يد ماركس – فدخل كل الحياة الغربية على الاتساع.

حقيقة إن روسيا وحدها – في مبدأ الأمر – هي التي اعتنقت المذهب الشيوعي كاملا وأعطته قوة التطبق. وروسيا وحدها – في مبدأ الأمر – هي التي قاومت الدين مقاومة " رسمية " على نطاق واسع، واضطهدته كل أنواع الاضطهاد، من أول القتل والاعتقال والمصادرة والنفي، إلى تدريس الإلحاد رسميا في المدارس والجامعات..

ولكن الغرب كله – الذي لم يصبح شيوعيا من حيث المذهب – قد أخذ مع ذلك بالتفسير المادي للتاريخ.

أخذ به في إعطاء الجانب الاقتصادي الاهتمام الأكبر، والميل إلى تفسير الحياة الإنسانية كلها من خلال التفسير الاقتصادي والمادي، وإغفال " القيم " وأثرها في الحياة، وفي توجيه سلوك الناس..

وأخذ به في اعتبار القيم الأخلاقية " متطورة " لا ثبات لها، ولا سبيل إلى ثباها.. ومتطورة على أساس التطور الاقتصادي بصفة خاصة.

وأخذ به في اعتبار الدين آخر ما يمكن أن يؤثر في الحياة!

وصارت الحياة الغربية القائمة في ظل النظام الرأسمالي – المضاد للنظام الشيوعي – لا تفترق كثيراً في الأساس الفكري والحضاري و " الإنساني " عن مثيلتها في العالم الشيوعي.

صحيح أن الدين في الغرب لم يصادر..

وصحيح أن الأفراد هناك " متدينون " بمعنى الذهاب للكنيسة يوم الأحد، ورسم علامة الصليب في الصلاة، والإيمان بان هناك رباً خلق الحياة والإنسان، ويقدر على كثير من الأمور (!).

ولكن هذا " الدين " لا يكيف شيئاً من حياة الناس الواقعية ولا مشاعرهم.. فالتنظيم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والفكري قائم على أساس أن الحياة المادية هي الأصل. وهي الحقيقة بالعناية. وهي المسعى الذي يستغرق نشاط الإنسان. وهي " حقيقة " الحياة.

ثم إنه لا وجود – في واقع المجتمع – للأخلاق المستمدة من مفهوم الدين. فالنشاط الجنسي " الحر " للأولاد والبنات والرجال والنساء لا صلة له البتة بمفهوم الدين. والصراع المتكالب على الحياة لا صلة له البتة بمفهوم الدين. والمتاع الحسي الزائد عن الحد لا صلة له البتة بالمفهوم المسيحي على وجه الخصوص.

والإيمان الساري عند الجماهير كلها في الغرب – أوربا وأمريكا سواء – هو أن مقاييس الأخلاق قد تغيرت. وأن " تطورها " كان حتميا في ظل المجتمع الصناعي. وأنه لا مجال مطلقا للمقاييس القديمة للأخلاق [التي كانت مستمدة من الدين] لأن المرأة قد تحررت [اقتصاديا] ولأن النظرة [الزراعية] للعفة لم يعد لها مجال..

أي.. أنه التفسير المادي للتاريخ هو الذي يحكم الحياة في الغرب. ويحكمها في ذات النقطة أو النقطتين اللتين أردا ماركس تحطيمهما – تحت ستار البحث العلمي في علم الاقتصاد – وهما الدين والأخلاق.

ومعناه مرة أخرى أن الإيحاء المسموم للداروينية قد وُصِّل على يد العالم اليهودي الأكبر إلى مناطق من الحياة البشرية لم يكن حتما أن يصل إليها، فحُطِّم به في واقع الحياة الدين والأخلاق والتقاليد **في صورة علمية منظمة** لا تقوم على مذهب شخصي [في ظاهر الأمر]، وإنما تقوم على أساس البحث " العلمي " والدراسة والتحقيق. ومن ثم يجد فيها المنحرفون الضالون سنداً يسند ضلالهم وانحرافهم، ولا يحوجهم إلى الاعتذار عن إهمال الدين وتحطيم الأخلاق والتقاليد، بل يجعلهم يسعون إليه سعيا ليكونوا مواكبين لموكب العلم، مستمسكين بوحي المعرفة الصحيح!

* * *

أما فرويد فلم يأخذ من دارون جانب التطور، وإنما أخذ عنه حيوانية الإنسان.

إنه – ككل باحث نفسي – يرسم صورة ثابتة لكيان الإنسان، وإن كان في كتابه Totem & Taboo [وربما كان في هذا الكتاب وحده] يأخذ جانب التطور أيضاً، وهو

يتحدث – إلى جانب سيكلوجية الفرد – عن سيكلوجية الجماعات، وعن تطور الدين وتطور المحرمات.. **ولكنه يرسم هذه الصورة من جانب الحيوان لا من جانب " الإنسان"**.

ولئن كان ماركس قد تحدث عن الدين والأخلاق، وسخافتهما وبعدهما عن أن يكونا قيما أصيلة، في ظل البحث " العلمي " في الاقتصاد، فإن فرويد قد تحدث عن الموضوع ذاته والاتجاه ذاته في ظل البحث " العلمي " في علم النفس.

إن ميدان بحثه هو النفس الإنسانية.. هو المشاعر والانفعالات.. هو العالم " الداخلي " في مواجهة العالم " الخارجي " الذي تحدث عنه ماركس. النفس في نظره هي الميدان الأصيل للحياة؛ عن تركيبها الذاتي تنبثق الأفعال والأفكار والمشاعر، وتتحول إلى وقائع عملية في واقع الحياة.. أي أنه – من جهة البحث – يأخذ بالضبط الجانب المقابل لماركس، ومع ذلك – ومن عجب – يصل معه إلى النتيجة ذاتها في موضوع الدين والأخلاق، ويتخذ في بحثه نفس التفسير الحيواني للحياة الإنسانية وللإنسان!

مصادفة..!!

ولكن الحق أن الصورة التي يرسمها فرويد للنفس الإنسانية – وإن التقت مع ماركس في النهاية عند نقطة تسخيف الدين والأخلاق، واعتبارهما قيما غير أصيلة في الحياة البشرية، وإنما انعكاسا لشيء آخر، مادي في أصله وحيواني – فإن فرويد كان أفحش وأخطر في تلويثه لتلك النفس، والانحطاط بها إلى الحضيض.

إن الحياة النفسية للإنسانية ليست حيوانية فحسب، ولكنها – كلها – تنبع من جانب واحد من جوانب الحيوان، هو الجنس المسيطر على كل أفعال الإنسان.

إن حياة الإنسان بادئ ذي بدء حياة حيوانية بحتة. " فغرائزه " هي التي تحكمه. هي التي تسيطر على كل نشاطه. والجانب المسمى " الروح " لا وجود له على الإطلاق [وإلى هنا يتلقي مع ماركس التقاء كاملا في تصور النفس الإنسانية]. أما الجانب الذي اسمه " العقل " فهو موجود بكل تأكيد. وهو " طبقة " من طبقات النفس. هو الوعي. وهو الضابط لتصرفات الإنسان. وهو الذي يواجه الحياة الواقعية، ويقرر موقف الإنسان إزاءها. ولكن أي نتيجة يا ترى لوجود العقل – أو الذات الواعية Ego – في كيان الإنسان؟ النتيجة: " أن موقع الذات بين الطاقة الشهوانية [التي هي الحقيقة الباطنية للنفس في نظر فرويد] وبين الحقيقة الخارجية، كثيراً ما يغريها بأن تكون منافقة مخادعة هازة

للفرص، كالسياسي الذي يرى الحقائق، ولكنه يجب أن يحافظ على مكانته بين الجماهير! [8] ومن ثم " فالقيم " في كلمة واحدة هي خرافة و " ضحك على الذقون "! عملة زائفة يتبادلها الناس وهم في حقيقتهم عالمون بأنها خداع! [وهنا يلتقي – من بعيد – بفكرة ماركس عن القيم، وإن كانت الأسانيد مختلفة في الحالين].

ولكن فرويد بعد ذلك " يتخصص " فيأتي بالأعاجيب:

إن حقيقة الإنسان الباطنية العميقة [id] ليست هي الطاقة الشهوانية فحسب. وإنما هي على وجه التحديد الطاقة الجنسية. الجنسية بالذات دون أي طاقة أخرى من طاقات الإنسان [أو الحيوان].

وليس هنا مجال مناقشة فرويد، فقد ناقشته كثيراً وطويلاً في كل الكتب السابقة. [9] ولكنا نلحظ فقط شيئاً بارزا في نظريته النفسية.. فقد كان الجنس – في أوربا المسيحية المتزمتة [رغم بدء الانحلال الخلقي فيها]. طاقة مستقذرة، ينفر الناس من الحديث عنها وكشفها للنور , فيجيء فرويد، فيصر إصراراً محموما على أن يفسر النفس كلها، بجميع ألوان نشاطها، من خلال هذه الطاقة المستقذرة بالذات! ويصر – أكثر من ذلك [وهذا هو المهم] – على أن يفسر الدين والأخلاق بصفة خاصة بأنها انبثاق جنسي.. وجنسي على وجه التحديد!!

مصادفة..!!

الحياة كلها جنس، ومنبثقة من خلال الجنس..

والجنس يبدأ مبكراً جداً.. لا في مرحلة البلوغ أو المراهقة كما يحسب الجهلاء من الناس.. وإنما.. من لحظة الميلاد. بل يولد الإنسان جنساً خالصا مركزا في إهاب طفل حيواني صغير!!

كل أعمال اطفل تعبير عن طاقة الجنس.

---

[8] كتاب " The Ego and the Id " ص 83 من الطبعة الثالثة سنة 1942.
[9] بصفة خاصة فصل " فرويد " من كتاب " الإنسان بين المادية والإسلام ".

الرضاعة جنس. ومص الإبهام جنس. وتحريك العضلات جنس. والتبول جنس. والتبرز جنس. والالتصاق بالأم جنس. وهذا الأخير بصفة خاصة هو الذي يشكل الحياة النفسية للبشرية كلها أفراداً وجماعات!

فالطفل يعشق أمه بدافع الجنس. ثم يجد الأب حائلا بينها وبينه فيكبت هذا العشق. فتنشأ في نفس عقدة أوديب. [والطفلة تعشق أباها بدافع الجنس كذلك ثم تكبت العشق فتنشأ في نفسه عقدة إليكترا]. ومن هذه العقدة اللعينة ينشأ الضمير والدين والأخلاق والتقاليد، وكل " القيم العليا " في حياة البشرية!!

والأمر كله مستمد من تلك الحادثة التي " رآها! " فرويد في منشأ تاريخ البشرية!

ذلك أن الأبناء – في مطلع البشرية – اتجهوا نحو أمهم بدافع الجنس، ثم وجدوا أباهم عائقا في الطريق فقتلوه. ثم أحسوا بالندم على قتل أبيهم فأقسموا ليقدسن ذكراه. فعبدوه. ومن ذلك نشأت عبادة الأب. ثم تحولت إلى عبادة الطوطم لأنه في النفس البشرية هكذا يرتبط الأب برمز الحيوان! [لماذا؟!]. وفي الوقت ذاته وجد الأبناء أنهم سيتقاتلون بينهم للحصول على الأم. وهذا أمر لا يجوز! [لماذا؟!]. فقرروا تحريمها على أنفسهم، فنشأ بذلك أول تحريم [جنسي] وانصب على الأم. كما قرروا التعاون فيما بينهم بدل الخصام والعراك [لماذا؟!] فنشأت " القيم ".

وهذه القصة التي " رآها! " فرويد تحدث في البشرية الأولى، ليست حادثة تاريخية مفردة، فقد تركت طابعها في الحياة البشرية كلها منذ ذلك الحين. فكل طفل يعشق أمه بدافع الجنس: وكل طفل يكبت ذلك العشق. ثم ينمو الدين والأخلاق والتقاليد.. والقيم العليا والحضارة، من ذلك الكبت الجنسي لعشق الأم. ومع ذلك فالكبت لم ينته. وإنما هو يتحول إلى قلق نفسي دائم لا يترك الناس في راحة [" وكل الديانات التي جاءت بعد ذلك هي محاولات لحل المشكلة ذاتها (إحساس الأبناء بالجريمة) وهي تختلف بحسب مستوى الحضارة التي ظهرت فيها، والوسائل التي تطبقها، ولكنها جميعاً تهدف إلى شيء واحد، وهي رد فعل لنفس الحدث العظيم (قتل الأب) الذي نشأت عنه الحضارة، والذي لم يدع للإنسانية منذ حدوثه لحظة واحدة للراحة "! فرويد – كتاب Totem & taboo ص 145].

واضح أن هذا التفسير للإنسان تفسير حيواني بحت..

فالقصة كلها التي " رآها! " فرويد، مستمدة من ملاحظات دارون في عالم الحيوان. فقد لاحظ أنه في عالم البقر تتجه الثيران الفتية للحصول على البقرة الأم، فتجد

أباها عائقا في الطريق، فتتجه كلها نحوه لتقتله. فإذا فرغت من ذلك عادت فاصطرعت فيما بينها حتى يتغلب أحدها - وهو أقواها - فيفوز وحده بالأم ويصبح هو السيد الجديد.

وواضح كذلك مدى تلويث فكرة الدين والأخلاق والتقاليد، وتقذيرها في نفوس الناس، بغمسها في مستنقع الجنس المستقذر في أوربا المسيحية، وإخراجها منه يتقاطر منها نقيع الجنس المكبوت!

وحقيقة إنه سعى إلى إزالة " القذارة " عن الجنس! ولكن هذه مسألة أخرى!

جاء في كتاب بروتوكولات حكماء صهيون: " يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق في كل مكان فتسهل سيطرتنا.. إن فرويد منا. وسيظل يعرض العلاقات الجنسية في ضوء الشمس لكي لا يبقى في نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية، وعندئذ تنهار أخلاقه "

إن هناك هدفا مزدوجا يتم في نفس الوقت: فالجنس يُنظف ليستباح. لتنطلق الغرائز " المكبوتة ". لينطلق الشباب كالبهائم، دون أن يحسوا في ضميرهم لذعا ولا في نفوسهم ندامة ولكن في الوقت ذاته يُقذر الدين والأخلاق والتقاليد بتصويرها نابعة في الأصل من الجنس - المستقذر حينئذ في النفوس!

أي أنه تتم عملية إبدال دقيقة خبيثة بشعة.. فينزل الدين والأخلاق إلى مكان الجنس المستقذر، ويرتفع الجنس إلى مكان الدين والأخلاق في النظافة والتقديس!

وليس هنا - كما أسلفت - مجال المناقشة مع فرويد، فقد ناقشته في الكتب السابقة، وبينت فساد هذه الأساطير والأضاليل التي يقيم عليها تفسيره للحياة البشرية، بلا سند علمي ولا منطق سليم.

إنما نثبت هنا فقط مجموعة من الحقائق حول هذا التفسير الجنسي للسلوك البشري:

أولا: إنه استمد من إيحاءات نظرية دارون ذلك التفسير الحيواني للإنسان. ولم يقل دارون بطبيعة الحال شيئاً من ذلك كله، ولا كان من همه أن يقول. ولكن العالم اليهودي الذي أخذ إيحاء نظريته المسموم، فقد مده مَدَّة واسعة فشملت الحياة كلها، تحت ستار البحث " العلمي " في علم النفس.

ثانياً: أنه وجّه الإيحاء المسموم كله الذي استمده من دارون إلى نقطتين مركزتين، في أثناء هذه الجولة الواسعة في باطن النفس، وفي التاريخ، هما الدين والأخلاق. فسعى إلى تلويثهما بصورة لم يسبق لها مثيل في التاريخ كله. ووضعهما في صورة منفرة مقززة ينفر منها كل إنسان! ولم يكتف في ذلك بالتلميح، بل كان صريحاً جداً وهو يقول: إن التسامي نوع من الشذوذ! [Three Contributions to the Sexual Theory ص 82] وإن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى في درجتها الطبيعية العادية! [The Ego and the Id ص 80] وإن أساطير المسيحية تصور في حقيقتها رغبة الابن (المسيح) في قتل والده (الرب الإله) وإن كان قد كبت هذه الرغبة فقتل نفسه بدلا من أبيه، ولكنه أصبح إلها مكان أبيه! [Totem & Taboo ص 154] وإن الحضارة تتعارض مع النمو الحر للطاقة الجنسية! [Three Contributions ص 85] وإن الدين والأخلاق والحضارة تنشأ من الكبت الجنسي، والكبت الجنسي خطر على الكيان النفسي والعصبي، لأنه يصيب النفس بالعقد والاضطرابات [كل كتب فرويد بلا استثناء!]

* * *

أما دركايم فله قصة ثالثة...

إنه – مرة أخرى – يقف من فرويد موقف التقابل الكامل.

إنه لا يعترف أن الكيان النفسي للفرد هو أساس الحياة الاجتماعية. بل العكس في نظره أقرب إلى الصواب. إن الحياة الاجتماعية هي التي تشكل مشاعر الفرد. وعليه فلا يجوز أن نفسر الحياة من نفسية الفرد كما يصنع علم النفس كله، وإنما ينبغي أن نفرق بين الظاهرة النفسية والظاهرة الاجتماعية تفريقاً كاملا، حتى وإن قام بينهما – أحيانا – نوع من الاتصال:

" ولكن الحالات النفسية التي تمر بشعور الجماعة تختلف في طبيعتها عن الحالات التي تمر بشعور الفرد، **وهي تصورات من جنس آخر**، وتختلف عقلية الجماعات عن عقلية الأفراد، ولها قوانينها الخاصة بها " [10]

[10] قواعد المنهج في علم الاجتماع تأليف إميل دركايم، ترجمة الدكتور محمود قاسم ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوي – مقدمة الطبعة الثانية، ص 15.

".. إن ضروب السلوك والتفكير الاجتماعيين أشياء حقيقية **توجد خارج ضمائر الأفراد**، الذي يجبرون على الخضوع لها في كل لحظة من لحظات حياتهم " [11]

" ولكن لما كان هذا العمل المشترك [الذي تنشأ عنه الظواهر الاجتماعية] **يتم خارج شعور كل فرد منا**، وذلك لأنه نتيجة لعدد كبير من الضمائر الفردية، فإنه يؤدي بالضرورة إلى تثبيت وتقرير بعض الضروب الخاصة من السلوك والتفكير، وهي تلك الضروب **التي توجد خارجة عنا، والتي لا تخضع لإرادة أي فرد منا** " [12]

" ولكن ليس من الممكن تطبيق هذه الطريقة [التي تفسر الظواهر الاجتماعية من داخل نفوس الأفراد] على الظواهر الاجتماعية اللهم إلا إذا أردنا تشويه طبيعتها! ويكفي في البرهنة على ذلك أن نعود إلى التعريف الذي سبق أن حددنا به الظواهر الاجتماعية. فلما كانت الخاصة الجوهرية التي تمتاز بها هذه الظواهر تنحصر في القيام بضغط خارجي على ضمائر الأفراد، **كان ذلك دليلا على أنها ليست وليدة هذه الضمائر** " [13]

" وبهذا المعنى ولهذه الأسباب يمكننا، بل يجب علينا أن نتحدث عن شعور اجتماعي يختلف عن شعور الأفراد. وإذا أردنا تبرير هذه التفرقة بين الشعور الاجتماعي والشعور الفردي، فلسنا في حاجة إلى تجسيد الشعور الاجتماعي. فإن لهذا الشعور وجوداً من جنس خاص. ومن الواجب أن نعبر عنه بمصطلح خاص، لمجرد السبب الآتي، وهو: أن الحالات التي تدخل في تركيبه **تختلف عن الحالات النفسية التي يتركب منها شعور الفرد اختلافاً نوعياً**... ومن جهة أخرى فما كان يرمي تعريفنا للظاهرة الاجتماعية إلا إلى تحديد الفرق بين كل من الشعور الاجتماعي والشعور الفردي " [14]

هكذا لا يعترف دركايم بأن الحياة البشرية – ذات الصفة الاجتماعية – يمكن أن تفسر عن طريق نفسية الفرد وطبيعته وكيانه الفردي. إنما يفسرها وجود " العقل الجمعي " خارج نطاق الأفراد!

[11] ص 22 من المصدر السابق.
[12] ص 25.
[13] ص 166.
[14] ص 168 - 169.

ومرة ثانية يقف دركايم من فرويد موقف التقابل الكامل. ففي كتاب " قواعد المنهج في علم الاجتماع " يتحدث عن " تطور " الجماعات شأن كل باحث في علم الاجتماع – ولكنه يأبى أن ينسب هذا التطور إلى عنصر من عناصر النفس المفردة:

" ولن نستطيع معرفة المصدر الذي تنبع منه هذه التيارات الاجتماعية إلا إذا صعدنا في مجراها حتى منابعها الأولى، وحينئذ يجب علينا أن نلاحظ الظواهر الاجتماعية في ذاتها.. ويجب أن ندرس هذه الظواهر من الخارج على أنها أشياء خارجية... ولئن خيل إلينا أن وجود هذه الظواهر خارج شعور الأفراد ليس إلا وجودا بحسب الظاهر فسوف يتبدد هذا الشك كلما تقدم علم الاجتماع. **وسيرى المرء كيف تقتحم الظاهرة الاجتماعية الخارجية الشعور الداخلي للأفراد** "[15]

ومع ذلك..!

أهي مصادفة تلك الطريقة التي يتحدث بها عن الدين والأخلاق؟!

" فمن هذا القبيل أن الناس يفسرون عادة نشأة النظام الأسري بوجود العواطف التي يكنها الآباء للأبناء، ويشعر بها الأبناء تجاه الآباء؛ كما يفسرون نشأة الزواج بالمزايا التي يحققها لكل من الزوجين وفروعهما، والألم بما يحدث من غضب الفرد إذا أصيبت مصالحه بضرر جسيم. وترجع الحياة الاقتصادية في نهاية الأمر – كما يفهمها ويفسرها الاقتصاديون، وبخاصة أصحاب المذهب المحافظ – إلى هذا العامل الفردي البحت، وهو الرغبة في تحصيل الثروة. وليس الأمر على خلاف ذلك فيما يتعلق بالظواهر الخلقية. فإن الأخلاقيين يتخذون واجبات المرء نحو نفسه أساساً للأخلاق. وكذا الأمر فيما يتعلق بالدين، فإن الناس يرون أنه وليد الخواطر التي تثيرها القوى الطبيعية الكبرى أو بعض الشخصيات الفذة لدى الإنسان.. الخ. ولكن ليس من الممكن تطبيق هذه الطريقة على الظواهر الاجتماعية اللهم إلا إذا أردنا تشويه طبيعتها! "

" ومن هذا القبيل أن بعض هؤلاء العلماء يقول بوجود عاطفة دينية فطرية لدى الإنسان، وبأن هذا الأخير مزود بحد أدنى من الغيرة الجنسية والبر بالوالدين ومحبة الأبناء، وغير ذلك من العواطف، وقد أراد بعضهم تفسير نشأة كل من الدين والزواج والأسرة على هذا النحو. ولكن التاريخ يوقفنا على **أن هذه النزعات ليست فطرية في الإنسان** "

---

[15] ص 66.

" وحينئذ فإنه يمكن القول بناء على الرأي السالف بأنه لا وجود لتفاصيل القواعد القانونية والخلقية في ذاتها، إذا صح هذا التعبير... ومن ثم فليس من الممكن، تبعاً لهذا الرأي، أن تصبح مجموعة **القواعد الخلقية التي لا وجود لها في ذاتها** موضوعا لعلم الأخلاق... " (16)

واضح؟!

إن الدين ليس شيئاً فطريا. وكذلك الزواج والأسرة. والقواعد الخلقية لا وجود لها في ذاتها!

ولن نناقش هنا دركايم! لن نناقش أسطورة " العقل الجمعي " القائم خارج نطاق الأفراد، والمخالف لكيان الأفراد، والذي يقهرهم من الخارج على غير رغبة منهم ولا استعداد فطري!

ولكننا نثبت فقط ما حول هذه الأسطورة من الحقائق:

لقد أخذ دركايم كثيرا عن دارون:

أخذ عنه بادئ ذي بدء فكرة التطور الدائم الذي يلغي فكرة الثبات.

وأخذ عنه فكرة " القهـــر الخارجي " الذي يقهر الفرد على غير رغبة ذاتية منه، فيطوّره.

وأخذ عنه التفسير الحيواني للإنسان، فهو لا يفتأ يستشهد في كل حالة بما يحدث في عالم الحيوان:

" أضف إلى ذلك أنه لم يقم قط برهان على أن الميل إلى الاجتماع كان غريزة وراثية وجدت لدى الجنس البشري منذ نشأته. وإنه لمن الطبيعي جداً أن ننظر إلى هذا الميل على أنه نتيجة للحياة الاجتماعية التي تشربت بها نفوسنا على مر العصور والأحقاب. وذلك لأننا نلاحظ، في الواقع، أن الحيوانات تعيش جماعات أو أفرادا تبعاً لطبيعة مساكنها التي توجب عليها الحياة في جماعة أو تصرفها عن هذه الحياة " (17)

---

(16) ص 59 - 60.
(17) ص 173.

" ولكن أليس معنى ذلك أن " كونت " يفسر الماء بالماء، وأنه يشرح التقدم بوجود ميل فطري يدفع الإنسان إلى التقدم الذي لا يعدو أن يكون سوى فكرة ميتافيزيقية ليس ثمة ما يدل على وجودها بحسب الواقع؟ وذلك لأن الفصائل الحيوانية – بما في ذلك الفصائل الراقية منها كل الرقي – لا تشعر قط بهذه الحاجة التي تدفعها إلى التقدم " [18].. الخ.

و لم يقل دارون بطبيعة الحال شيئاً مما قاله دركايم، ولا كان من شأنه أن يقول. ولكن العالم اليهودي أخذ الإيحاء الحيواني لنظريته، ومده مَدَّة واسعة فشملت الحياة كلها، تحت ستار من البحث " العلمي " في علم الاجتماع.

ثم إنه – في جولته الواسعة في علم الاجتماع – قد عني عناية خاصة بأن يقول إن الدين ليس فطرة والزواج ليس فطرة، والأخلاق ليست قيمة ذاتية، ولا هي ثابتة على وضع معين، فإنما تأخذ صورتها من المجتمع الذي توجد فيه، فإن " المجتمع " هو الأصل في ظل الظواهر الاجتماعية، وليس " الإنسان "!

* * *

ومن حصيلة هذا كله حدثت حركات ضخمة في المجتمع الغربي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

لقد التقت " توجيهات " العلماء الثلاثة – وغيرهم بطبيعة الحال، ولكنهم هم في المقدمة – التقت عند نقط رئيسية، متصلة ومتصاحبة:

الحملة على الدين والأخلاق والتقاليد، ونفي القداسة عنها، وتشويه سمعتها أو التشكيك في قيمتها.

والقيام بهذه الحملة باسم " العلم " والبحث العلمي.

والربط بين هذا التحلل الديني والانحلال الخلقي وبين " التطور ".

---

[18] ص 176.

والإيحاء بأن هذا التحلل والانحلال أمر " حتمي " لأن التطور حتمي لا قبل لأحد بوقفه عن طريقه المحتوم.

تقول بروتوكولات حكماء صهيون: " لقد رتبنا نجاح داروِن وماركس ونيتشه[19] بالترويج لآرائهم. **وإن الأثر الهدام للأخلاق الذي تنشئه علومهم في الفكر غير اليهودي واضح لنا بكل تاكيد** ".

*　　*　　*

ولقد حدث بالفعل ذلك الأثر الهدام للأخلاق!

وسرت في الجماهير لوثتان معاً في ذات الوقت: لوثة التطور.. ولوثة العداء للدين والأخلاق.

وربما برز اسم فرويد في هذا الأثر المدمر أكثر من زميليه الآخرين، لأن آراءه أخذت " شعبية " واسعة النطاق، بينما بقي الآخران - وخاصة دركايم - فوق مستوى الجماهير. ولكن الحصيلة النهائية للوثة التطور ولوثة العداء للدين والأخلاق ينبغي أن ترد لهم جميعاً، وإن تفاوتت النسب و " حقوق التأليف " بين أعضاء الثالوث!

لقد صارت " الموضة " هي التطور. وما لا يتطور بذاته ينبغي أن يطور بالقوة! إنه لا ينبغي أن يظل شيء على الإطلاق ثابتاً في كل الأرض. لا الدين. ولا فكرة الله. ولا الأخلاق. ولا التقاليد. ولا القيم. ولا الروابط الاجتماعية. لا شيء.. لا شيء على الإطلاق.

ينبغي أن نتطور. وأن نتحرر من السكون الميت والثبات المعيب.

ينبغي أن نحطم قيود الأخلاق. فهي قيد يعوق التطور. وقد تقدينا بها في الماضي في المجتمع الزراعي فينبغي أن نطرحها اليوم في المجتمع الصناعي المتطور [ماركس] أو تقيدنا بها نتيجة الجهل الخطير بحقيقة النفس الباطنية وبأن الأخلاق " كبت " ضار بكيان

---

[19] فيلسوف ألماني نادى في تشنج هستيري بفكرة الإنسان الأعلى Superman و " موت الإله "! وهو يعفي هذا الإنسان من التقيد بالأخلاق المسيحية لأنها أخلاق الأذلاء! ومن ثم تجد فيه " برتوكولات حكماء صهيون " بغيتها المنشودة.

الإنسان [فرويد] أو تقيدنا بها جهلا منا بأنه لا توجد حقيقة ثابتة للقيم الخلقية، إنما هي تتطور بتطور وسائل الإنتاج [ماركس] أو بتطور حالة المجتمع [دركايم].

وينبغي أن نحطم الدين. فهو قيد آخر يعوق التطور. وقد ورثناه من أسلافنا في عماية وجهالة وجمود وتأخر، وقد كان هذا كله يناسب المجتمع الزراعي المتأخر، ونحن اليوم في المجتمع الصناعي المتطور الذي لا يطيق هذه الخزعبلات [ماركس] أو قد كان هذا يناسب عصر الجهالة السابق، يوم كنا نظن الدين شيئاً له قداسة، متزلا من السماء، قبل أن نعرف أنه كبت جنسي ضار مؤذ منفر [فرويد] أو يوم ظننا – خطأ منا وجهالة – أنه فطرة إنسانية [دركايم].

ينبغي أن ننشئ أنفسنا إنشاء في المجتمع الجديد.. المتطور.. المتحرك.. الوثاب. ينبغي أن ننطلق مع وثباته الظافرة بلا دين. بلا أخلاق. بلا تقاليد. فهذا هو السبيل الوحيد للتقدم الصحيح! [" العلماء " الثلاثة!].

* * *

وتركزت الفتنة كلها في " تحرير المرأة "..

حقاً لقد كان هذا العصر هو عصر تحرير المرأة!

فقد كانت القوى الشريرة كلها التي تعمل في الأرض تعلم أنه لا وسيلة لإفساد الأمم كلها خير من " تحرير " المرأة، أي إخراجها إلى الطريق فتنة للرجل لكي تفسد أخلاقه وتنهار.

ينبغي بأي ثمن أن تخرج المرأة إلى الطريق..

تخرج بحجة الاستقلال الاقتصادي..

تخرج بحجة ممارسة حقها في الحياة..

تخرج بحجة التعليم أو بحجة العمل..

تخرج " للاستمتاع "..

المهم أن تخرج.. ولكن أهم من ذلك أن تخرج في صورة إغراء.

إنها إن خرجت تتعلم أو تعمل او تمارس حقها في الحياة، وهي محتشمة متحفظة، محافظة على أخلاقها، وعلى طبيعتها " المترلية " بمعنى الرغبة في " الاستقرار " في أسرة حين تسنح الظروف.. فلا فائدة إذن من كل " التعب " الذي تعبناه في إفساد البشرية!

ينبغي أن تخرج المرأة في صورة تفتن الرجل وتغريه.. وإلا فما الفائدة؟

ولكن كيف السبيل؟!

السبيل هو الدعوة..!

يكتب الكتاب.. ويكتب الصحفيون. ويكتب القصاصون..

السبيل هو السينما..!

تُمثَّل الأفلام الداعرة العارية الداعية إلى الفساد..

السبيل هو الإذاعة والتليفزيون [على التوالي]

السبيل هو بيوت الأزياء..!

السبيل هو صناعة أدوات الزينة..!

السبيل – بكل سبيل – هو إيجاد صورة من " الحياة الاجتماعية " لا تستغني عن المرأة الفاتنة المغرية – بهجة المجتمع – وإيجاد تصور للحياة لا يستغني عن المرأة الفاتنة المغرية " لتشارك " الرجل في حمل الأعباء؛ وإيجاد " واقع عملي " لا يستغني عن المرأة الفاتنة المغرية كجزء واقعي من الحياة!

ووجد كل كذلك بالفعل..

واستراحت القوى التي تعمل لإفساد البشرية.. وطلبت المزيد!

وجاء المزيد – [قصداً أم عَرَضاً؟] – بالحربين العالميتين!

قتل في الحرب الأولى عشرة ملايين من الشباب، وفي الثانية حوالي أربعين.

وَوُجِدَت – بعددهم – أسر بلا عائل، ونساء بلا رجال..

وخرجت المرأة – راضية أو مكرهة – تعمل.. وتبحث عن الجنس..

وحدث مزيد من " التحرر ".. من انحلال الأخلاق!

وصار الروتين العادي في الحياة الغربية أن تعمل كل فتاة.. وأن يكون لها صديق – أي عشيق – تمارس معه نشاط الجنس، كاملا في أغلب الأحيان. روتين عادي لا يستنكر. لا يفكر أحد في استنكاره على الإطلاق. إلا المجانين! الذين يظنون أنه يوجد دين! أو أخلاق! أو تقاليد!

المجانين الجهلاء الرجعيون المتزمتون المتحجرون المتعفنون.. الذين يعيشون بعقلية القرون الوسطى. الذي يحجبون عن أعينهم النور. الذين يريدون إرجاع الساعة إلى الوراء.. الذي لا يعرفون أنه التطور.. التطور الحتمي الذي لا قبل لأحد بوقفه.. التطور الذي أحدثه القرن العشرون!

التطور..!

هل هو التطور حقا، الذي صنع هذه الصورة الاجتماعية في القرن العشرين..؟

بصرف النظر عن رأينا الشخصي في هذه الصورة: إن كانت تقدما مشرفا أو انحلالا مزريا. إن كانت رفعة للبشرية أو نكسة بشعة إلى عالم الحيوان.

هل التطور هو الذي أحدثها؟

هل هي شيء " جديد " حقا، أنشأه " التقدم " العلمي والحضاري في القرن العشرين؟

إذن فلنسمع.. شهادة التاريخ!

شهادة التاريخ

حين يعيش الإنسان فترة من الحياة فإنه يراها مجسمة مضخمة، لأنه يعيش دقائقها وتفصيلاتها وجميع لحظاتها، لحظة إثر لحظة، فيراها - من ثم - أضخم من أي فترة اخرى من التاريخ!

وهذا أمر " بشري " من جميع جوانبه!

فالعين ترى المنظر القريب كبيراً مفصلا مجسما.. ثم يتضاءل في نظرها - هو ذاته - حين تبعد عنه بضع خطوات أو بضعة أميال..

والإنسان يحس بأموره هو كبيرة مفصلة مجسمة، لأنها أقرب شيء إليه.. ثم يرى مثيلاتها عند شخص آخر - أمامه - فلا يحسها بهذا الكبر والتفصيل والتجسّم، وإن عطف عليها أو شارك فيها بوجدانه.. ولا يخيل إليه أبداً أنها تشابه تجربته الشخصية.

بل الإنسان الواحد يحس لحظته الراهنة كبيرة مفصلة مجسمة، لأنه يعيشها الآن، فهي قريبة من حسه وشعوره وتفكيره، فإذا مرت ودخل في غيرها، تضاءلت في حسه - وهي جزء منه هو ذاته - وصارت - بكل آلامها أو آمالها - أصغر من لحظته الجديدة الراهنة الداخلة في بؤرة الإحساس والتفكير و " المعايشة "..

ومن ثم يرى أهل القرن العشرين أن هذا القرن فريد تفرداً كاملا **في كل شيء**، وأنه لا مثيل له في شيء قط على مدار التاريخ..

ذلك لأنهم يعيشونه.. أما الآخر فتاريخ!

وحقيقة إن القرن العشرين متفرد في كثير من الأمور. فهذه " الصورة " من الحياة، بكل تفصيلاتها ودقائقها، لم تعشها البشرية قط من قبل.. لم يكن لديها صواريخ ولا طائرات ولا سفن سريعة ولا قطر ماردة، ولا إذاعة ولا سينما ولا تليفزيون.. ولا إنتاج آلي ضخم يشمل كل مرافق الحياة..

ذلك كله صحيح..

ولكن دلالته غير صحيحة!

دلالته التي يريد الناس أن يستخرجوها منه أنه **لا شيء على الإطلاق** مما يعيشونه اليوم قد عاشه أي جيل من قبل. وأنه لا شيء مما يحدث اليوم قد حدث في أي يوم من التاريخ!

والناس لا يقرأون التاريخ!

لا يقرأونه لأنهم مشغولون بأحداث الحاضر الجسيمة، التي يزيدها جسامة أنهم يعيشون فيها بالفعل، فتبدو لهم دقائقها مجسمة ضخمة. ولا يقرأونه كذلك غرورا منهم! غرورا يخيِّل إليهم أنهم مقطوعو الصلة بالماضي كله، لأنهم خلق جديد لا شأن له بماضي الإنسانية السالف، ولا شبه بينهم وبينه، فلا " عبرة " إذن ترتجى من وراء قراءة التاريخ!

وقد يتواضعون قليلا فيدرسون تاريخ أوربا الحديث! تاريخ النهضة. لأنهم – وقد تثقفوا – يعرفون أن التغيرات لا تحدث بين يوم وليلة. وإنما هي تمر في " تطور " بطيء جداً. فالقرن العشرون، بما يحمله من آيات ضخمة، قد ولد – مثلا – في عصر النهضة، أي في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر، " فيحسن " من باب الاستئناس أن يقرأ الإنسان التاريخ الحديث والمعاصر، ليرى فيه مولد القرن العشرين!

ولكنهم لا يصلون في التواضع – إلا نادراً – إلى حد قراءة ما سلف قبل ذلك من التاريخ!

ولست أتحدث بطبيعة الحال عن " العلماء " و " العقلاء ".. إنما أتحدث عن " الجماهير ".. بما في ذلك " جماهير المثقفين "!

* * *

لذلك فنحن محتاجون إلى قراءة التاريخ!

محتاجون إليه لنرى صورة البشرية على حقيقتها، ولنحدث شيئاً من الاتزان في رءوسنا التي أدارها الدوي الطنان الذي نعيشه في القرن العشرين: دوي الآلات الضخمة، والسباق المجنون.. ودوي الفتنة المائجة في الطريق.

* * *

أغمض عينيك لحظة.. أغمض عينيك عن شاشة التليفزيون التي أمامك! أو عن الصاروخ الجبار الذي انطلق منذ لحظة. أو عن السيارة الفاخرة التي تنهب بك الأرض. وأغمض عينيك لحظة كذلك عن تلك الفتاة التي لبست أحدث ما أخرجته بيوت الأزياء في باريس.. فستانا يحاذي الركبة، وينحسر عنها حين تجلس فيكشف عما فوقها، ثم تزينت أعظم زينة، وخرجت " تتبختر " في رشاقة فاتنة تلهب المشاعر وتجذب العيون.

أغمض عينيك لحظة.. وانس أنك تعيش الآن في النصف الثاني من القرن العشرين. واستمع لهذه الكلمات!

" أرقى الأمم القديمة حضارة وأزهرها تمدنا في التاريخ، هم اليونان. وفي عصرهم البدائي كانت المرأة في غاية من الانحطاط وسوء الحال من حيث نظرية الأخلاق والحقوق القانونية والسلوك الاجتماعي جميعاً. فلم تكن لها في مجتمعهم مترلة أو مقام كريم. وكانت الأساطير (Mythology) اليونانية قد اتخذت من امرأة خيالية اسمها " باندورا " (Pandora) ينبوع جميع آلام الإنسان ومصائبه، كما جعلت الأساطير اليهودية حواء: العين التي تنشق منها جداول الآلام والشدائد. وغير خاف على أحد ما كان لهذه الأسطورة اليهودية الشنيعة عن حواء من تأثير عظيم في سلوك الأمم اليهوية والمسيحية قبل المرأة، وما كان لها من مفعول قوي في حقول القانون والأخلاق والاجتماع عند هؤلاء الشعوب. وكذلك أو دونه بقليل كان تأثير الأسطورة اليونانية عن (باندورا) في عقولهم وأذهانهم. فلم تكن عندهم إلا خلقاً من الدرك الأسفل، في غاية من المهانة والذل في كل جانب من جوانب الحياة الاجتماعية. وأما منازل العز والكرامة في المجتمع فكانت كلها مختصة بالرجل.

وبقي هذا السلوك قبل المرأة في أول عهدهم بالنهضة المدنية ثابتا على حاله، ربما تخللته تعديلات قليلة. فإنه كان من تأثير ذيوع العلم وانتشار أنوار الحضارة أن ارتفعت مكانة المرأة في المجتمع وأصبحت أحسن حالا وأرفع مترلة من ذي قبل، وإن بقيت مترلتها القانونية على حالها لم تتبدل. فهي أصبحت ربة البيت، منحصرة واجباتها في حدوده، وأصبح لها في داخله سلطة ونفوذ تام. وكان عفافها وتصونها من أغلى وأنفس ما يملك، ومما ينظر إليه بعين التقدير والتعظيم. وأيضاً كان الحجاب شائعا في البيوتات العالية. فكانوا يبنون بيوتهم على قسمين: قسم للنساء وآخر للرجال. وما كان نسوتهم يشاركن في المجالس والأندية المختلطة ولا يبرزن في الأماكن العامة. وكان يعد زواج المرأة وملازمتها لزوجها دون غيره من أمارات النجابة والشرف. ولأمثالها كانت الحرمة والمترلة في المجتمع. وبالعكس من ذلك كانوا ينظرون إلى حياة العهر والدعارة نظرة كره وازدراء.. هذا في عصر كانت الأمة اليونانية في إبان مجدها وعنفوان شبابها وقوتها،

وكانت تنمو صعدا إلى الرقي والكمال. ولا ريب أنه كانت توجد عندهم مفاسد خلقية في ذلك العصر، إلا أنها كانت منحصرة في نطاق محدود. وذلك أن الرجال لم يكونوا يطالَبون بمُثُل من العفاف وطهارة الأخلاق وزكاء السجية كانت تطالب بها المرأة وتؤاخذ عليها، بل كانوا يستثنوْن من التخلق بتلك الأخلاق الحسنة، ولم يكن من المتوقع منهم أن يعيشوا عيشة ذوي العفاف والحشمة. ومن أجل ذلك كانت المومسات جزءا من صميم المجتمع اليوناني لا ينفك عنه أبداً، ولا يعاب المرء إذا عاشرهن وخادنهن.

ثم جعلت الشهوات النفسية تتغلب على أهل اليونان ويجرف بهم تيار الغرائز البهيمية والأهواء الجامحة، فتبوأت العاهرات والمومسات مكانة عالية في المجتمع لا نظير لها في تاريخ البشرية كله، وأصبحت بيوت العاهرات مركزا يؤمه سائر طبقات المجتمع، **ومرجعاً يلجأ إليه الأدباء والشعراء والفلاسفة.** فكانت شموسا في سماء العلم والأدب يدور حولها كواكب الفلسفة والأدب والشعر والتاريخ وما عداها من الفنون. بل أصبحن القطب الذي تدور حوله رحى الأمة اليونانية. **فما كنّ يرأسن أندية العلم ومجالس الأدب فحسب، بل كانت المشاكل السياسية أيضاً تحل عقدها وتفك معضلاتها بحضرتهن وتحت إشرافهن.** وقد بلغ بهم التعسف في هذا الشأن أن **كانوا يرجعون في المسائل الرئيسية التي تعلو بها أمة وتسفل، وتحيا لها وتموت، إلى المرأة التي ربما لا ترضى أن تعاشر رجلا بعينه أكثر من ليلة أو ليلتين.** ثم زاد أهلَ اليونان حبهم للجمال وتذوقهم المفرط تماديا في الغي وارتطاما في حمأة الرذائل، وأضرم في قلوبهم ناراً للشهوات لا تخمد. **فالتماثيل – نماذج الفن العارية – التي كانوا يُظهرون بها وبالافتنان في صنعها وإتقانها ذوقهم هذا، كانت هي التي تحرك فيهم الشهوات دوما وتمد في غرائزهم البهيمية. ولا يخطر لهم ببال أن الاستسلام للشهوات شيء ذميم في قانون الأخلاق، والاندفاع وراء تيار الأهواء عار وهجنة. وتبدلت مقاييس الأخلاق عندهم إلى حد جعل كبار فلاسفتهم وعلماء الأخلاق عندهم لا يرون في الزنا وارتكاب الفحشاء غضاضة يلام عليها المرء ويعاب. وأصبح عامتهم ينظرون إلى عقد الزواج نظر من لا يهتم به، ولا يرى إليه من حاجة. وقلما يرون بأسا بأن يعاشر الرجل المرأة ويخادنها علنا من غير عقد ولا نكاح.**

...

...

والذين تسلموا ذروة المجد والرقي في العالم بعد اليونانيين هم الرومان. وفي هذه الأمة أيضاً نرى تلك السلسلة من الصعود والهبوط التي قد شاهدناها في اليونان. فحينما خرج الرومان من عصر الوحشية وظلمة الجهل، وظهروا على مسرح التاريخ لأول مرة، كان الرجل رب الأسرة في مجتمعهم، له حقوق الملك كاملة على أهله وأولاده، بل بلغ من سلطته في هذا الشأن أن كان يجوز له حتى قتل زوجه في بعض الأحيان.

ولما تخففت فيهم صورة الوحشية وتقدموا خطوات في سبيل المدنية والحضارة، تخففت القسوة في تلك السلطة وجعلت الكفة تميل إلى الاستواء والاعتدال شيئاً فشيئاً، وإن بقي نظام الأسرة القديم ثابتاً على حاله. وهؤلاء لم يكن الحجاب عندهم معمولا به - كاليونان - في إبان مجد الجمهورية الرومانية ورقيها. لكنهم كانوا قيدوا النساء والشباب عامة بقيود مثقلة من نظام الأسرة. فالعفاف كان شيئاً ينظر إليه بعين الإجلال ولا سيما في شأن النساء، وكان يعد مقياساً للشرف وكرم المحتد. وكذلك كان مستوى الأخلاق عندهم عالياً. ومن أمثال ذلك أن اتفق ذات مرة أن عضو مجلس الشيوخ قبل زوجه أمام ابنته، فغضب عليه القوم وحكموا على صنيعه بأنه غض من كرامة الخلق القومي وإهانة له، وأمضوا إقرار النكير (Vote of Censure) عليه في مجلس الشيوخ. هذا وما كان مباحا عندهم ولا مرضياً في أخلاقهم أن يتعاشر الرجل والمرأة بدون عقد مشروع. وما كانت المرأة تتبوأ مكانة العز والكرامة في المجتمع إلا بأن تكون أمًّا لأسرة (Matron) والمومسات، وإن كانت طبقتهن موجودة، وكان للرجال نوع من الحرية في مخادنتهن، إلا أن عامة الرومان وجمهورهم كانوا يزدرونهن وينظرون إليهن نظرة احتقار وتعيير. وكذلك ما كانوا ينظرون بعين الاستحسان إلى الرجال المخادنين لهن.

ثم أخذت نظرية الرومان في النساء تتبدل برقيهم وتقلبهم في منازل المدنية والحضارة. وما زال هذا التبديل يطرأ على نظمهم وقوانينهم المتعلقة بالأسرة وعقد الزواج والطلاق، إلى أن انقلب الأمر ظهراً لبطن، وانعكست الحال رأساً على عقب، فلم يبق لعقد الزواج عندهم معنى سوى أنه عقد مدني (Civil Contract) فحسب، ينحصر بقاؤه ومضيه على رضا المتعاقدين، وأصبحوا لا يهتمون بتبعات العلاقة الزوجية إلا قليلا. ومنحت المرأة جميع حقوق الإرث والملك، وجعلها القانون حرة طليقة لا سلطة عليها للأب ولا للزوج، **ولم تصبح الرومانيات مستقلات بشئون معايشهن فحسب، بل دخل في حوزة ملكهن وسلطانهن جزء عظيم من الثراء القومي على مسير الأيام. فكن يقرضن أزواجهن بأسعار الربا الفاحشة، مما يعود به أزواج المثريات من النساء عبيداً لهن في ميادين العمل والواقع. ثم سهلوا من أمر الطلاق تسهيلا جعله شيئاً عادياً يلجأ إليه لأتفه الأسباب.** فهذا " سنيكا " الفيلسوف الروماني الشهير (4 ق. م - 56 م)

يندب كثرة الطلاق ويشكو تفاقم خطبه بين بني جلدته فيقول: " إنه لم يعد الطلاق اليوم شيئاً يندم عليه أو يستحيى منه في بلاد الرومان , وقد بلغ من كثرته وذيوع أمره أن **جعلت النساء يعدون أعمارهن بأعداد أزواجهن**. وكانت المرأة الواحدة تتزوج رجلا بعد آخر وتمضي على ذلك من غير حياء. وقد ذكر مارشل (43 - 104 م) امرأة تزوجت عشرة رجال، وكذلك كتب جووينل (60 - 140 م) عن امرأة تقلبت في أحضان ثمانية أزواج في خمس سنوات، وأعجب من كل ذلك وأغرب ما ذكره القديس جيروم (340 - 420 م) عن امرأة تزوجت في المرة الأخيرة الثالث والعشرين من أزواجها، وكانت هي أيضاً الزوجة الحادية والعشرين لبعلها.

ثم بدأت تتغير نظرهم إلى العلاقات والروابط القائمة بين الرجل والمرأة من غير عقد مشروع. وقد بلغ بهم التطرف في آخر الأمر أن جعل كبار علماء الأخلاق منهم يعدون الزنا شيئاً عادياً. فهذا كاتو (Cato) الذي أسندت إليه الحسبة الخلقية سنة 184 قبل الميلاد، يجهر بجواز اقتراف الفحشاء في عصر الشباب. وذاك شيشيرون (Cisro) المصلح الشهير يرى عدم تقييد الشبان بأغلال الأخلاق المثقلة ويشير بإطلاق العنان لهم في هذا الشأن. ولا يقتصر الأمر عليهما بل يأتي إبكتيتس (Epictetus) الذي يعد من المتصلبين في باب الأخلاق من فلاسفة الرواقيين (Stoics) فيقول لتلاميذه مرشداً ومعلماً: " تجنبوا معاشرة النساء قبل الزواج ما استطعتم. ولكنه لا ينبغي أن تلوموا أحداً أو تؤنبوه إذا لم يتمكن من كبح جماح شهواته ".

" ولما تراخت عرى الأخلاق وصيانة الآداب في المجتمع الروماني إلى هذا الحد، اندفع تيار من العري والفواحش وجموح الشهوات فأصبحت المسارح مظاهر للخلاعة والتبرج الممقوت والعري المشين. وزينت البيوت بصور ورسوم كلها دعوة سافرة إلى الفجور والدعارة والفحشاء. ومن جراء هذا كله راجت مهنة المومسات والداعرات وانجذبت إليهن نساء البيوتات. وتمادى الأمر في ذلك إلى أن اضطر القوم إلى وضع قانون خاص في عصر القيصر تائي بيريس (14 - 37 م) لمنع نساء البيوت من احتراف مهنة المومسات وصناعتهن النافقة. **ونالت مسرحية فلورا (Flora) حظوة عظيمة لدى الروم لكونها تحتوي على سباق النساء العاريات. وكذلك انتشر استحمام الرجال والنساء في مكان واحد بمرأى من الناس ومشهد. أما سرد المقالات الخليعة والقصص الماجنة العارية فكان شغلا مرضيا مقبولا لا يتحرج منه أحد، بل الأدب الذي كان يتلقاه**

الناس بالقبول والرضى هو الذي يعبر عنه اليوم بالأدب المكشوف، وهو الذي تبين فيه أحوال الحب والعناق والتقبيل سافرة غير مقنعة بحجب من المجاز والكنايات. "[20]

* * *

الآن تستطيع أن تفتح عينينك!

ما رأيك في هذا " الشريط " من الأخبار؟!

لكأنك تراه أمامك اللحظة في السينما أو التليفزيون!

هل هناك كبير فرق؟! ما أشبه الليلة بالبارحة!

إن بعض أجزاء الصورة توشك أن تكون بحذافيرها وصفا لما هو كائن اليوم في القرن العشرين، لا ما كان موجودا قبل عشرين قرنا، أو أكثر من عشرين!

المرأة المتبرجة المتزينة التي تفتن الرجل بتبرجها وزينتها..

المرأة التي تقضي في شئون الأدب والفن والسياسة..

المرأة التي تملك الرجل وتسيره حسب هواها..

المرأة " المستقلة اقتصاديا " التي تفهم من استقلالها الاقتصادي أن لها حق " التحرر " أو التحلل الخلقي..

الرجل الباحث عن متاع الجسد، الساعي خلف المرأة المتبرجة..

الرجل المشغول بمتاع الجسد عن جديات الأمور.

الرجل الباحث عن " بهجة المجتمع " وعن المرأة التي " تشارك في حمل أعباء الحياة ".

[20] كتاب الحجاب للسيد أبي الأعلى المودودي، ص 14 – ص 24.

الرجل الذي ينظر إلى المرأة المتحللة على أنها " ضرورة اجتماعية " ويرحب بها على هذا الأساس.

و الأدب المكشوف، والمسارح العارية، والتفنن في الفحشاء.

أكثير هو الذي تغير؟!

بل.. هل تغير شيء في الحقيقة؟!

* * *

إن الإنسان ليذهل من قراءة التاريخ.

يذهل أن تكون صورة الحياة اليوم – في جوهرها – هي إلى هذا الحد تكرار لما كان قبل ألفين من السنين!

ويذهل من جهالة الجاهلين، ودعاوى المزيِّفين!

المزيفين الذين يزعمون أن الحياة الاجتماعية الحديثة صورة فريدة لم تتكرر في التاريخ، ونتيجة " للتطور " الذي جاء به " العلم ".. والجاهلين الذين يصدقون هؤلاء المزيفين!

أين هو " التطور " في صورة الحياة الاجتماعية؟!

لقد تغيرت الأدوات حقاً.. ما في ذلك شك! ولكن " العمل " ذاته هل تغير؟!

وأية سذاجة أو جهالة أو تزييف تلك التي تجعلنا نحسب الأمر جديداً لأن " كرستيان ديور " هو الذي يصدر أزياء النساء و لم يكن موجودا من قبل، وأن السينما هي التي تعرض العري والدعارة والفجور و لم تكن موجودة من قبل، وأن التليفزيون هو الذي ينقل صور الفساد إلى داخل البيوت و لم يكن موجودا من قبل، وأن الشارع الذي تستعرض فيه المرأة قدرتها على الفتنة والإغراء شارع واسع " مسفلت " نظيف مزدحم بالسيارات الخاصة والعامة و لم يكن موجودا من قبل؟!

أية سذاجة أو جهالة أو تزييف تلك التي تنسب ذلك " التقدم الاجتماعي " " الضخم " الذي نعيشه اليوم، والذي أخرج المرأة إلى الطريق عارية تبتغي الفتنة وشغل الرجل بفتنتها.. إلى اقتصاديات القرن العشرين الفريدة في التاريخ، وظروف القرن العشرين الفريدة في التاريخ، وعلم القرن العشرين الفريد في التاريخ، واختراعات القرن العشرين الفريدة في التاريخ و " أيديولوجيات " القرن العشرين الفريدة في التاريخ؟!!

أية سذاجة أو جهالة أو تزييف تلك التي تنسى وقائع التاريخ الماضي وتزعم أن البشرية " ولدت " اليوم مولداً لم تولده من قبل قط، وأن هذا الجيل من البشرية جيل منقطع الصلة عن كل شيء قبله. " جيل الصواريخ ".. الذي لا يتقيد بدلالات الماضي، ولا يتأثر بها، ولا تعنيه في شيء، لأنه ينشئ نفسه إنشاء على نحو غير مسبوق..؟!

بل أية سذاجة أو جهالة أو تزييف تلك التي تزعم أن الكيان البشري الداخلي قد " تطور " أو تغير خلال كل هذه القرون؟!

* * *

تلك شهادة التاريخ. فلنتدبرها. إنها تقول أشياء كثيرة..

تقول أولا: إن " القرن العشرين ".. أو " الحياة الاجتماعية في القرن العشرين ".. أو " دور المرأة في الحياة الاجتماعية في القرن العشرين " أو " علاقة الرجل والمرأة في القرن العشرين " ليست صورة فريدة ولا جديدة في حياة البشرية.. فقد مرت صور من قبل فيها مشابه عجيبة منها، حتى لينسى الإنسان إذا أغمض عينيه وهو يسمعها أنه يعيش في القرن العشرين، أو أن تلك الصور كانت قبل ألفين من السنين!

وتقول ثانياً: إن الأسباب المزعومة التي تفسر بها الحياة الاجتماعية في القرن العشرين، ودور المرأة فيها، وعلاقتها بالرجل فيها، ليست هي الأسباب الحقيقية.. أو ليست كلها على الأقل. فإنها إن عزيت إلى أي سبب متعلق بالقرن العشرين وحده وما حدث فيه من " تطور " وتقدم، فكيف يمكن تفسير الصورة المشابهة الشديدة الشبه منها، التي حدثت في القرن الأول للميلاد، أو قبله بعدة قرون؟!

وتقول ثالثاً: إن الكيان البشري ليس كما تصوره نظريات القرن التاسع عشر والقرن العشرين، على يد ماركس ودركايم، ومن شابههم ومن أخذ منهم.. ليس "

متطوراً " من داخله بالصورة التي تلغي كل ثبات فيه أو فيما حوله.. وليس " الجنس " اكتشافا جديداً يكتشفه فرويد.. فقد اكتشفته قبله حضارات عديدة في التاريخ!

* * *

وليس معنى هذا أننا نلغي عمل التطور، أو نسقط فترة الألفين من السنين!

كلا! فما يصنع ذلك عاقل!

إنما نريد فقط أن نصحو من غفلتنا التي تتصور الحاضر منقطعاً عن كل دلالة الماضي، نابتاً نباتاً شيطانياًعلى نسق غير مسبوق.

لقد حدثت أحداث ضخمة في القرنين التاسع عشر والعشرين: في عالم المادة وعالم البشر على السواء.

الانقلاب الصناعي كان حدثاً تاريخياً ضخماً ولا ريب.

الرأسمالية والشيوعية حدثان ولا شك من أحداث التاريخ..

النظرة إلى " الإنسان " قد تقلبت مرات عدة من أقصى الشمال إلى أقصى اليمين بصورة لم يسبق لها مثيل: من تقديس فرديته إلى الحد الذي يكاد يلغي المجتمع إلى جواره، إلى تقديسه في صورة الجماعة إلى الحد الذي يكاد يلغي شخصيته الفردية ويعتبره مجرد فرد في القطيع. من " إنسان " رفيع المنزلة يعتبر مركز الكون، إلى حيوان أو ناجم من حيوان.. لا مزية له على غيره من الأحياء إلا أنه في طور السيادة في الوقت الحاضر، وقبله كانت أنواع من الحيوان هي السيدة على ظهر الأرض! ثم من إنسان عابد لغيره: لله أو الطبيعة أو أي شيء آخر، إلى إنسان متأله لا يريج أن يعبد إلا ذاته في القرن العشرين!

والعلم قد خطا خطوات جبارة لا مثيل لها في التاريخ كله.. فجّر الذرة وأطلق الصاروخ.. وسخر للإنسان كثيراً من قوى الأرض والكون.. ويسّر الحياة المادية أيما تيسير.. وحمل عن الناس الجهد البدني الذي كان يشقيهم من قبل ويعنتهم، فحمّله للآلة، وانطلق الإنسان خفيفاً مذخور الطاقات!

" صورة " الحياة كلها قد تغيرت من الألف إلى الياء..

ولكن.. " الإنسان" هل تغير؟!

ألوان نشاطه.. ودلالة مناشطه وأعماله؟ هل تغيرت؟!

هل صار – في انحرافاته واعتدالاته – شيئاً آخر غير " الإنسان "؟ الإنسان الذي عاش – مثلا – قبل ألفين من السنين؟!

هل صارت دلالات أعماله بالنسبة إليه – في انحرافاته واعتدالاته – شيئاً آخر غير ما كان من الدلالات؟!

*　　*　　*

تلك شهادة التاريخ..

فلنتدبرها..

إنها تروي لنا أشياء خطيرة.. عن الثابت والمتطور في كيان الإنسان.

الثابت والمتطوّر في كيان الإنسانْ

هل وعينا شهادة التاريخ؟

هل استخرجنا منها كل دلالتها؟

إن دلالتها لا تقف عند حد هذا التشابه العجيب بين فترتين من فترات التاريخ يفصل بينهما عشرون قرنا من الزمان.

إنها تلفتنا إلى ما هو أعمق من ذلك وأخطر.. إلى الطبيعة البشرية ذاتها.. إلى ذلك " الإنسان " المتضمَّن في أحداث التاريخ، متأثراً بها ومؤثرا فيها على مدار الأجيال..

هذا " الإنسان " هو الذي نريد أن نصل إليه من خلال الأحداث والظروف.. ومن وراء الملابسات والتقلبات.. نريد أن نفحصه من الداخل.. أن نتعمق كيانه.. أن نتعرف إليه.. فمن المؤكد – من تخبطاتنا في النظر إليه – أنه هو " المجهول " الأكبر في هذا القرن العشرين.. قرن " العلم " والكشف والعرفان!

*　　*　　*

يقول ألكسس كاريل في كتابه " الإنسان.. ذلك المجهول " – وهو " عالم " من علماء الطب والحياة، وليس فيلسوفا صاحب نظريات:

" إننا لا نفهم للإنسان ككل.. إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة. وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا. فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة!!

وواقع الأمر أن جهلنا مطبق. فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب، لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية، ما زالت غير معروفة... وهناك أسئلة أخرى لا عداد لها، يمكن أن تلقى في موضوعات تعتبر في غاية الأهمية بالنسبة لنا.. ولكنها ستظل جميعاً بلا جواب.. فمن

الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان غير كاف، وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب... "[21]

هذا تقرير عالم في العلوم، أتيحت له فرص نادرة – كما يقول في مقدمة كتابه – لأن يقضي معظم وقته يبحث في المعمل، ويفيد من تجارب العلماء الآخرين في الطبيعة والكيمياء وعلم الحياة وعلم وظائف الأعضاء إلى جانب تخصصه في الطب. ومع ذلك " فالجماهير "، بما في ذلك " جماهير المثقفين " يأخذها غرور العلم الأجوف، فيظنون أنهم عرفوا كل شيء – في عالم الإنسان خاصة – وأنهم مؤهلون لأن يفتوا في قضايا الإنسان في تأكد وتمكن.. فتكون فتواهم هي هذه الأقوال الزائفة، التي توحي بأن إنسان القرن العشرين كائن متفرد، مقطوع الصلة – أو يكاد – بكل الأجيال قبله، وأن تجربته التي يعيشها في هذا القرن تجربة متفردة لأنها تصدر عن كيان " متطور " لا مثيل له من قبل، وأن دلالات الأفعال بالنسبة لهذا الإنسان دلالات غير مسبوقة، ولا شبه بينها وبين دلالات البشرية فيما مضى من القرون..

وتتغذى هذه النظرة الزائفة على " علوم " كثيرة و " نظريات "..

فالتفسير المادي للتاريخ يقول إنه " ليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم، ولكن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم " [كارل ماركس] ووجودهم متغير على الدوام بحكم التطور في أدوات الإنتاج، تبعا لما يجد من كشوف واختراعات على الدوام " فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يعين الصفة العامة للعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة " [ماركس] " الإنتاج وما يصحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذي يقوم عليه كل نظام اجتماعي. فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغييرات والتحولات الأساسية يجب البحث عنها لا في عقول الناس أو في سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين، وإنما في التغييرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل " [فردريك إنجلز].

ومن ثم فلا يوجد كيان ثابت للإنسان!

الإنسان هو حصيلة الظروف المادية والاقتصادية. وهو انعكاس الطور الاقتصادي الذي يعيش فيه. وما دامت هذه الأطوار دائمة التغير، فالإنسان – حصيلتها وانعكاسها –

[21] ترجمة شفيق أسعد فريد. منشورات مكتبة المعارف ببيروت. ص 16 - 18

ليس له كيان ثابت، وإنما هو في تطور مستمر تبعا لهذه التغيرات. والتطور يشمل كيانه كله: أخلاقه وعقائده وأفكاره وسلوكه الفردي والجماعي.. وكل شيء فيه.

كان الإنسان في المجتمع الزراعي يعبد الله.. لأنه.. يضع البذرة في الأرض ويطلب الحبَّ من الرب! لأنه عاجز بنفسه عن التأثير في عملية الإنتاج، لا هو يستطيع أن يسرعها أو يبطئها عن مدها " الغيبية " ولا هو يستطيع - إلا بقدر ضئيل - أن يتحكم في النتائج [بالجهد المبذول من جانبه] فالأعاصير والآفات، وتقلبات البرد والحر لا سلطان له عليها البتة.. ولا بد أن ينتظر فيها كلمة السماء.

وكان الرجل هو المنتج الرئيسي، وهو الذي يعول المرأة. ومن ثم كان هو المسيطر صاحب السلطان. وكانت الأسرة تمثل سلطان الزوج، وهو حريص عليها شديد الحرص لأنها تهيئ له ذلك السلطان، ومن ثم يفرض على المرأة قيودا خلقية شديدة، فالعفة شرط رئيسي لحياتها وعنصر لا غناء لها عنه. والعفة معناها [في هذا التفسير] أن يتأكد الرجل - صاحب السلطان - أن هذه المرأة أو تلك له وحده لم يمسسها أحد غيره. ثم يجيء الدين [الذي يمثل هذا " الطور "] فيقول إن العفة مطلب إلهي من البشر، عليهم أن يلتزموا به من أجل الله.

وكانت الحياة الزراعية بما فيها من تكاليف شاقة تستلزم نوعا من التعاون الفردي، فصار هذا التعاون خُلقا.. وصار جزءا كذلك من مفهوم الدين.

وكانت الأسرة متعارفة، بحكم قرابتها وتصاهرها في محيطها المحدود، وبحكم التعاون بينها في جمع المحاصيل وبيعها وتبادلها، فكان هذا التعارف خلقاً.. وكان جزءا من مفهوم الدين.. الخ.. الخ..

ومن هنا كانت أخلاق المجتمع الزراعي ومشاعره ومفاهيمه ومبادئه وسلوكه العملي.. كلها نابعة من حقيقة الأرض، ومرتدة إليها.. فالأرض - بمفهومها الزراعي - هي التي تشكل حياة الإنسان.

ثم انتقل الناس إلى الطور الصناعي.. فتبدلت الأحوال..

عملية الإنتاج لم تعد " غيبية ". فهي عملية منظورة. الآلة المنتِجة منظورة، والمادة المنتَجة منظورة كذلك. و " الإنسان " هو الذي يديرها وليس " الله " [!!] ومن ثم فلا ضرورة شعورية لعبادة الله!

والمرأة قد استقلت اقتصادياً بحكم سلسلة من الظروف الاقتصادية المتوالية.. فلم يعد الرجل هو الذي يعولها. ومن ثم لم يعد الرجل هو المسيطر. أو على الأقل لم تعد سيطرته مطلقة. فلم يعد في وسعه – تدريجياً – أن يفرض العفة على المرأة. أي يفرض عليها أن تكون له وحده. فصار من حقها – تدريجياً – ألا تكون عفيفة. لأنها تستطيع حين يرفضها الرجل – إذا رفضها! – لعدم عفتها، أن تعول نفسها بنفسها.. ولأنها استقلت اقتصادياً اضطر الرجل أن يحترمها، ويترل لها عن سلطانه، ويعطيها حق الإباحية الجنسية.. ثم انتهى الأمر أن يحبذ هو تلك الإباحية بحكم " التطور "..

وعاش الناس في المدينة – لا في القرية – بأعداد متزايدة، ومن أصول غير متعارفة. فلم يعد التعارف شرطاً للحياة الإنسانية. وصار الخلق الجديد للمدينة – الخلق المتطور – أن يعيش كل إنسان حياته الخاصة في عزلة عن الآخرين.. عزلة شعورية وواقعية..

وبطل التعاون الفردي، لأن عملية الإنتاج صارت متخصصة، كل عامل يدق مسمارا أو يخط خطا أو يدفع شريطاً معدنياً أمامه.. إلخ. بلا تعاون ملموس بين واحد وواحد في المصنع الكبير.. فصار " عدم التعاون الفردي " هو الخلق الجديد المتطور..

وهكذا استمد المجتمع الصناعي أخلاقه ومشاعره ومفاهيمه ومبادئه وسلوكه العملي من الآلة، والإنتاج المادي.. فصارت الآلة هي التي تشكل حياة الإنسان..

وهكذا.. لا يكون شعور الناس هو الذي يعين وجودهم. ولكن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم، على حد قول العالم الكبير كارل ماركس!

* * *

هكذا تحسب الحسبة في التفسير المادي للتاريخ!

ثم يجيء " علم " الاجتماع على هدى دركايم فيقول إن الدين والزواج والأسرة ليست فطرة لدى الإنسان! وإنما هي من عمل " العقل الجمعي "، وهو شيء [ما هو؟!] دائم التطور والتغير والتشكل، لأن المجتمعات لا تثبت على حال واحد. ومن ثم فكل مجتمع يصنع دينه [أو لادينه!] ونظم زواجه [أو لا زواجه!] ونظم أسرته [أو لا أسرته!] فإذا قال العقل الجمعي في طور من أطواره: ليكن دين.. فليكن دين! وإذا قال: ليكن زواج.. فليكن زواج. وإذا قال: لتكن أسرة.. فلتكن أسرة. أما إذا قال – حسب هواه،

أو حسب " حتمية الظواهر الاجتماعية " التي لا تنشأ من ضمير الفرد ولا فطرته، ولا علاقة لها بمشاعره الفردية، ولا برضاه أو عدم رضاه عنها! – إذا قال: ليكن لا دين. وليكن لا زواج. وليكن لا أسرة. فسرعان ما يرضخ الأفراد " لقهر الظاهرة الاجتماعية " فينسلخون من دينهم وأخلاقهم ويتبرأون منها. ويحلون روابط الزواج والأسرة، ويصبحون أي شيء يريده العقل الجمعي – سبحانه – لا قاهر سواه.

*　　*　　*

ثم تجيء بهرة العلم..

الكهرباء بأعاجيبها..

والآلة بضخامتها..

والتغير الدائم.. كل يوم جديد..

ما تكاد البشرية تفتح فاها عجبا للتليفون – مثلا – وقدرته السحرية على نقل الصوت – في أسلاك – عبر السهول والدويان والجبال، حتى يكون اللاسلكي قد فجأها بما هو أعجب وأشد فتحا للأفواه. وحتى يكون التليفزيون..

وما تكاد البشرية تفيق من دهشة السيارة التي تسير بلا حصان.. بقوة الاحتراق الداخلي، كأنما يدفعها جن أو ساحر يسخر الجن، حتى تفجأها الطائرة.. ثم الصاروخ..

وما تكاد تفيق من عملية النسج الآلية، التي تقوم الآلة فيها بعمل ستة من العمال دفعة واحدة، حتى تفجأها الآلة التي تصنع كل شيء! والتي تقوم بعمل ألوف العمال، على دقة وتمكن لا تطيقه طاقات الإنسان.

ثم تتوالى العجائب كل يوم وكل لحظة.. فتعطي الحياة شكلا مختلفا في كل لحظة، وتغير مشاعر الناس وأفكارهم ومفاهيمهم ومبادئهم وسلوكهم الواقعي كل لحظة.. سلوك راكب الجمل ومفاهيمه غير سلوك راكب السيارةغير سلوك راكب الطائرة، غير سلوك راكب الصاروخ المسافر بين الكواكب في عصر الفضاء..

فأنّى " للإنسان " أن يكون هو الإنسان.. بل أين هو الإنسان ذاته في هذا السباق الجبار؟!

وحين نصل من القضية إلى هذا الحد.. حين تأخذ رءوسنا تدور من طنين الآلات وانفجار الطاقات.. حين تبهر أعيننا شدة التغير ومداه.. فنظن أن " الإنسان " قد تغير.. أو أنه لا يوجد وجود حقيقي للإنسان (!).. عند ذلك ينبغي أن نعود سريعا إلى شهادة التاريخ.. فهي العاصم لنا من الدوار!

شهادة التاريخ.. هي الرد على هذه " التهيؤات "!

صورتان من الحياة يفصل بينهما ألفا عام.. وتفصل بينهما أدوات مختلفة من أدوات الإنتاج.. وأطوار مختلفة من العلوم والكشوف والاختراعات.. ومع ذلك يتشابهان إلى هذا الحد الذي يثير الدهشة. كادان في بعض الجزئيات يتماثلان!

إذن..؟!

لا بد أن هناك تفسيرا آخر " للإنسان "..

ولا بد أن هناك عوامل أخرى غير هذه العوامل المنظورة، هي التي تحكم تصرفات الإنسان!

* * *

التفسير المادي للتاريخ يحاول أن يفسر الإنسان من الخارج.. يحاول أن يفسره على أنه هو في ذاته عجينة لينة قابلة للتشكل الدائم، ومهمتها هي التشكل الدائم.. لا قوام لها في ذاتها.. وإنما تستجيب دائما للمؤثرات.. ومن ثم تأخذ صورة القالب - الاقتصادي والمادي - الذي توضع فيه، ولا تضغط هي على الحوادث أبدا، ولا يكون لها هي التأثير على هذا القالب، لأنه " **حتمي** " من ناحية، ومن ناحية أخرى " **مستقل عن إرادة الناس** " [كارل ماركس] [22].

والتفسير الجمعي للتاريخ يحاول كذلك أن يفسر الإنسان من الخارج.. يحاول أن يفسره على أنه - أراد أو لم يرد - يتشكل على الدوام " بالقهر " الاجتماعي الذي لا

[22] " في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس تراهم يقيمون علاقات محددة لا غنى عنها. وهي مستقلة عن إرادتهم. وعلاقات الإنتاج تطابق مرحلة محددة من تطور قواهم المادية في الإنتاج. والمجموع الكلي لهذه العلاقات يؤلف البناء الاقتصادي للمجتمع. وهو الأساس الحقيقي الذي تقوم عليه النظم القانونية والسياسية، والتي تطابقها أشكال محددة من الوعي الاجتماعي " [ماركس].

يراعي مشاعر الفرد ولا رغباته، ولا علاقة له بها [دركايم] [23] وعلى أن الظواهر الاجتماعية لا صلة لها " بفطرة " الإنسان.. فالأمور التي يُظن أنها من الفطرة، كالدين والزواج والأسرة، والقيم الخلقية، ظواهر اجتماعية في حقيقتها، قد يرتضيها الفرد وقد لا يرتضيها، ولكنها " تكون ".. وبالتالي، فإنه إما ألا تكون للإنسان فطرة ثابتة.. وإما أن هذه الفطرة - على فرض وجودها - ليست مرجعا لحياة الإنسان!!

ثم تجيء شهادة التاريخ فتكذب هذا وذاك!

فكلا التفسيرين يعجز عن تفسير هذا التشابه العجيب في الحياة الاجتماعية الذي يفصل بينه ألفا عام..

التفسير المادي للتاريخ الذي يضع همه كله في التغيرات المادية وتطور أساليب الإنتاج، يعجز بداهة عن تفسير موقفين متشابهين من الناحية " الإنسانية " لا شبه بينهما على الإطلاق في عالم المادة وأساليب الإنتاج!

والتفسير الجمعي الذي يضع همه كله في العقل الجمعي، والقهر الاجتماعي الواقع على الفرد الذي لا تحكمه الفطرة.. يعجز عن تفسير الموقفين المتشابهين، إلا على فرض واحد - لا يريد أصحابه الاعتراف به - **هو أن يكون هذا العقل الجمعي - على فرض التسليم بوجوده - جزءا من فطرة الإنسان!**

ولا تفسير لشهادة التاريخ إلا تفسير واحد: أن يكون للإنسان فطرة، وأن يكون لهذه الفطرة لون من الثبات! وكل تفسير خلاف ذلك فهو عاجز عن التفسير، متمحل، مجانب للصواب!

* * *

ما الذي أغرى تلك التفسيرات المنحرفة أن تصنع هذا الصنيع " بالإنسان "؟!

إنها مزية الإنسان العظمى، التي ميزه الله بها عن الحيوان، هي ذاتها التي تجعل هذه التفسيرات المنحرفة تنزله من مكانه الرفيع، فترده إلى وضع أسوأ حتى من الحيوان!

---

[23] مرت بنا مقتطفات من أقواله في فصل سابق.

المرونة.. وتعدد الجوانب!

ويعجب الإنسان حين ينظر إلى تلك التفسيرات القاصرة الزائفة، كيف تشوه المزية التي وهبها الله للإنسان، ليوسع حياته ويثريها، ويعدد أنماطها ومستوياتها، واتجاهاتها وألوان نشاطها.. فتقلبها – في تفسيرها – أداة للسلبية والخنوع، والانطباع الدائم بالمؤثرات المادية " المستقلة عن إرادة الإنسان " أو القهر الاجتماعي " المستقل عن كيان الفرد ".. أو ما شابه ذلك من المؤثرات

المرونة التي مكنت الإنسان أن " يواجه " البيئة المادية في جميع ظروفها وحالاتها، فيسيطر عليها في النهاية على نحو من الأنحاء [" وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ "] [24] ولا يفنى ولا يدول حين تواجهه الصعاب.

وتعدد الجوانب الذي تتمثل فيه عبقرية الإنسان، والذي أتاح له أن " ينشئ " الحضارات المختلفة، وأن يجعل هذه الحضارات شاملة لنشاط الروح ونشاط الفكر ونشاط الجسد.. شاملة للجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمادية والفكرية والروحية..

هذه المزية وتلك – وكلتاهما موهبتان للإنسان ليعطياه إيجابية وحيوية فاعلة – تردهما التفسيرات المنحرفة الزائغة إلى سلبية بغيضة تتأثر بالأحداث من الخارج، ولا تؤثر هي من الداخل في الأحداث!

المرونة – القابلية للتشكل الدائم – أغرت التفسير المادي للتاريخ أن يظن أنه لا يوجد " كيان " ثابت للإنسان. وأنه ليس لهذا الكيان كلمة ذاتية في الموضوع! عليه فقط أن يتلقى فيستجيب!

وتعدد الجوانب – وخاصية بروز بعضها أحيانا وانحسار بعض – أغرت هذا التفسير والتفسير الجمعي كذلك أن يظنا أنه لا يوجد كيان ثابت للإنسان، وإنما هي " أطوار " لا يجمعها في النهاية كيان!

وهذا وذاك – وغيرهما من التفسيرات الزائغة المنحرفة – يأخذون جزئية صغيرة، أو وجها واحداً من وجوه الإنسان، ويفسرون على ضوئه الإنسان كله، أو وجها واحداً من وجوه الإنسان، ويفسرون على ضوئه الإنسان كله، فيخرج من بين أيديهم مشوه الكيان!

---

[24] سورة الجاثية [13].

والإنسان في حقيقته أكبر من تلك الجزئية الصغيرة وأكبر من ذلك الوجه المفرد الذي تفسر من خلاله الحياة.

ومرونته وتعدد جوانبه اللذان أغريا هذه التفسيرات الجزئية أن تشوه صورته هما **مزيتان إيجابيتان** على مدار التاريخ، وإن كان لهما - بالفعل - وجه سلبي هو الذي تركز عليه هذه التفسيرات!

إن الإنسان المزدوج الطبيعة، المكون من قبضة الطين ونفخة الروح، متحدتين ممتزجتين [25]، يحمل في كل تصرفاته وجهين متقابلين. ومن مجالات هذا الازدواج أن توجد فيه هاتان الصفتان المتقابلتان: السلبية والإيجابية، وأن تشملا - من الجانبين - كل تصرفاته، في اللحظة الواحدة وفي جميع اللحظات. وإن كان في طبيعته أن يجنح أحيانا بهذه الصفة أو تلك، فتزيد نسبتها مؤقتا، ثم يعود - ما دام سويا - إلى الاتزان. وتلك هي الحقيقة الكبرى التي غابت عن وعي تلك التفسيرات، فوقعت فيما وقعت فيه من انحرافات!

والآن نعود إلى القضية الأساسية في هذا البحث.. قضية الثابت والمتطور في كيان الإنسان.

ما " الفطرة " الإنسانية.. وما دلالتها في حياة الإنسان؟

وإذا كانت للإنسان فطرة " ثابتة " فما تفسير التغير الدائم في حياة البشرية الذي يصل من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال، والذي **لا تتماثل** فيه حالتان من حالات الإنسان، وإن تشابهتا تشابها شديداً في بعض الأحيان؟

بل قبل ذلك.. ما الذي يثبت لنا أن للإنسان " فطرة " على الإطلاق؟ ولماذا لا يكون - كما يفسره علم النفس التحليلي - مجموعة من الحالات النفسية المتتابعة بلا وحدة، أو - كما يفسره التفسير المادي للتاريخ - مجموعة من الأطوار؟

الذي يثبت ذلك هو الإنسان ذاته! وهو تاريخ الإنسان!

---

[25] انظر بالتفصيل فصل " خطوط متقابلة في النفس البشرية " في كتاب " منهج التربية الإسلامية " وفصل " طبيعة مزدوجة " في كتاب " دراسات في النفس الإنسانية ".

فلننظر إلى " الدوافع الفطرية ".. هل لها وجود حقيقي ملموس بارز.. وهل هذا الوجود ثابت أم يتغير بتغير " أطوار " الإنسان؟

" حب الحياة " هو الدافع الأكبر للإنسان. وهو دافع مشترك بين جميع الأحياء. كلهم يحبون الحياة ويتشبثون بها، ويعملون على البقاء فيها أبداً.. وإن كان من طبيعتهم أن يصيبهم الفناء. ولكن مزية الإنسان العظمى في كل جوانب حياته هي الوعي والإدراك وحرية الاختيار. فهو يحب الحياة ويدرك أنه يحبها، ويعي لهذا الحب أهدافا وغايات، ثم يختار – في نطاق الحرية المخولة له في فطرته – اللون أو الصورة التي يمارس بها حب الحياة.

هل هذا الدافع ثابت في كيان الإنسان أم متغير؟

هل يجيء على البشرية طور لا تحب فيه الحياة؟

إن حالات الانتحار – وهي الشذوذ المنحرف إلى أسفل – وحالات التضحية بالنفس – وهي حالات الارتفاع – لا تنفيان هذا الدافع،، بل ربما تؤكدانه.. فضلا عن أنها – من جانبيها – حالات نادرة في البشرية!

إن الذي يؤدي به الشذوذ المنحرف إلى الانتحار، شخص يحب الحياة جداً في حقيقة الواقع، ولكنه لا يجد فيها متاعه المنشود الذي يحبه، فينتحر لأنه لا يطيق الحرمان من ذلك المتاع!

والذي يؤدي به الارتفاع إلى التضحية بالنفس في سبيل عقيدة أو فكرة، يحب صورة من الحياة أعلى من الصورة الواقعة. وفي هذا المستوى العالي يقدم حياته الخاصة في سبيل أن يحقق صورة من الحياة أفضل – على هذه الأرض – أو في سبيل أن ينال حياة أفضل من حياة الأرض كلها – في الآخرة – فهي إذن دفعة متسامية لتحسين هذه الحياة، وليست خروجاً على حب الحياة!

ثم تأتي الحالات " العادية " كلها تؤكد عمق هذا الدافع في حياة **كل إنسان** رغم التباين الواسع ما بين إنسان وإنسان.

وحب الحياة يتفرع عنه فرعان كبيران: حب الذات [أو حفظ الذات] وحفظ النوع.

فهل من شك في هذا أو ذاك؟

وإذا قسمنا هذين الدافعين إلى فروعهما المتميزة – المتشابكة في النهاية – وهي دافع الطعام والشراب والملبس والمسكن. ونزعة الملك. ونزعة القتال أو الصراع. ونزعة البروز والتميز. ودافع الجنس [26].. فلننظر في كل منها على حدة، لنرى هل هي نزعات ثابتة في الكيان البشري، أم إنها توجد وتختفي حسب الأحوال؟

المأكل والمشرب والملبس والمسكن.. لم يجادل فيها أحد بعد مجالة جدية (!) [ربما تجادل " الحضارة " الغربية التقدمية الراقية في مسألة العري الكامل على الشواطئ وفي الأدغال! وبصرف النظر عن هذه النكسة الحيوانية البشعة، فإنها تاخذ صورة وقتية.. للاستمتاع كما يقولون، ثم يعود العرايا فيلبسون! ومن ثم فلا جدال من حيث المبدأ!].

وطاقة الجنس كذلك.. لم يجرؤ أحد أن يقول إنها مستمدة من الطور الاقتصادي أو المادي! وإنها توجد – مثلا – في المجتمع الرعوي ولا توجد في المجتمع الزراعي. أو توجد في السيد – مثلا – ولا توجد في الرقيق! إنما أقر الجميع بأنها مسألة جسدية بحتة، أو جسدية نفسية. توجد حين توجد الغدد المهيمنة عليها وتؤدي وظيفتها الصحيحة، وتغيب حين يختل عمل الغدد اختلالا وظيفياً لا شأن له بأساليب الإنتاج وأطوار التاريخ!!

ولكن الشيوعية بصفة خاصة قد حاولت أن تنتزع نزعة معينة من هذه النزعات الفطرية وتلقيها خارج كيان الإنسان.. لتنفي وجودها من ناحية، ومن ناحية أخرى تنفي وجود كيان ثابت للإنسان! تلك هي نزعة الملك.. وذلك لغاية في نفس يعقوب.. لتصادر الملكية الفردية وتستبدل بها الملكية الجماعية.

وقد ناقشت هذا الأمر في كتاب " الشبهات " وكتاب " الدراسات ". وما بي من ميل هنا إلى إعادة المناقشة التفصيلية التي بينت فيها ضلال هذه الدعوى وبطلانها. ولكني – توفيراً للجدل هنا – أقول إن الشيوعية ذاتها، حين نقلت " الملك " من الفرد إلى المجموع، لم تنكر نزعة الملك في الحقيقة من حيث هي.. وإنما أرادت فقط أن تتحايل عليها وتوجهها إلى أفق آخر يخدم أغراضها المذهبية.. ومع ذلك فقد اضطرت أخيراً إلى

[26] فصلنا الحديث عن هذه الدوافع في فصل " الدوافع والضوابط " في كتاب " دراسات في النفس الإنسانية " ولا نملك الحديث عنها هنا بالتفصيل بطبيعة الحال، وإنما نأخذ خلاصتها في هذا البحث، فمن يرغب في التفصيل فمكانه هناك!

التسليم بالأمر الواقع، وأباحت ألواناً من الملكية الفردية – في المواد الاستهلاكية – ترضى بها نزعة الملك الفردية في الإنسان.. وهذا يكفي!

كذلك حاولت الشيوعية أن تصنع مثل ذلك في نزعة البروز. حاولت أن تقتلها في مجالها الفردي. فلا يبرز الفرد إلا لحساب المجموع! وسارت خطوات وتخبطت في الطريق! وكان ستالين ذاته – بزعامته الفردية الطاغية التي اعترف بها خروشوف فيما بعد! – أكبر تكذيب عملي لهذه " الأيديولوجية " الخيالية الفارغة. ثم عادت الشيوعية فسلمت بالأمر الواقع، وأباحت التفاوت في أجور العمال – أجور الطبقة الواحدة والعمل الواحد – لمن أراد أن يبذل جهداً أكبر ويحصل على أجر أكبر، ينفقه في " الكماليات ".. إنها نزعة البروز إذن في صورة من الصور.. الفردية في نهاية المطاف!

أما نزعة القتال والصراع، فالأمم منذ القدم حاولت أن توجهها وجهة جماعية، في الحرب من أجل المجموع، أو العقيدة، أو ما شابه ذلك من الأهداف العامة. أو وجهة فردية متسامية، في المسابقات التي تهدف إلى " الفوز " وهو غاية القتال والصراع. وكل هذه المحاولات لا تنفي على أي حال وجود هذه النزعة في صورتها الفردية، وإنما تحاول فقط أن تستغلها لخير المجموع.

* * *

تلك نوازع الفطرة الرئيسية.. فما الذي يتغير أو يتطور فيها على مدار التاريخ؟!

إن قوما سيقولون بلا شك: لقد تحدثت عن الإنسان من الداخل. ولم تتحدث عن واقع البشرية: عن الكيان الاقتصادي والكيان الاجتماعي والسياسي المتغير. عن الإنتاج وأساليبه وصراعاته. عن التقدم والتطور الدائم في حياة الإنسان..

نعم. تحدثنا عن الإنسان من الداخل..

ولكن.. هل الحياة الواقعية إلا الانعكاس الحقيقي لكيان الإنسان؟!

كيف إذن نوفق بين الكيان الإنساني الثابت، وبين تغير الحياة الإنسانية على الدوام؟

إن " الصورة " التي يترجم بها الإنسان عن دوافعه الفطرية تتغير و " تتطور " من جيل إلى جيل.. تتطور بفعل الاحتكاك الدائم بين العقل البشري والكون المادي، ونشوء صور جديدة للحياة الواقعية نتيجة لهذا الاحتكاك.

هذه حقيقة..

ولكن.. حين تتغير " الصورة ".. هل يتغير " الإنسان "؟!

فلنأخذ مثلا نزعة الطعام..

إنها نزعة فطرية ثابتة في جميع الأناسي، بل في جميع الأحياء، ولكن " صورة " الطعام تتغير وتتطور.

يأكل الإنسان فريسة نيئة في عصر الصيد، لأنه لا يملك وسيلة أخرى للأكل. إمكانياته **المادية** لا تسمح له بأكثر من ذلك. ومعارفه ومعلوماته قاصرة عند هذا الحد. ثم يكتشف النار. فيتيح له هذا الاكتشاف عالما جديدا كل الجدة، ويغير " شكل " حياته كله. وفي ميدان الطعام بصفة خاصة تتغير الصورة، فيطهو الإنسان اللحم قبل أن يأكله. ولكنه ما زال ينهشه نهشا بالأصابع والأسنان. ثم يرتقي ويستحدث مختلف الأدوات. يستحدث سكينا يقطع بها اللحم قطعا صغيرة يستطيع إمساكها بيده ووضعها – لا نهشها – في فمه. ثم يرتقي أكثر، ويستحدث مزيدا من الأدوات، وتتعدد ألوان طعامه، ويتأنق فيها، ويجعل للطعام آدابا وقواعد وتقاليد.. و " فنونا " لا تفرغ منها البشرية!

ما الذي تغير؟! نزعة الطعام ذاتها أم صورة الطعام؟!

ولنأخذ مثلا نزعة السكن..

إنها نزعة ثابتة في الفطرة.. كل البشر – بل كل الأحياء – يسعون إلى اتخاذ المسكن. ولكن " صورة " المسكن تتغير وتتطور.

يسكن الإنسان في مبدأ حياته في الكهوف. لأن إمكانياته **المادية** لا تتيح له شيئاً يسكن فيه سوى هذه المساكن " الجاهزة " غير المصنوعة، ولأن معلوماته وخبراته المحدودة لا تتيح له أن " يصنع " مسكنا لنفسه في أية صورية. ثم تتغير ظروف حياته وتزداد خبراته ومعلوماته، فيسكن في " عش " في أعالي الأشجار أو في كوخ بجانب الماء. ثم في مساكن من الغاب وبيوت من الطين. ثم في بيوت من الحجر أكبر وأفسح.. ثم في ناطحات

السحاب على الأرض. أو فيما لا نعلم غداً على سطوح الكواكب حين يصل إليها بالصواريخ..

ما الذي تغير؟! نزعة السكن أم صورة المساكن؟

ولنأخذ نزعة اللباس..

نزعة فطرية في بني آدم منذ طفق آدم وحواء يخصفان على سوآتهما من ورق الجنة إلى الوقت الحاضر.. ولكن صورة اللباس تتغير..

" يلبس " الإنسان أوراق الشجر، أو بالأحرى يغطي بها عوراته ولا زيادة، لأن إمكانياته المادية لا تتيح له أن " يصنع " لنفسه ملابس، ولأن معلوماته وخبراته المحدودة لا تتيح له أكثر من المادة الجاهزة يغطي بها من جسمه ما تستطيع تلك المادة أن تغطيه.. ثم يرتقي.. يستجد معلومات وخبرات ويزداد إمكانيات.. فيغطي عوراته بقطعة من الجلد، أكثر إحكاما من ورق الشجر وأكثر سترا للعورات.. ثم ينسج قطعة من القماش يؤدي بها الغرض ذاته.. ثم تزداد ملابسه تنوعا وتأنقا.. حتى تصير لها قواعد وآداب وتقاليد.. وتصبح فنا من فنون البشرية..

ما الذي تغير؟! نزعة اللبس ذاتها أم صورة اللباس؟

ولنأخذ دفعة الجنس..

دفعة فطرية تشترك فيها الأناسي وكثير من الأحياء.. ولكن " صورة " الجنس تتغير. ولا نقول هنا " كانت " ثم " صارت " فما زالت تتقلب إلى هذه اللحظة بين ما كانت عليه وما صارت إليه! [وسنعود إلى الحديث عن هذه النقطة بالذات بعد قليل] وإنما نقول إنها تارة تكون دفعة مباشرة كدفعة الحيوان. كل همها اللقاء الجنسي، وإرواء دفعة الجسد الهائج في صورة الغريزة. وتارة تكون مسبوقة بأنواع من الغزل العنيف أو الرقيق [كما يختلف في عالم الحيوان ذاته بين " غزل " النمور المحطم المدمر، وبين رقة الغزل عند الحمائم وأنواع أخرى من الطيور!] وتارة تخضع للتنظيمات الخلقية والدينية والاجتماعية والاقتصادية. وتارة تتحلل من هذه القيود. ولكن لها على أي حال - ككل النزعات الفطرية الأخرى - قاعدة دنيا أقرب إلى عالم الحيوان، وقمة عليا أليق بالإنسان.. ولكن.. حتى في هذا الأمر..

ما الذي تغير؟! دفعة الجنس ذاتها أم صورة اللقاء؟

ولنأخذ نزعة الملك..

نزعة فطرية رغم جدل الشيوعية! يثبتها كما قلنا اضطرار الشيوعية إلى إباحة الملكية الفردية في بعض الأمور.. ولكن صورة الملك تتغير. في فترة من الفترات لم يكن هناك ما يمتلك! لم يكن الصيد الذي يصيده الإنسان ملكا لفرد بعينه لأنه **لا يستطيع** أن يمتلكه وهو لا يصيده بجهده وحده من ناحية، ولا يستطيع أن يحتفظ به من ناحية أخرى لأنه ينتن ويفسد. ولكن حتى في ذلك الحين كان يثور الصراع على " امتلاك " امرأة. فيتصارع من أجلها الرجال. ثم صار هناك " إنتاج " يمكن أن يمتلك. فامتلك الإنسان الأدوات البسيطة التي أنتجها. ثم امتلك المحاصيل حين تعلم الزراعة. وامتلك حيوان الزراعة المستأنس حين تعلم كيف يستأنسه. وامتلك الأرض التي تغل المحاصيل. ثم امتلك المصانع. واليوم يمتلك القنابل والصواريخ! وقد يمتلك الكواكب في الغد القريب أو البعيد..

ما الذي تغير؟! نزعة الملك أم صورة التملك؟

ولنأخذ نزعة البروز..

نزعة فطرية تدفع البشرية من مولدها إلى حاضرها. بل هي موجودة عند كثير من الحيوان.. ولكن صورة البروز تتغير. ولعلها من أشد النزعات تباينا وتشكلا في حياة الإنسان. يبرز في عصر الكهوف بالقوة البدنية الفائقة التي يصطاد بها الصيد ويحارب الوحوش والأعداء.. ثم يبرز بالحيلة. أي بالتفكير. ويبرز بمحاولة الاختراع. أي بالمهارة. ويبرز بالجمال. ويبرز بالملبس والمسكن والمأكل والمشرب. ويبرز بالجنس " فيقتني " النساء. ويبرز بالقتال والصراع. ويبرز بالطاعة ويبرز بالمعصية! يبرز بالخير ويبرز بالشر. يبرز في المسابقة الرياضية والمسابقة العلمية والفنية. يبرز في السياسة. يبرز بالقدرة على الكلام والتأثير. أو القدرة على الدس والخديعة.. ألوان مختلفة من البروز ومستويات مختلفة..

ما الذي تغير؟! نزعة البروز أم صورة البروز؟

ولنأخذ نزعة القتال والصراع..

نزعة فطرية في البشرية وغيرها من الأحياء.. ولكن صورة القتال تتغير. القتال بالقوة البدنية المباشرة، القوي يصرع الضعيف. والقتال بالهراوة والحجر الضخم. والقتال بالحيلة والخديعة. والقتال بالأدوات المسنونة: السهم والرمح والسيف. والقتال بالمقلاع.

والقتال بالبارود. بالرصاصة والقنبلة. والقتال بالصورايخ وأشعة الجراثيم وأشعة الموت وأشعة النوم والــ..؟!

ما الذي تغير؟! نزعة القتال أم صورة القتال؟

* * *

تلك حياة البشرية من الداخل والخارج في ذات الوقت.. في المشاعر الدافعة والصورة الواقعة. في " الإرادة " و " التطبيق ". في " الفكرة " و " الواقع " أو الفكرة والمادة.

ما الذي تغير في عصور التاريخ؟ ما الذي تغير في " الإنسان " حين استجد أدوات ووسائل للطعام، وأدوات ووسائل للسكن، وأدوات ووسائل للبس، وأدوات ووسائل للنشاط الجنسي، وأدوات ووسائل للملك، وأدوات ووسائل للبروز، وأدوات ووسائل للصراع؟!

هل تغير " الإنسان "؟ هل تغيرت دوافعه حين وجدت له الوسائل والأدوات؟ هل صار لا يأكل؟ لا يشرب؟ لا يلبس؟ لا يسكن؟ لا ينشط نشاط الجنس؟ لا يملك؟ لا يحاول الصراع؟!

هل جدت له دوافع جديدة لم تكن له من قبل أو أمحت من نفسه دوافع كانت فيه؟

ماذا على وجه التحديد؟!

حقاً لقد حدثت في حياته تغيرات ضخمة، ما بنا أن ننكرها أو نغفلها من حسابنا! بل نحن نريد أن نثبتها ونبرزها ونؤكد عليها!

إنسان الغابة غير إنسان المرعى غير إنسان القرية غير إنسان المدينة.. وإنسان الحضارة المحدودة غير إنسان الحضارة العالية.. غيره في طريقة التفكير والتصور. غيره في تناول الحياة..

غيره على أنحاء شتى.. ومستويات متباينة.

ونريد هنا أن نفرز **أنواع التغير والتطور – فإنها متباينة – ثم ننظر هل هذه التطورات ذاتها جزء من الفطرة. الفطرة الثابتة. داخل في كيانها. أم عنصر جد على الإنسان من أثر التطور المادي وتقدم الوسائل والأدوات**، لنحكم على **دلالة التغير بالنسبة للفطرة**، ولكي نستخلص أخيراً من هذا الحكم: **هل هناك مقياس من الفطرة يقاس به التطور ويرجع إليه، ويحكم عليه إن كان تطورا فاسدا أم يسير في طريق الصلاح**.. أم إنه ليس هناك مقياس؟

تلك أمور على أعظم جانب من الأهمية في قضية التطور.. فإن القوم المصابين بلوثة التطور في الغرب، ومن أخذ منهم العدوى في الشرق، لا يفرقون بين تغير وتغير، ولا يقيمون مقياسا تقاس به الأمور. لأن التطور – في نظرهم- مقياس لذاته! لا يُحكم عليه بشيء – كما يقولون – من خارجه! فإذا سار نحو الفردية الجانحة – مثلا – فلأن الظروف الاقتصادية والاجتماعية تدفع إلى ذلك **وتحتمه**، ومن ثم لا يحكم عليه بأنه خطأ أو صواب! والحكم الوحيد هو الظرف الاقتصادي والاجتماعي. فإذا كان يقتضي الفردية ويحتمها فالفردية عندئذ صواب. وإذا كان يقتضي الجماعية ويحتمها فالفردية إذن – إن وجدت – خطأ ينبغي أن يصحح! ولا يوجد مقياس ثابت تقاس إليه الفردية الجانحة أو الجماعية الجانحة فتخطِّأ أو تصوّب، وتمنع أو تجاز!

وإذا سار المجتمع نحو الأخلاق التي تحرم النشاط الجنسي خارج نطاق الأسرة، وتفرض العفة على المرأة، أو عليها وعلى الرجل، فليس ذلك لأن هذه الأخلاق قيمة موضوعية لها مقياس من فطرة الإنسان تقاس إليه، وإنما لأن الطور الاقتصادي الاجتماعي يقتضيها **ويحتمها**، فهي صواب إذن في نطاقها هذا وظروفها تلك. فإذا تغير الظرف الاقتصادي والاجتماعي، وصار يقتضي التحلل الجنسي والإباحية، والتخلص من قيود العفة، وممارسة النشاط الجنسي الحر في الشوارع أو الغابات أو شواطئ البحيرات، فهذا إذن صواب بمقياسه الخاص، لأنه لا مقياس من الفطرة ولا مقياس من أي شيء " خارج " الظرف الاقتصادي والاجتماعي..

وهكذا يقولون في كل جانب من الحياة البشرية..

لذلك ينبغي ونحن نناقش هذه القضية الخطيرة أن نضع نصب أعيننا تلك الأمور التي أشرنا إليها آنفا:

ما أنواع التغير؟ [فإنها أنواع متباينة]..

هل التغيرات التي حدثت في التاريخ جزء من الفطرة أم أمور جدّت عليها من خارجها بفعل التطور المادي؟

ما دلالة هذه التغيرات بالنسبة للفطرة السوية [هل هي متمشية معها أم ضدها]؟

ما المقياس الذي يقاس به التطور؟ [إن كان فاسداً أو يسير في طريق الصلاح]

*　　*　　*

ونبدأ بفرز **أنواع التغير** التي أصابت البشرية منذ مولدها، كما يتبين لنا من الدراسة العلمية للإنسان الأول والمجتمعات الأولى، وكما يتبين لنا من دراسة التاريخ.

هنالك – على الأقل – أربعة أنواع متميزة من التغير أو التطور:

التطور في الأدوات وأساليب الإنتاج.

التطور في التشابك الاقتصادي والاجتماعي في بنية المجتمع.

التطور " النفسي " [السيكلوجي].

التطور [أو التغير] الأخلاقي.

والتفسير المادي للتاريخ – وإن لم يفرزها كما نفرزها نحن، لأن هذا أمر لا يعنيه! – يجعلها كلها – جملة واحدة – مرتبطة بعضها ببعض، ثم مرتبطة بالتطور في أساليب الإنتاج وناشئة عنه!

ونحن نرى الارتباط واضحا ووثيقا بين التطور في استعمال الأدوات وأساليب الإنتاح، والتطور في البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع. وإن كنا – كما سيجيء – لا نحب أن نعتقد أن الارتباط ناشئ من علاقة السببية المباشرة. أي لا نحب أن نعتقد أن السبب **الوحيد** في تطور البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع هو تطور الأدوات وأساليب الإنتاج. فهذا سبب واحد، ومعه أسباب أخرى **نفسية** سنبينها. ولكنا نقول فقط إن هناك ارتباطا كبيراً بين هذا وذاك..

أما التطور النفسي – أي التعقد في الكيان النفسي للإنسان، وزيادة التشابك بين أطرافه – فالتفسير المادي للتاريخ يؤكد أنه نتيجة مباشرة لتطور أساليب الإنتاج. ولا شك عندنا أن تطور أساليب الإنتاج عامل مؤثر، بل شديد التأثير. ولكنا نريد أن نبين – رغم ذلك – أن هذه الظاهرة، وهي التطور النفسي، **ظاهرة مستقلة إلى حد كبير**، يمكن أن توجد بمنأى عن تطور أساليب الإنتاج، كما وجدت في الحضارات القديمة، ووجدت في أعلى مراحلها في الإسلام!

وأما التطور [أو التغير] الأخلاقي فنحن نرفض ابتداء أن نعلقه بتطور أساليب الإنتاج! ونحتكم في ذلك إلى شهادة التاريخ!

ولكنا – قبل المضي في البحث – نؤكد حقيقة تهدينا إليها الدراسة النفسية، وهي أنه **لا توجد في الحياة البشرية ظاهرة مستقلة تمام الاستقلال** عن الأخرى! إنما قلت عن التطور النفسي إنه ظاهرة مستقلة إلى حد كبير. ولم أقل منفصلة. لأنه لا انفصال البتة بين شيء وشيء في الحياة البشرية. الإنسان يمارس حياته بكيانه كله. وهذا الكل الشامل الذي يتكون منه الإنسان يحتوي على **جوانب متخصصة، ولكنها ليست منفصلة**. كعملية الإبصار يختص بها الجهاز البصري، فلا يبصر الإنسان برجله أو بظهره أو بأذنه. ومع ذلك لا ينفصل الجهاز البصري عن بقية الجسم وكما توجد في الجسم أجهزة شديدة التخصص كجهاز الإبصار أو السمع، فإن فيه كذلك أجهزة أقل تخصصا [أ وأوسع نطاقا] كجهاز الدورة الدموية الذي يدخل في كل أجزاء الجسم. وكذلك الأمر في الكيان البشري في مجموعه: فالتطور في استخدام الأدوات وأساليب الإنتاج يؤثر في الحياة البشرية كلها. نعم ولا شك. ولكن التطور النفسي والتطور الخلقي عمليتان شديدتا التخصص كالسمع والإبصار!

وننتقل بعد هذا من الإجمال إلى التفصيل..

* * *

حين انتقل الإنسان من أكل الفريسة النيئة إلى الطهو على النار.. إلى استخدام السكين.. إلى التأنق الشديد في الطعام. إلى وضع القواعد والآداب والتقاليد بشأنه. إلى تحويل الطعام إلى " فن " قائم ذاته..

وحين انتقل من سكنى الكهوف إلى سكنى الأشجار إلى سكنى الأكواخ.. إلى بناء البيوت من الطين.. إلى إقامة العمائر الفخمة ذات الهندسة المتقنة.. إلى التأنق إلى تحويل السكنى إلى " فن " قائم بذاته سواء في المبنى أو ما في داخل المبنى من الأثاث..

وحين انتقل من اتخاذ ورق الشجر لباسا إلى اتخاذ الجلد إلى اتخاذ القماش.. إلى التأنق الشديد في اللبس.. إلى وضع قواعد للملابس وآداب وتقاليد.. إلى تحويل اللبس إلى فن قائم بذاته..

وحين انتقل من التعبير المباشر عن الجنس.. إلى اتخاذ التقاليد والنظم والقواعد والمراسم والاحتفالات.. إلى التوسع في مفهوم الجنس ذاته حتى يتحول إلى فن قائم بذاته، وتنشأ من حوله فنون مختلفة، في الأدب والتصوير الموسيقي والنحت والرقص والغناء..

وحين انتقل في الملك من تملك الأشياء الفجة إلى تملك الأرض والرقيق.. إلى تملك المصانع.. إلى تملك " رأس المال " كقوة اقتصادية واجتماعية وسياسية.. إلى تملك الأمم والشعوب.. إلى تملك الكواكب في المستقبل المنظور..

وحين انتقل من البروز الجسدي الحسي إلى البروز النفسي والبروز الروحي.. وشمل البروز كل الانتقالات السابقة في المطعم والمسكن والملبس والجنس والتملك..

وحين انتقل من القتال بالقوة البدنية المباشرة إلى استخدام الحجر الثقيل إلى استخدام الهراوة القاتلة إلى استخدام الأداة المسنونة من سهم أو رمح أو سيف.. إلى استخدام البارود.. إلى استخدام الطاقة الذرية..

ما الذي حدث على وجه التحديد.. وكيف ولماذا حدث؟

يقول التفسير المادي للتاريخ إن استخدام " الأدوات " هو السبب في هذا الانتقال. فلولاه لم ينتقل الإنسان من طور إلى طور، وبالتالي لم يعدل كل حياته على أساس جديد. فلولا اكتشاف النار ما تمكن الإنسان من طهو الطعام. ولولا اختراع النسيج ما تمكن من نسج ملابسه، وبعد ذلك تفصيلها على قد الإنسان. ولولا استخدام الأدوات ما أمكن البناء.. الخ. ثم – يقول التفسير المادي للتاريخ – إن استخدام الأدوات يحدث **تغييرا حتميا** في المشاعر والأفكار والقيم والمبادئ.. فحين اكتشف الإنسان النار فكر أن يطهو الطعام، وفكر بالتالي في فنون من تحسين الطعام لم تكن لتخطر على باله لو لم يكتشف النار. وحين اخترع المغزل والمنسج فكر أن ينسج الأقمشة، وفكر بالتالي في تفصيل الملابس والتأنق فيها، ولم يكن شيء من ذلك ليخطر على باله لولا اختراع المغزل

والمنسج. وحين أمكنه استخدام الأدوات المسنونة فكر في استخدامها في الصيد والقتال.. وحين اكتشف الزراعة فكر في تملك الأرض والإغارة على أرض الآخرين وأسر الأسرى واسترقاقهم ليعملوا له في الأرض.. وهكذا نشأت نتائج اقتصادية واجتماعية وسيكلوجية وأخلاقية **حتمية** نتيجة اكتشاف الأدوات واختراع المخترعات.. وعلى هذا تصبح الأدوات والآلات هي المحرك الأول والدائم لحياة البشرية!

والقضية بصورتها هذه براقة وخادعة..

فحين يكون السبب والنتيجة متلاحقين في سلسلة متصلة، فإنه تسهل الخديعة، ويسهل الانخداع! ويسهل على من يريد، أن يوحي أو يعتقد أن النتيجة هي السبب والسبب هو النتيجة..

ولكن هذه القضية " العلمية " التي تناولها التفسير المادي للتاريخ بهذه الصورة، لها وجه آخر " علمي " لا يصعب علينا الوصول إليه لو بحثنا الأمر في هدوء بعيدا عن البريق الخاطف الذي تقدمه " العلوم " و " الدراسات العلمية " في القرن العشرين!

أولا.. لماذا اكتشف الإنسان النار؟!

ثانيا.. لماذا استخدمها – حين اكتشفها – في " تحسين " الطعام بطهوه؟!

ثالثا.. لماذا لم يقف عند الدرجة التي وصّله إليها اكتشاف النار وهي مجرد طهو الطعام، فراح يتفنن في الطعام المطهو درجات بعد درجات؟!

رابعا.. حين لان له الحديد والنحاس والبرونز والذهب والفضة، أي دافع **حتمي** دفعه أن يتخذ الملاعق والشوك والسكاكين وهي ليست داخلة في عملية الطعام ذاته كضرورة بيولوجية، ثم أي دافع **حتمي** دفعه أن يتخذ من أدوات الطعام هذه أداة للزينة، فيتفنن في صنعها، وتجميلها، ونقشها، ثم.. ما علاقة هذا كله " بالقيم " التي اتخذها حول الطعام: سواء في رسم قواعد له وتقاليد، أو في طريقة توزيعه بين الناس، أو في التمييز بين الطيب منه والخبيث على غير المستوى الحسي الذي تقرره المعدة.. أي على مستوى الحلال والحرام؟!!

وكذلك..

لماذا اخترع المغزل والمنسج؟

لما استخدمهما – حين اخترعهما – في نسج القماش ثم في " تحسينه "؟

لماذا لم يقف عند حد استخدام النسيج، فراح يتفنن في الملبس فيما وراء مستوى الضرورة؟

وأي علاقة بين هذا التحسين الذي أنتجته الأدوات، وبين " القيم " التي اتخذها الإنسان حول الملابس، سواء في رسم قواعد لها وتقاليد، أو في طريقة توزيعها بين الناس، أو في ربطها بالقيم الخلقية والدينية؟!

وحين اخترع الأداة المسنونة..

لماذا اخترعها بادئ ذي بدء؟

ولماذا استخدمها في القتال؟

ولماذا لم يقف عند الحد الذي وصّلته إليه، فراح يبحث عن وسائل جديدة للقتال حتى وصل إلى القنبلة الذرية والهيدروجينية وقنبلة الكوبلت وقنبلة الجراثيم؟

وأي علاقة بين هذه الأدوات كلها وبين " القيم " التي ربطها الإنسان بالحرب، سواء في تحليلها وتحريمها، أو وضع قواعد لها وتقاليد؟!

وحين وحين وحين..

ألا توجد من وراء ذلك دلالة.. واضحة؟!

هل الآلة هي التي وجهت الإنسان؟ أم الإنسان هو الذي وجه الآلة؟!!

لن نضع القضية هنا كما توضع تلك الأحجية المشهورة: البيضة قبل الفرخة أم الفرخة قبل البيضة؟!

فالقضية التي بين أيدينا هنا ليست أحجية، وليست في حاجة إلى التمحل والروغان!

إن الحيوان، زميل الإنسان في سكنى الأرض، وزميله – في رأي الداروينية – في كثير من الخصائص، وفي الأصل المشترك، لم يكتشف ولم يخترع على طول مقامه في هذه الأرض!

فالاكتشاف والاختراع إذن مزية بشرية **في صميم فطرة الإنسان**.. تلك بديهية.

يقول جوليان هكسلي – العالم الدارويني الحديث – في كتابه " الإنسان في العالم الحديث ":

" وأولى خصائص الإنسان الفذة وأعظمها وضوحا قدرته على التفكير التصوري.. ولقد كان لهذه الخاصية الأساسية في الإنسان نتائج كثيرة، وكان أهمها نمو التقاليد المتزايدة.. ومن أهم نتائج تزايد التقاليد – أو إذا شئت من أهم مظاهره الحقيقية – ما يقوم به الإنسان من تحسين فيما لديه من عدد وآلات.. **وإن التقاليد والعدد هي الخواص التي هيأت للإنسان مركز السيادة بين سائر الكائنات الحية. وهذه السيادة البيولوجية – في الوقت الحاضر – خاصية أخرى من خواص الإنسان الفذة**.. "[27]

وهذا العالم – كما بينا في كتب سابقة – عالم ملحد، لا ينسب إلى الله شيئاً من عملية الخلق، ولكنه يثبت للإنسان تلك المزية أو المزايا المتفردة: قدرته على التفكير التصوري.. وقدرته على استخدام العدد.. وميله وقدرته على تحسين ما لديه من عدد وآلات.. وإقامة التقاليد وتنميتها.. ويسمى ذلك كله خواص **بيولوجية** أي.. في صميم الفطرة البشرية.

إنها لم تنجم إذن من استخدام العدد والآلات.. وإنما هي التي أنتجت استخدام العدد والآلات!

لقد تبين لنا إذن – من البحث " العلمي " لا من الفلسفة النظرية – وجه الصواب في القضية الشبيهة بأحجية البيضة والفرخة! إن " الإنسان " هو الأصل. هو المنبع. وليست هي العدد والآلات!

الإنسان – بادئ ذي بدء – هو الذي اتجه إلى الاكتشاف والاختراع!

لماذا؟!

---

(27) ترجمة حسن خطاب ومراجعة عبد الحليم منتصر فصل " تفرد الإنسان " مقتطفات ص 3 – 5

يقول هكسلي الملحد: إن تلك خاصية بيولوجية للإنسان! أي أنها تحمل في ذاتها تفسيرها!

ونقول نحن – ولا يتعارض ذلك مع " العلم " وإنما يكمله ويقوّمه من انحرافه – إن الله الذي خلق الإنسان ليجعله خليفته في الأرض، هو الذي منحه هذه الخاصية، لأنها وسيلة من وسائل الخلافة وأدواتها، وإن الله هو الذي قيض للإنسان اكتشاف النار – لا المصادفة! – بأن أودع في فطرته الالتفات إلى ظواهر الطبيعة، و " تصورها " والاستفادة منها. وإلا فالمصادفة التي أحدثت النار أمام الناس، فالتقط منها الفكرة واستخدمها، تحدث ملايين المرات أمام الحيوان فلا يدركها ولا يتصورها ولا يلتقطها ليستخدمها.

وإذن فقد أُودعت الفطرة الإنسانية القدرة على التصور، ومن ثم القدرة على الاكتشاف والاختراع، ومن ثم القدرة على استخدام الآلات.. والقدرة على تحسين الآلات.. كما أودعت في الوقت ذاته ما يسميه هكسلي " بالتقاليد " ونسميه نحن "القيم" والقدرة على ربط الأعمال – بما فيها استخدام الآلات – بقيم نفسية واقتصادية واجتماعية وخلقية ودينية.

وهذا هو الذي يفسر لنا كل الأسئلة التي قدمناها منذ قليل..

لماذا اكتشف الإنسان النار؟ لماذا استخدمها – حين اكتشفها – في تحسين الطعام بطهوه؟ لماذا لم يقف عند الدرجة التي وصله إليها اكتشاف النار؟ لماذا أنشأ حول الطعام قيما مختلفة وأدابا وتقاليد؟

أما اكتشاف النار – كحادثة مادية وكأداة مادية – فلا يفسر شيئاً مما يريد أن يفسره به التفسير المادي للتاريخ!

لقد كان من الممكن – بادئ ذي بدء – ألا يكتشف الإنسان النار **لولا ما ركب في فطرته** من القدرة على التفكير التصوري. وكان من الممكن – حين اكتشفها – ألا يستخدمها في طهو الطعام [إذ ما الذي يدفعه إلى ذلك بصورة حتمية؟!] وكان من الممكن – حين استخدمها في طهو الطعام – أن يقف عند هذا الحد فلا يتفنن تفننا في الطعام. وكان من الممكن أخيراً ألا يصوغ حول الطعام قيما وآدابا وتقاليد!!

كلا! **لم تنشئ** النار شيئاً من ذلك كله! **لولا الرغبة الفطرية الكامنة**، السابقة في وجودها على النار!! القدرة الفطرية على التفكير التصوري هي التي مكنت الإنسان من

اكتشاف النار [وهي موهبة الله للإنسان]. ثم الرغبة الفطرية في التحسين والتجميل هي التي قامت ببقية المهمة في خط طويل على مدار التاريخ!

وتلك عقدة القضية.. ومفرق الطريق!

* * *

هل معنى ذلك أن الآلة لم تغير شيئاً في حياة الإنسان!؟

كلا! لا نقول ذلك! ولا يمكن أن يقوله إنسان!

إن صورة الحياة قبل اكتشاف أية أداة أو اختراع أية آلة تختلف اختلافا - جزئيا أو كاملا - عن صورتها بعد الاختراع أو الاكتشاف. إذ تستجد للناس أفكار جديدة وعلاقات جديدة ومشاعر جديدة وتنظيمات جديدة [سنتحدث في الفقرة التالية عن التطور الاجتماعي والاقتصادي].

فبعد اكتشاف النار حدث تطور هائل في الأرض. وبعد اختراع المحراث. وبعد اكتشاف البارود. وبعد اكتشاف الكهرباء...

ونحن - كما قلنا - نريد أن نبرز هذا التطور ونؤكد عليه.. لأنه - من وجهة نظرنا - حقيقة " **إنسانية** "!

إنما الأمر الذي نريد أن نناقشه هو هذا: هل الآلة أنشأت جديداً في كيان الإنسان، أم إنها **حققت** رغبات كامنة في فطرة الإنسان؟!

والفرق - لعله - واضح بين الوضعين.. وهو فارق كبير.

فحين تنشئ الآلة جديدا في كيان الإنسان، تكون الآلة حقا هي الأصل في التطور كما يرسمها التفسير المادي للتاريخ. وحين تحقق رغبات كامنة في فطرة الإنسان يكون الإنسان هو الأصل كما يرسمه التفسير " الإنساني " للإنسان [28]!

النار.. هل هي التي **أنشات الرغبة** في طهو الطعام؟

[28] انظر فصل " التفسير الإنساني للإنسان " في كتاب " دراسات في النفس الإنسانية "

في ظاهر الأمر يبدو ذلك! ولكن أية قوة حتمية في النار تدفع الإنسان إلى طهو الطعام عليها؟!

إن القصة يمكن أن تُتصور على هذا النحو: أنه وقع في تجارب الإنسان – بما يسمونه المصادفة، ونرده نحن إلى حقيقته " العلمية " وهي قدر الله ومشيئته – أن شبت النار قريبا من الفريسة أو وضع الفريسة قريباً من النار فنضجت فأعجبته رائحة الشواء واستطعم طعمه، بما في فطرته من استعداد وتقبل لهذه الرائحة وذلك الطعم. ثم راح – بما فطرته من التفكير التصوري – يستعيد العملية ليحصل على نفس النتيجة.

وفي كلا الحالين لم تكن الأداة المستحدثة – وهي النار – هي التي **أنشأت** الأمر في باطن النفس، وإنما هي **حققته.** حققته في عالم الواقع بعد أن كان كامنا في باطن النفس.

وتغيرت صورة الحياة – في ميدان الطعام – بعد اكتشاف النار. فقد هيأت الأداة المستحدثة فرصا متزايدة لألوان من الطعام جديدة، و " فنون " مستحدثة.

نعم. ولكن هل كان في وسع النار – بإمكانياتها المستحدثة – أن تصنع شيئاً من ذلك كله لولا أن نفس الإنسان قد استطابت ذلك وأنست إليه ورغبت فيه؟!

لو أن النار أعطت الطعام طعما لا يستسيغه الإنسان.. هل كان يقبل عليه؟

ومن ناحية أخرى.. لولا الرغبة الدفينة في " تحسين " الطعام، هل كان يستخدم النار في هذا السبيل؟

إن النار قد أعطت الإنسان إمكانيات جديدة حافلة.. ولكنها إمكانيات لأي شيء؟! إمكانيات لتحقيق رغبات كامنة في الفطرة، تنتظر الفرصة المواتية للتحقيق!

وقد لا تكون الفطرة واعية لتلك الرغبات في كل حالة! وهذا هو الذي يؤدي إلى الخديعة الأولى في فهم الموضوع!

قد لا يكون الإنسان الأول واعيا لكون النار ستعطيه طعوما شهية مستساغة. وقد لا يكون اكتشف هذا الأمر إلا بعد أن جربه بالفعل. ولكن.. حتى على هذا الفرض، فالمرجع الأخير هو الفطرة. إن المحاولة والخطأ طريقة من طرق التعلم والمعرفة عند الإنسان وعند الحيوان. ولكنها في الحالين تصطدم في النهاية بفطرة الحيوان أو فطرة الإنسان.. **ولا**

تتعداها. فقد استساغ الإنسان صنوفا من الطعام ولم يستسغ صنوفا أخرى والنار هي النار! أي أن ميدان استخدام النار ومدى استخدامها يسيران على خط الفطرة، ولا يغيران هما شيئاً من حقيقة الفطرة على مدى التاريخ.

وإنما جاءت الخديعة الأخرى من **اتساع الفطرة الإنسانية**.. حتى خيل لبعض الناس أنه لا حدود لها، ومن ثم فلا قيمة حقيقية لوجودها ما دامت تتسع لكل شيء!!

كلا! إن اتساعها لا يلغي حقيقتها، ولا يلغي دلالتها!

إنها تسع أشياء كثيرة ولكنها **لا تتسع لكل شيء** فلها – في النهاية – خطوطها الأخيرة التي تصطدم بالأشياء وترفضها، وتصر على رفضها مهما كان الضغط الواقع عليها، فلا تقبل أشياء ليس لديها الاستعداد الفطري لتقبلها.

وهنا الخديعة الثالثة! الناشئة من **مرونة الفطرة!** إنها – لمرونتها الشديدة – تحتمل كثيراً من الضغط الواقع عليها من شيء يخالف طبيعتها. ولكنها من ناحية **لا تحتمل كل شيء** ومن ناحية أخرى **لا تحتمله إلى الأبد!** وإنما تحتمل بعض الأشياء.. وبعض الوقت. ثم تثور فتلفظ ما لا تسيغه ولا تستريح إليه. لقد ثارت على الدكتاتوريات لأنها تكبت الوجود الفردي للإنسان. وثارت على ملكية الدولة لأنها تكبت النزعة الفطرية للملكية الفردية. وثارت – كما سيجيء – على كثير من ألوان الانحراف.

وتلك هي الحقائق التي غابت عن التفسير المادي للتاريخ. والتفسير الجمعي للحياة البشرية!

إنهما كلاهما يرصدان التاريخ من خط الخنوع والاستسلام للقوى القاهرة. ولكنهما لا يرصدانه من خط الثورة على تلك القوى وتدميرها وإزاحتها!

والحقيقة العلمية النزيهة من الغرض، ينبغي أن ترصد التاريخ من خطيه. لأن كلا خطيه حقيقة.. ترسمه من خط الخنوع وخط الانتفاض: خط السلبية وخط الإيجابية.. **وكلاهما موجود وفطري في كيان الإنسان!**

* * *

من هذه المرحلة من المناقشة نصل إلى مجموعة من الحقائق:

أن الفطرة هي الأصل في تصرفات الإنسان.

أن الأدوات والآلات المستحدثة هي في ذاتها تعبير عن الفطرة [من حيث القدرة على التفكير التصوري والرغبة في التحسين].

وأنها – وهي تعبير في الأصل عن الفطرة – تسير على هدى الفطرة في تطبيقاتها العملية [من حيث تحقيقها لرغبات الإنسان].

وأنها – في تطبيقاتها العملية – لا تنشئ جديداً في كيان الإنسان، وإنما تحقق ما كان كامنا من قبل في ذلك الكيان.

وأنها تغير صورة الحياة تغييراً شاملا.. ولكن التغير ذاته يحدث استجابة لمطالب الفطرة، ويقع في حدودها لا يتعداه.

تلك الحقائق الخمس وما تستلزمه من حقائق أخرى فرعية يمكن التحقق منها بسهولة في جميع ميادين النشاط الإنساني. ولا نحتاج أن نتتبع خطوط الفطرة جميعها لنتثبت من هذه الحقيقة، ولكنا نضرب بعض الأمثلة للتوضيح والتوكيد:

لم يكن اختراع الطائرة هو الذي أنشأ الرغبة في السفر السريع والتنقل بين جهات العالم. وإنما الأحرى أن تكون هذه الرغبة الكامنة هي التي أوحت باختراع الطائرة، حين وجدت الإمكانيات العلمية التي تهيئ الفرصة للتحقيق العملي لهذه الرغبة. فمن قبل ظل الإنسان يزيد سرعته في السفر بمختلف الوسائل **لإنه يرغب في ذلك**، وكان يحلم – حين يعجز عن التنفيذ العملي – بوسائل خاطفة تنقله في لحظة من مكان إلى مكان! فالطائرة [ومن بعدها الصاروخ] هي تحقيق الحلم البشري القديم الذي كان يخايل للبشرية وتتمنى تحقيقه..

وصحيح أن هذه الرغبة حين تحققت باختراع الطائرة قد أوجدت إمكانيات جديدة لم تخطر على البال – في صورها التفصيلية – من قبل. إمكانيات في السلم وإمكانيات أخرى في الحرب. وترتب على هذه الإمكانيات المزدوجة إعادة تشكيل علاقات البشرية في السلم وفي الحرب على نسق جديد.. وصوغ مشاعرهم وأفكارهم على نسق جديد..

هذه حقيقة تنطبق على كل اكتشاف أو اختراع جديد.. فهو يهيئ إمكانيات لم تكن منظورة من قبل بالتفصيل.

ولكن **الرغبة العامة** تسبق دائماً كل اختراع جديد.. فالمخترع لا يقول سأصنع اختراعا ما – أي اختراع – ثم أبحث عن وسيلة للاستفادة منه. وإنما هو يقول: أنا – أو نحن البشر – نريد آلة تصنع كذا. فلأحاول اختراعها!

خط البحث العلمي وحده هو الذي يبدو أنه ينشئ نفسه بنفسه. كل خطوة تؤدي إلى ما بعدها بطريقة حتمية (!) لا هدف وراءها ولا أغراض! كلا! ليس حقيقة! إنما وراءها **الرغبة الفطرية في المعرفة!** هي التي تدفع البحث العلمي وهي التي تغذوها. والإنسان لا يتدخل فيما يصل إليه البحث العلمي من قوانين لأنها لا تقع تحت سلطانه لا لأنه لا يرغب في ذلك! إنها نواميس كونية ليس من شأنه – ولا في طوقه – أن يتدخل فيها أو يغير منها. فهي ملك الخالق الذي خلقها ويسيطر عليها. ولكن الإنسان يتدخل في التطبيق العملي لنتائج البحث العلمي.. أي لنتائج كشفه عن النواميس الكونية [التي أعطاه الله القدرة على كشفها وتسخيرها: " وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ "[29]] وهو في تدخله يحاول أن يجعل التطبيق العملي في خدمة أهدافه ورغباته القائمة في نفسه من قبل، والتي تنتظر الفرصة المواتية للتطبيق.

وحين يفتح الكشف أو الاختراع الجديد آفاقا جديدة لم تخطر بتفصيلها في بال الإنسان من قبل، فإنه على الدوام يسعى لتحقيق رغبة عامة من رغبات الفطرة، كالرغبة في القوة. والرغبة في السيطرة. والرغبة في الخلود. والرغبة في استشفاف الحجب والرغبة في البروز. والرغبة في الملك.. إلى آخر هذه الرغبات. ولكنها لا تستجد فكرة ولا شعوراً لا يقع تحت واحدة من هذه الرغبات العامة الموجودة في الفطرة من قبل [والمقدورة من لدن خالقها حين خلقها ووهبها إمكانيتها]

ومن ثم " فالتطور " الذي يحدثه الاختراع أو الاكتشاف الجديد في نفس الإنسان هو **التنمية الدائمة** للرغبات الفطرية الموجودة من قبل في حالة كامنة، بإعطائها فرصة التحقق الدائم على نطاق أوسع وأشمل وأدق. وليس هو إنشاء الرغبات الفطرية من حيث لا تكون!

والتنمية شيء والإنشاء شيء آخر..

الطفل يولد مكتمل الكيان ولكن في حالة كامنة.. ثم ينمو.. فيتحقق بالتدريج كيانه، ولكن لا ينشأ فيه شيء جديد. لا تنشأ له قدم ولا ساق ولا أذن ولا عين.. فهذه

[29] سورة الجاثية [13].

موجودة من قبل، ولكنها غير مستكملة التحقق.. والنمو يحققها حتى تصل إلى آخر مداها. فالتطور هنا هو النمو.. وليس هو النشوء من اللاوجود!

وذلك ينطبق على كل كشف وكل اختراع جديد.

فالمحراث الذي قلب ظهر الأرض وقلب تاريخ البشرية، كان ولا شك رغبة كامنة في نفس مخترعه، ليحقق به رغبة أو مجموعة من الرغبات الفطرية. وإلا ما أجهد نفسه في اختراعه! واكتشاف البارود ليس هو الذي أنشأ الرغبة في التدمير ولا الرغبة في القتل على نطاق واسع. وإنما هو أعطاها الإمكانيات للتنفيذ. ولكنها كانت موجودة من قبل، ومتحققة في النطاق الصغير.. وفي الخيال كانت تداعب الأحلام!

وهكذا.. لا يحدث شيء خارج نطاق الفطرة. المحدود بحدود. أياً كانت سعة هذه الحدود!

* * *

وصلنا من بحثنا للنوع الأول من أنواع التطور - وهو تطور الأدوات وأساليب الإنتاج - إلى أنه **تحقيق** للفطرة **وليس تغييراً** للفطرة.. تحقيق لها بتنمية إمكانياتها العملية على الدوام.. وهذا يزيد مساحتها، ويعيد تشكيلها على الدوام في أشكال جديدة، ولكنه لا يضيف إليها عنصراً لم يكن موجوداً في جوهرها إما في صورة بدائية وإما في صورة كامنة.. وفرق بين التنمية والتشكيل في حدود الإطار الموجود بالفعل، وبين استحداث أمر جديد في ذلك الإطار. كما وصلنا إلى أن هذا اللون من التطور يسير على هدى الفطرة ويتتبع خطوطها، فالفطرة دائماً من ورائه تحدوه، وإن كان هو بدوره يقوي إمكانيات الفطرة.. ولكنه يقويها لأنها هي - من الأصل - راغبة في التحقق والتمكن والقوة عن هذا الطريق.. فالأمر لا يعدو الفطرة في نهاية المطاف.

والآن ننتقل إلى اللون الثاني من التطور، وهو التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في حياة الإنسان.

التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي هو الميدان الرئيسي لنشاط التفسير المادي للتاريخ! فقد جال فيه وصال ليقول إنه ينشأ عن تطور أساليب الإنتاج. وإن تطور أساليب الإنتاج هو السبب الأوحد فيه!

حين اكتشف الإنسان الزراعة تغير وجه الأرض..

فقد استقر الإنسان في الأرض ليزرع وينتظر نتيجة الزرع، بعد أن كان جوالا يبحث عن المرعى والصيد. وكان الاستقرار نتيجة **حتمية**.. وحين استقر كان لا بد من تنظيم اجتماعي، ينظم علاقات أولئك المستقرين في بقعة واحدة من الأرض بصفة دائمة.. وكان هذا التنظيم نتيجة **حتمية**.. ونشأت علاقات اقتصادية محدودة نتيجة لعملية الزراعة، فهناك محاصيل تنتج، تفيض عند بعض الناس عن حاجتهم، وتنقص عند آخرين، فلا بد من التبادل بين الفريقين.. وكان هذا نتيجة **حتمية**.. ثم حدثت المنازعات على الأراضي والإنتاج من ناحية، وإغارات الأقوام بعضهم على بعض للاستيلاء على الأرض المترعة من ناحية أخرى، فاستلزم ذلك وجود نوع من الحكومة يفض المنازعات من ناحية، ونوع من القوة المحاربة تصد الإغارات من ناحية أخرى.. وكان هذا التشكيل السياسي والحربي نتيجة **حتمية**.. ووجد الرقيق، من نتيجة الحرب، وصار عملة اقتصادية واجتماعية وسياسية صاحبت المجتمع الزراعي فترة طويلة جداً من الزمان. ووجد الإقطاع كتنظيم اقتصادي واجتماعي وسياسي.. وكان ذلك كله نتيجة **حتمية**.

ثم اخترع الإنسان الآلة.. وتغير وجه الأرض من جديد..

نشأت المصانع في المدن. واحتاجت إلى رجال أشداء يديروها. وكان هؤلاء في الريف، مستعبدين في الأرض، فكان لا بد من تحريرهم من عبودية الأرض ليديروا الآلة، فحدثت حركة تحرير الرقيق.. وكانت نتيجة حتمية. ثم تكتل العمال في مصانع المدن، وأخذ رأس المال ينمو فتنشأ طبقة استغلالية جديدة مصاحبة في مبدأ الأمر ثم مناوئة لطبقة الإقطاع.. وكان ذلك نتيجة حتمية [وتغيرت أخلاق المجتمع ومفاهيمه نتيجة انتقاله من الزراعة إلى الصناعة كما أشرنا إلى ذلك من قبل] وحدث صراع سياسي بين الطبقات المستغِلة والطبقات المستغَلة على التشريع والتوجيه، لخدمة مصالح كل طبقة.. وكان ذلك نتيجة حتمية. وما زال هذا الصراع قائماً، ويقول التفسير المادي للتاريخ إنه لا بد أن يؤدي إلى نتيجته الحتمية، ثم تختلف التفسيرات – أو المذاهب – في أمر هذه النتيجة، فيقول مذهب إنها الشيوعية، ويقول مذهب آخر إنها الاشتراكية، ويقول مذهب ثالث إنها التعاونية.. ويقول الجميع إنهم ديمقراطيين!

صورة – في هذا الوضع – منطقية، مرتبة، منظمة، مُقنعة!

ومع ذلك فعند التمعن فيها تتبدى فيها جملة ثقوب!

إنها أولا تفسر كل تطور اجتماعي واقتصادي وسياسي بتغير أساليب الإنتاج فحسب. وقد مر بنا صراحة ماركس وإنجلز في هذا الأمر أنهما يقولان في وضوح كاف: " فأسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يعين الصفة العامة للعمليات الاجتماعية والسياسية والمعنوية في الحياة. ليس شعور الناس هو الذي يعين وجودهم، بل إن وجودهم هو الذي يعين مشاعرهم. " [ماركس]. " إن الإنتاج وما يصاحبه من تبادل المنتجات هو الأساس الذي يقوم عليه كل نظام اجتماعي. فحسب هذه النظرية نجد أن الأسباب النهائية لكافة التغييرات والتحولات الأساسية يجب البحث عنها لا في عقول الناس أو في سعيهم وراء الحق والعدل الأزليين، وإنما في التغييرات التي تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل " [إنجلز].

وعلى ذلك لا توجد في نظرهما أية أسباب أخرى غير تطور أساليب الإنتاج.

إنهما – مثلا – لا يقيمان وزناً لعملية النمو الطبيعية في بنية النفس والمجتمع! النمو الذي يعتبر تطور أساليب الإنتاج مظهراً واحداً من مظاهره.. فالنفس كما تنمو بتحقيق إمكانياتها العملية عن طريق العدد والآلات، وتحسينها، كما يقول جوليان هكسلي، تنمو كذلك بتحقيق إمكانياتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. الكامنة في فطرتها.

يقول هكسلي في كتاب " الإنسان في العالم الحديث ":

" وهذه الخواص التي امتاز بها الإنسان، والتي يمكن تسميتها نفسية أكثر منها بيولوجية، تنشأ من خاصية أو أكثر من الخواص الثلاث الآتية:

الأولى: قدرته على التفكير الخاص والعام.

الثانية: التوحيد النسبي لعملياته العقلية بعكس انقسام العقل والسلوك عند الحيوان.

الثالثة: **وجود الوحدات الاجتماعية مثل القبيلة والأمة والحزب والكنيسة وتمسك كل منها بتقاليدها وثقافتها** " [30]

إن وجود التنظيمات الاجتماعية والسياسية والدينية والخلقية والاقتصادية هو إذن خاصية من الخواص النفسية للإنسان! إنها في صميم فطرته، لم تنشئها أساليب الإنتاج كما

[30] الإنسان في العالم الحديث ص 32 من الترجمة العربية.

يبدو لأول وهلة على هدى التفسير المادي للتاريخ. وإنما تطور أساليب الإنتاج يمكن أن يعطيها صورة معينة. وفرق – كما بينا مرارا من قبل – بين الإنشاء والتشكيل. فرق واضح وكبير. فحين تكون النفس هي الأصل، ففي وسعها – نظريا على الأقل! – أن تتشكل بأكثر من صورة. أما حين تكون أساليب الإنتاج هي الأصل فهي إذن تعطي صورة حتمية لا فكاك منها! وسنرى بعد قليل أن هذه الفرصة النظرية كانت حقيقة، وحقيقة ضخمة في حياة البشرية يعجز عن تفسيرها كل تفسير مادي للتاريخ! ولكنا لا نريد أن نسبق الحديث!

إن التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية.. الخ خاصية نفسية للإنسان. ومن ثم فهي تخضع لفطرة الإنسان **في النمو**. والنمو خاصية نفسية بيولوجية لا تحتاج إلى تفسير من خارجها! [إلا القول بأنها موهبة من الخالق]. وحقيقة إن النمو يحتاج إلى غذاء. ولكن ليس حقيقة أن الغذاء هو الذي **ينشئ** خاصية النمو! إنما الغذاء يتيح فقط الإمكانيات العملية لهذه الخاصية الكامنة في الفطرة.

ومن ثم فإن نمو التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية وتعقدها خاصية فطرية في الإنسان. وهي **تتواكب** مع نمو أساليب الإنتاج لا كسبب ونتيجة، ولكن كقوتين متواكبتين تستمدان من أصل واحد هو الفطرة. **ولا يمنع ذلك من وجود علاقة السبب والنتيجة بين الجزئيات**. أما الاتجاه العام في مجموعه فلا يمكن اعتبار أساليب الإنتاج فيه سببا للتطور الاجتماعي والاقتصادي أكثر من اعتبار التطور الاجتماعي والاقتصادي سببا في تطور أساليب الإنتاج! والأولى أن نتصورهما – على حقيقتهما – قوتين متواكبتين تستمدان من الأصل المشترك في الفطرة البشرية!

وإلا.. فكيف نغفل أن الضرورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية قد أدت إلى استحداث أساليب متطورة للإنتاج تناسب الوضع القائم، بنفس الصورة التي تؤدي بها تطورات الإنتاج إلى استحداث تنظيمات اجتماعية واقتصادية؟!

وكيف نغفل قبل ذلك أن " الحاجات البشرية الفطرية " هي الدافع وراء هذا التطور وذاك في نفس الوقت؟!

إن الرغبة – الفطرية – في الاجتماع بالآخرين هي التي أنشأت " المجتمع " بادئ ذي بدء – في أية صورة من صوره – لتلبية تلك الرغبة العميقة في نفس الفرد.

وحين نشأ المجتمع – في أية صورة من صوره – تعددت حاجاته ونمت، **بحكم الفطرة التي أنشأته من قبل**، بما أودعها خالقها من طاقات واستعدادات واتجاهات. " وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا " فنمو " الإنسان " إلى شعوب وقبائل هو العمل **الحتمي** الناشئ من إرادة الله، والمنفذ عن طريق الفطرة التي خلقها الله وأودعها هذا الميل والقدرة على تحقيقه. وليس ناشئا من تطور أساليب الإنتاج، ولا أي ضرورة أخرى " خارج " النفس البشرية.

وخاصية النمو، التي تنمي الطفل حتى يبلغ أشده، وهي خاصية بيولوجية، أي في صميم الفطرة، هي ذاتها التي تنمي المجتمعات الصغيرة إلى مجتمعات كبيرة. فتنمي العشيرة إى قبيلة، والقبيلة إلى أمة.. وهكذا. وتنمي العلاقات بين الناس من علاقات بدائية صغيرة مباشرة إلى علاقات معقدة كبيرة غير مباشرة.. وفي أثناء ذلك تجيء أساليب الإنتاج المتطورة فتحتل مكانها من الصورة، و " تلبس " في حيزها، قوة متفاعلة مع السياق كله، آخذة ومعطية في ذات الوقت، ومتجهة في اتجاه الفطرة الكبير.. في اتجاه النماء. ويتبادل تطور الإنتاج وتطور المجتمع علاقة السببية من طرفيها، فتارة يكون تطور الإنتاج هو السبب في تطور المجتمع، وتارة يكون تطور المجتمع هو السبب في تطور الإنتاج.. وفي النهاية يكون المصدر هو الفطرة المتصفة بخاصية النماء!

اختراع الآلة هو السبب في وجود المجتمع الصناعي. ولكن رغبة البشرية في " القوة " من ناحية، ورغبتهم في زيادة الإنتاج لتيسير كل حاجات المجتمع من ناحية أخرى هي السبب في اختراع الآلة! ووراء هذا وذلك الفطرة البشرية المشتملة على القدرة على استخدام العدد والآلات، والرغبة في تحسين العدد والآلات!

ثم هناك نظم اجتماعية مثل الزواج والأسرة لم تنشأ من تطور أساليب الإنتاج. **فهي نمو اجتماعي بحت.** وجد في مجتمع الصيد في ظلمات التاريخ، ووجد في المجتمع الرعوي، والمجتمع الزراعي والمجتمع الصناعي. وعلى الرغم من الانهيار " الإنساني " الذريع الذي يعانيه الناس في القرن العشرين، فيدمر فطرهم تدميرا [سنتحدث عن هذا فيما بعد] فما زال الزواج والأسرة نظامين " طبيعيين " تحدث النظم الأخرى [الإباحية والتحلل] إلى جانبها كشذوذ يصيب البشرية بالدمار لا " كتطور " يهدف إليه العقلاء، أو يرتاح إليه العقلاء! وإن الدعوى المزيفة التي أقامها دركايم، حين زعم أن الزواج والأسرة ليسا من الفطرة، لهي زعم لم يقم صاحبه عليه أي دليل [وسنعود إلى ذلك في الفصل القادم بالتفصيل]

إن تطور أساليب الإنتاج إذن ليس هو السبب الوحيد للنمو الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، كما زعم ماركس وإنجلز وغيرهما من هواة التفسير المادي للتاريخ. وإنما هو واحد من أسباب!

وحقيقة إن تطور أساليب الإنتاج يحدث تغيرات في صورة الحياة البشرية. **ولكنها ليست حتمية.** وأوضح الأمثلة على ذلك وأقربها أن أساليب الإنتاج في القرن العشرين واحدة في الأمم الكبرى. ومع ذلك فهي في الغرب تصاحب الرأسمالية وفي الشرق تصاحب الشيوعية! على بعد ما بين هذه وتلك في شكل الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية!

بل الأدهى من ذلك أن روسيا – الشيوعية – قد أخذت أساليب الإنتاج المادي عن أوربا الرأسمالية! فقد كانت خارجة من الإقطاع والظلام والجهالة في ظل القيصرية، بغير تجربة في عالم الصناعة، وبغير أدوات صناعية ذات بال، فلما أنشأت نظامها على مذهبها الفكري الخاص، وقررت إحداث حركة صناعية ضخمة، استخدمت أساليب الإنتاج المتقدمة الموجودة لدى أوربا الرأسمالية، ولكنها أعطتها أهدافها هي، وقيمها ومبادئها! فحيث تستخدم هذه الأساليب في الغرب لتوكيد فردية الإنسان، استخدمتها روسيا لإلغاء فردية الإنسان وتوكيد صفته الجماعية! فألغت الملكية الفردية، والأحزاب السياسية المتعددة، و " ديمقراطية " الحكومة، وأعلنت " دكتاتورية " البروليتاريا!

بل الأشد سخرية من ذلك أن ماركس – وهو يتصور على هواه خطوات التاريخ الحتمية، المبنية على حتمية مراحل النمو الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، المترتبة بدورها على تطور أساليب الإنتاج – قد افترض أن الشيوعية ستبدأ في غرب أوربا، وفي إنجلترا بصفة خاصة، كنتيجة حتمية للتقدم الصناعي والصراع الطبقي بين العمال ورأس المال! فكانت النتيجة الحقيقية [غير الحتمية]! أن قفزت روسيا من الإقطاع إلى الشيوعية مباشرة، متخطية خطوة الرأسمالية [الحتمية!!] وبقيت إنجلترا رأسمالية إلى هذه اللحظة!

ومن ناحية أخرى فإن التغير في صورة الحياة البشرية – في الميدان الاقتصادي والاجتماعي والسياسي – قد لا يقوم على تطور أساليب الإنتاج على الإطلاق!

ومثال ذلك هو الإسلام!

" أية قوة مادية.. أية تغيرات في أساليب الإنتاج.. في الجزيرة العربية أو في العالم أجمع.. هي التي أدت - بصورة حتمية - إلى ظهور محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم - يدعو إلى هذا الإسلام ويبشر بالدين الجديد؟

يقولون إن العرب في الجزيرة كانوا قد استنفدوا طور " القبيلة " وأخذوا يتطلعون لأن يكونوا أمة.. فكان ظهور محمد صلى الله عليه وسلم أمراً طبيعياً متمشيا مع طبيعة الأحداث، ومستجيبا لحتمية التطور.

ومع ما في هذا القول من التجوز، فسنسلم به توفيرا للجدال!

من قبيلة إلى أمة.. معقول!

ولكن هل كان الإسلام دين " الأمة العربية "!؟

كيف وهو يقول - في مكة - قبل الذهاب إلى المدينة، وقبل تأسيس الدولة، وقبل اجتماع الأنصار، وقبل تجميع القوى المادية والقدرة التنفيذية.. قبل أن يؤمن به أحد إلا بضعة نفر مشردين في الشعاب، ومطاردين من الأهل والخلان، هائمين بغير مستقر ولا حماية ولا أمل في الغد القريب فضلا عن الغد البعيد.. كيف وهو يقول في هذه الظروف عن القرآن الكريم: " وما هو إلا ذكر للعالمين " في سورة " القلم " من أوائل ما نزل من القرآن الكريم. وفي سورة سبأ المكية ما هو أصرح في هذا المعنى. ذلك قوله تعالى: " وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ". وكذلك آية الأعراف المكية: " قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً "؟

ثم هل كان الإسلام دين " الأمة العربية " ونبي الإسلام يقول: " الناس سواسية كأسنان المشط. لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى "؟

أهي دعوة لتكوين أمة، أم دعوة إلى " الإنسانية " عامة من أول خطوة في الطريق؟

فهل كذلك الحتمية التاريخية يا هواة التفسير المادي للتاريخ؟ من القبيلة إلى الإنسانية قفوة في سنوات؟!

وتتكون الأمم من القبائل.. فهل مجرد هذه الخطوة يعدل النظم الفكرية والعقيدية والاجتماعية والاقتصادية.. دون تغير مادي، ولا تحول في أساليب الإنتاج؟

منطلق البيئة لم يكن هو المنطق الذي أتى به الإسلام.. بل لقد قام الصراع طويلا – جداً – بين منطق البيئة ومنطق الإسلام، حتى تغلبت العقيدة الجديدة بما فيها من قوة ومن عناصر خير غلابة، فقهرت منطق البيئة وأجلته من النفوس.

كان منطق البيئة يحتقر المرأة ويضعها في مكانة تشبه مكانة السائمة والحيوان.. توأد أحياناً وهي وليدة. وتستقبل بالابتئاس والغيظ. وتذل وهي فتاة. " وتمتلك " وهي زوجة كما تمتلك الأشياء. ولم تكن المرأة ذاتها تسخط على هذا الوضع، ولا كان هناك من يطلب لها وضعا غيره من الرجال. لا في الجزيرة العربية، ولا في أي مكان في الأرض.

وجاء الإسلام يقول: " فمن عمل صالحا من ذكر أو أنثى – وهو مؤمن – فلنحيينه حياة طيبة " " فاستجاب لهم ربهم: أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى، بعضكم من بعض ".

وجاء يقول: " عاشروهن بالمعروف " ويجعل لهذا المعروف قواعد وتشريعات وتوجيهات.

وجاء يعطيها – إلى جانب المساواة في الإنسانية، والمساواة عند الله – حق الملك والتصرف: " للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون " " للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن " وهو حق لم تعطه فرنسا لنسائها إلا في القرن العشرين.

وكان منطق البيئة هو منطق الغلبة لصاحب القوة لا لصاحب الحق، ولم يكن تحول العرب إلى أمة بطريقة – حتمية – ليغير هذا المنطق، فكم من أمة يسود فيها هذا المنطق إلى هذه اللحظة في القرن العشرين!

فجاء الإسلام يعطي كل ذي حق حقه، بإنسانيته المجردة، لا بكونه صاحب قوة أو نفوذ أو سلطان، حتى ولو لم يكن مسلما، ما دام يعيش في المجتمع الإسلامي. وقد نزلت تسع آيات في سورة النساء لتبرئ يهوديا اتهم ظلما، وتآمر على اتهامه رجال من المدينة أقوياء بعصبيتهم ولا ولي له ولا نصير [سورة النساء (105 – 113) ومما جاء فيها: " ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا " إشارة إلى ذلك اليهودي البريء!].

وكان منطق البيئة هو توقير زعيم القبيلة – أو الملك حين تتكون الأمة – توقيرا يجعل منه إلها لا يسأل عما يفعل. وكان هذا هو منطق العالم كله مع حكامه في ذلك

الحين، فإذا الإسلام يجعل في هذه الأمة من الوعي السياسي البالغ القمة ما يجعل فردا من عامة المسلمين يقول لأشد الخلفاء مهابة في تاريخ الإسلام - عمر بن الخطاب - " والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف "! ثم يجعل عمر لا يغضب لنفسه من هذه القولة الجريئة. بل يحمد الله!

وكان منطق البيئة يجعل الكرم العربي الشهير مقتصرا على الحفاوة التي يسير بذكرها الركبان، وتصلح للمفاخرة بين القبائل، أما العطف على الفقير المسكين، والعطف الذي ينبع من منبع إنساني بحت، ولا يهدف إلى شهرة ولا فخر ولا تظاهر، فقد كان أمرا نادراً في تلك البيئة قليل الحدوث! فجاء الإسلام يلح إلحاحا شديدا جدا في إعطاء المسكين " حقه " في مال الله، وإكرامه، والعطف عليه، ومواساته، حتى ليجعل ذلك أمرا للرسول ذاته صلى الله عليه وسلم، وما كان في حاجة قط إلى هذا الأمر: " فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر " وإنما كان توجيه الأمر إليه صلى الله عليه وسلم للإشعار بأهميته وبأنـــه واجب القضاء.

وكان منطق البيئة - ومنطق العالم كله يومئذ - يجعل السادة سادة والعبد في منزلة تقرب من منزلة الحيوان، يهان ويعذب ويقتل بلا حساب.

وجاء الإسلام يزوج بنت عمة رسول الله - القرشية - من زيد.. من أحد الموالي، وجاء يجعل هذه المولى قائداً لجيش من جنوده أبو بكر وعمر وزيرا الرسول وخليفتاه!

ويقول الرسول الكريم: " من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه ".. ولم يكن ذلك لأن أحدا طالب لهم بهذه الكرامة.. ولم يكن كذلك لأن الوضع الاقتصادي أو علاقات الإنتاج أو أدوات الإنتاج تغيرت أدنى تغيير!

وكان منطق البيئة يؤمن بالملكية الفردية المطلقة من كل قيد، الخاضعة لغير قانون.

وجاء الإسلام ينظم هذه الملكية بنظام لم يثب العالم إلى شيء منه إلا في هذا العصر، بعد أن اكتوى بجحيم الإقطاع والرأسمالية وتجرع منهما الحميم؛ جاء يقول إن المال مال الله والجماعة وكيلة عنه. والفرد موظف فيه، يستحقه بأداء حقه والقيام عليه. فإن سفه أو لم يؤد حقه عاد إلى الجماعة صاحبة الحق الأول فيه، ثم ينص على طريقة توزيعه " كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ".

وكان منطق البيئة وكان.. وكان.. فجاء الإسلام يلغي ذلك المنطق ويستبدل به منطقا آخر بعيداً كل البعد، غريبا كل الغرابة على تلك البيئة وعلى كل البيئات يوم كان، ولا يجعل كلامه مبادئ " مثالية " معلقة في الفضاء، بل واقعا محسوسا يتمثل في بشر يدبون على الأرض وقلبهم متجه إلى السماء!

فكيف حدث ذلك؟

أية حتمية تاريخية وأي تفسير مادي يمكن أن يفسر هذه العجيبة في تاريخ الإنسان؟!

شيء واحد يمكن أن يفسر.

إن الإنسان حين يؤمن بالله إيمانا صحيحا وتعمر قلبه عقيدة سليمة يصنع هذه المعجزات! " [31].

*   *   *

ذلك مثال يلغي – في ضربة قاضية – كل التفسير المادي للتاريخ!

وهو مثال من عالم الواقع لا من عالم النظريات.. مثال من وقائع " التاريخ "!

وإن تفسيره لهو التفسير الوحيد الذي يأباه التفسير المادي للتاريخ، ويشتط في إبائه! تفسيره أن هناك " علاقة " بين الإنسان والله! وأن قدر الله هو الذي يشكل واقع الأرض ويقرره! قدر الله الذي وجه الإنسان الأول إلى اكتشاف النار واختراع الآلات.. وجهه إلى تكوين القبائل والشعوب للتعارف.. بغير سبب إلا إرادة الله للإنسان أن يصنع ذلك.. هو ذاته الذي وجهه إلى الإسلام، وإلى بناء مجتمع مثالي على هدى الإسلام، بغير سبب إلا إرادة الله للإنسان أن يصنع ذلك! لا بتطور أساليب الإنتاج ولا بالنمو " الطبيعي " للمجتمع! وإن كان قد اعتمد في هداية الإنسانية للإسلام، وهدايته إلى إقامة هذا المجتمع المثالي، على المكونات البشرية **الفطرية** التي أودعها الخالق فطرة الإنسان [32].

---

[31] من كتاب " معركة التقاليد " الطبعة الثانية ص 104 - 109.

[32] انظر فصل " رصيد الفطرة " في كتاب " هذا الدين " وفصل " الدين والفطرة " في كتاب الدراسات.

وكل تفسير للتاريخ يغفل الله، وقدر الله، وتدخله المباشر في حياة البشرية، ويفسر حياة الإنسان كحدث قائم بذاته، أو قائم لأسباب " مادية " محيطة بوجوده، هو تفسير خاطئ لا يفسر حقائق الوجود!

إن الحماقة التي أدلى بها دارون وهو يقول: " إن تفسير شئون الحياة بوجود خالق له إرادة في الخلق، يكون بمثابة إدخال عنصر خارق للطبيعة في وضع ميكانيكي بحت ".. إنها.. حماقة!

ومن شاء فليفسر وقائع التاريخ ووقائع الحياة ووقائع الكون بدون إدخال هذا العنصر " الخارق للطبيعة "! إن تفسيره لن يذهب به أبعد من خطوات.. ثم يتعثر في الطريق!

وإدخال هذا العنصر الخارق للطبيعة لن يلغي - كما يفهم " العلم " الغربي في حماقة - قوانين العلم وقوانين الطبيعة وقوانين المادة وقوانين الاجتماع وقوانين الاقتصاد. كلا! وإنما يكملها ويصححها ويقوّمها.. ويعطيها دلالتها الحقيقية في سياق الأحداث!

*　　*　　*

ثم إن التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي - كالتطور العلمي - لا يخرج بالإنسان عن فطرته، لأن الناس محكومون بفطرهم في نهاية المطاف!

كل اختراع جديد يهز الناس وقت ظهوره هزاً، ويطلق أفكارهم ومشاعرهم فيتخيلون عالما جديدا مختلفاً كل الاختلاف، عالما لا تحكمه مشاعر الماضي ولا تصوراته.. عالما كأنما يحكمه جانب جديد من النفس لم يكن له وجود من قبل!

ثم.. تبرد حرارة الاختراع.. ويتعود الناس وجوده.. ويعودون رويداً رويداً إلى فطرهم.. وإلى مشاغلهم العادية، وآمالهم ومخاوفهم! يعودون إلى البحث عن الطعام والشراب والملبس والمسكن والجنس.. يعودون إلى حب الملك، وحب الصراع وحب البروز.. يعودون إلى الخوف من الموت والبحث عن الخلود!

وكذلك التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. تهز الناس في جلتها.. وتشكل أفكارهم ومشاعرهم في شكل جديد. ولكنها لا تخرجهم من فطرهم!

ففي العشيرة والقبيلة والأمة والمجتمع الإنساني.

وفي المجتمع الرعوي والمجتمع الزراعي والمجتمع الصناعي..

في حكومة " الأب " وحكومة الإمبراطور المقدس والحكومة الديمقراطية وحكومة الطبقة الواحدة والحزب الواحد..

في كل ذلك لا يخرج الإنسان عن الفطرة في نطاقها الواسع..

إنها الفطرة في نزعتها الفردية والجماعية. في نزعتها للالتزام والتحرر. في نزعتها للسلبية والإيجابية. في حب الملك. وحب البروز وحب الصراع.. تأخذ أوضاعا شتى!

ومرونة الفطرة وسعتها ليستا دليلا على عدم وجودها كما خيل لدركايم وللتفسير المادي للتاريخ!

والدليل على وجودها هو ثورتها على ما لا يلائم طبيعتها. ثورة طبيعية لا تُتلمس لها الأسباب!

إن التفسير المادي للتاريخ يتمحل الأسباب لثورة الرقيق في أوربا في نهاية العصور الوسطى، فيقول إنها كامنة في نشوء المجتمع الصناعي وحاجة المصانع إلى العمال، وضرورة تحرير رقيق الأرض للعمل في المصانع!

كذلك..؟!

وليس الفطرة البشرية التي تأبى العبودية في النهاية وإن خضعت لها عشرات أو مئات من السنين؟!

فما تفسير ثورة العبيدة الشهيرة في العصر الروماني بقيادة " سبارتاكوس "، قبل نشوء المجتمع الصناعي، وقبل حدوث أي تطور في أساليب الإنتاج يدعو لتحرير العبيد؟ تلك الثورة التي هزت الإمبراطورية كلها من قواعدها؟

وليس معنى ذلك أن نلغي الأسباب المباشرة التي أدت لتحرير رقيق الأرض عند نشأة المجتمع الصناعي! كلا. وإنما معناه فقط أن نردها إلى الفطرة التي تترقب الفرصة المناسبة لتحقيق وجودها. ومعناه أن نفسر بهذه الظروف نجاح الثورة الثانية بينما هزمت

الأولى شر هزيمة في عصر الإمبراطورية الرومانية. ولكن الهزيمة والنصر شيء آخر غير دلالة الفطرة واتجاهها.. وهو واحد في الحالين!

والتفسير المادي للتاريخ يتمحل الأسباب للاستعمار فيقول إنها كامنة في بحث رأس المال عن الأرباح والأسواق لتصريف فائض الإنتاج بعد الوصول إلى الإنتاج الكبير..!

كذلك..؟!

وليس في انحرافة من انحرافات الفطرة تنزع إلى الغلبة والسلطان وإخضاع الآخرين واستذلالهم؟!

فما تفسير الاستعمار الروماني الشهير الذي استعبد أمما وشعوبا بأسرها، وامتص دماءها، وأكل خيراتها، وتركها في أسوأ حال من الفقر والمرض والجهل، ليستمتع هو وحده باللذائذ الحرام، والبذخ الفاخر، والتلذذ بحمامات الدماء؟!

وليس معنى هذا أن نلغي الأسباب المباشرة التي أدت إلى الاستعمار الحديث! وإنما معناه فقط أن نردها إلى مكانها من الفطرة في انحرافها، حيث يستوي - من حيث الدافع - الاستعمار الأول والاستعمار الأخير!

ثم.. لقد شاء المذهب الشيوعي أن يحول الفطرة عن طريقها في مسألة الملكية الفردية، واستخدم لذلك الضغط والإرهاب والحديد والنار والتجسس، وكل وسائل الحكم البوليسي الشنيع، التي اعترف بها خروشوف في " اعترافاته " عن عهد ستالين [بعد وفاته بطبيعة الحال!] فماذا كانت النتيجة في النهاية؟! كان ذلك التراجع المستمر من قِبل الحكم البوليسي، خطوة خطوة نحو الفطرة البشرية. من إباحة التفاوت في الأجور بين عمال الطبقة الواحدة والعمل الواحد، وإباحة الملكية الفردية - في المواد الاستهلاكية! - إلى اعتراف خروشوف بأن العمل في المزارع الجماعية لا يسير كما كان مقدراً له، ولا يعطي الغلة التي تعطيها المزارع الفردية.. إلى..؟!

كلا! إنها الفطرة في النهاية - **باعتدالاتها وانحرافاتها** - تحدد حدود التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، في أثناء نموه **الفطري**.. فتتركه - لسعتها ومرونتها - يتشكل في أشكال شتى.. ولكن في حدود الفطرة في نهاية المطاف!

وخلاصة البحث في التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي هو هذه المجموعة من الحقائق:

أنه قد يرتبط بالتطور في أساليب الإنتاج. ولكنه لا يكون ارتباط النتيجة بالسبب، وإنما **ارتباط المواكبة والمصاحبة**، مع تبادل علاقة السببية من طرفيها. فيؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به.

وأنه ينشأ من خاصية النمو الفطرية في كيان الإنسان [ما لم يقف في طريق النمو عائق غير طبيعي].

وأنه – مع ذلك – ليس تطوراً حتمياً من حيث الصورة التي يأخذها.

وأنه – سواء كان ناشئا من تدخل قدر الله المباشر كما في الديانات السماوية كلها، والإسلام على رأسها، أو تدخله غير المباشر عن طريق ما أودعه الله في الفطرة من طاقات – فهو في النهاية قائم على الفطرة البشرية، ومرده إليها.

وأنه أخيراً لا يخرج عن حدود الفطرة مهما تطور وتغير. فهو تغيرٌ في الصورة لا تغير في جوهر الكيان.

*   *   *

كنا إلى هذه اللحظة نبحث في التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. وقد رددناهما في وضوح جازم إلى الفطرة البشرية وطاقاتها واستعداداتها، ووكدنا حقيقة ثبات الفطرة رغم هذه التطورات. ونريد – قبل أن ننتقل إلى بحث اللونين الأخيرين من التطور: التطور النفسي والتطور الأخلاقي – أن نبين حقيقة هامة قد لا تتضح على حقيقتها في ظل ذلك التوكيد.

إننا لا نلغي على الإطلاق **قيمة** التطور العلمي أو التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي. ولا نقول إنه لا يغير شيئاً في واقع الحياة!

ذلك كلام لا يقوله العقلاء!

كمن يقول إن الطفل الرضيع كالرجل البالغ في جميع الأوضاع!

وما قصدنا غلى شيء من ذلك. بل نحن – كما أسلفنا – نميل إلى إبراز هذا التطور وذاك إبرازاً واضحا ملموسا، ونؤكد حقيقته!

ولكننا فقط نرده إلى الفطرة.. ونرد الفطرة إلى مشيئة الله وقدره.

إننا نريد أن نقول إن " صورة " الحياة كلها تتغير بعد كل اكتشاف أو اختراع جديد، وبعد كل تحول من التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وتجدّ للناس مشاعر وأفكار وتصورات لم تكن من قبل، كما تقوم علاقات الناس فيما بينهم على هذه المشاعر الجديدة والأفكار والتطورات.

ولكن تغير " صورة " الحياة لا يغير " فطرة " الإنسان. هذه هي المسألة التي نكررها ونؤكدها. إنها أشكال متغيرة من فطرة ثابتة. وكلا التغير والثبات له حقيقته وله دلالته، بلا تعارض ولا تضارب. لأن " الحق " لا يتعارض ولا يتضارب إلا في الأفهام الجزئية التي لا تدرك ما بين بعضه وبعض من ارتباط.

إن النمو الدائم في جسم الطفل ونفسه وعقله حقيقة.. لها وزنها ودلالتها.

ومع ذلك ففي الطفل ما في الرجل البالغ من خطوط فطرية أصيلة ونزعات فطرية.. بلا افتراق في الجوهر وإن تعددت الصور والأشكال.

الطفل يخاف والرجل البالغ يخاف. الطفل يرجو والرجل البالغ يرجو. الطفل يبحث عن الطعام والرجل البالغ يبحث عن الطعام. الطفل يصارع والرجل البالغ يصارع. الطفل يفكر والرجل البالغ يفكر.. الطفل " يكدح " والرجل البالغ يكدح..

كل خطوط الفطرة الأصيلة ودوافعها موجودة في نفس الطفل، في صورة بدائية أو كامنة.. ثم تنمو.. حتى تصل إلى النضوج والاكتمال..

وكذلك حياة البشرية.. كامنة بأكملها في فطرتها.. ثم تتشكل في مراحل النمو المختلفة، فتتحقق طورا بعد طور في صورة إثر أخرى.. وكل الصور تحقيق لذات هذا الكيان!

* * *

وإذا فرغنا من الحديث عن تطور أساليب الإنتاج – أو التطور العلمي بصفة عامة – والتطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وما بينهما من ترابط، ومدى ذلك الترابط، ومدى ما بينهما من استقلال نسبي، نتحدث الآن عن التطور النفسي ثم التطور الأخلاقي.. وقد كان من الممكن أن نتحدث عنهما معاً في آن واحد، لأن بينهما نوعا من الترابط غير قليل. ولكنه كالترابط بين النوعين الأولين من التطور، ليس ترابطا كاملا، فكل منهما متخصص في جانب، كما سيتبين لنا من الحديث.

التطور النفسي [السيكلوجي] نقصد به مدى النمو والنضوج في النفس من حيث هي مشاعر واتجاهات وأفكار وتصورات وقيم وارتباطات وجدانية.. على أوسع نطاق. والتطور الأخلاقي نقصد به تطور القيم الخلقية في ميدانها المتخصص، من حيث الحكم على أعمال الإنسان بأنها خطأ أو صواب، حلال أو حرام، مرتفعة أو هابطة.. ومن حيث مدى مراعاة الإنسان لهذه الأحكام.

وواضح لأول وهلة أن هناك نوعا من الترابط بين النضوج النفسي [السيكلوجي] والنضوج الخلقي. ولكن هناك إلى جانبه نوعا من التخصص يجعل هذا غير ذاك. فقد تكون النفس ناضجة من حيث " قوة " المشاعر وعمقها واتساع نطاقها.. ثم تكون في ذات الوقت منحرفة من الناحية الخلقية.. وعلى العكس قد تكون مستقيمة من الناحية الخلقية ولكنها من الناحية النفسية بدائية ضامرة غير مكتملة النضوج. لذلك أفردنا الحديث عن كل منهما، مع بيان مدى الترابط ومدى الاستقلال.

* * *

التطور النفسي يتجه – فطريا – إلى النضوج والتكامل في كل جوانب النفس. وهو حركة فطرية تحدث في النفس كما يحدث النمو في الجسم، فلا تحتاج إلى تفسير من خارجها، إلا التفسير الذي يشمل الإنسان كله، والكون على اتساعه، وهو أنه يسير بمقتضى ما فطره عليه خالقه، وما أودعه من سنن وطاقات واستعدادات، وبمقتضى قدر الله الذي ينشئ كل نمو وكل حركة وكل تكيف في هذه الطاقات والاستعدادات.

والتفسير المادي للتاريخ يجعل التقدم المادي – أي التقدم في أساليب الإنتاج – هو محور التطور النفسي كذلك. ويستند إلى ظاهرة خداعة، هي أن التقدم العلمي، وما ينشأ عنه – في نظره – من تقدم وتطور في بنية المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية،

ينمي النفس بطريقة آلية، لأن النفس هي انعكاس الوسط المادي. فإذا " ارتقى " الوسط المادي كان من جراء ذلك ارتقاء النفس.

وتلك – كما نقول – ظاهرة خداعة!

حقا إن التقدم العلمي يساعد على **لون** من النضوج.

فالطفل الذي يولد في القرن العشرين، في النصف الثاني منه خاصة، وحوله السينما والإذاعة والتليفزيون، والطائرة والصاروخ، والآلات الدقيقة التركيب، وحوله التشابكات الاجتماعية المعقدة، والتشابكات السياسية الدولية والمحلية، المتقلبة من لحظة إلى لحظة.. ساعة تجنح إلى السلام وساعة تجنح إلى الحرب.. هذا الطفل أنضج ولا شك في " معلوماته " وفي بعض مشاعره وتصوراته وأفكاره من رجل بالغ كان يعيش في القرن العاشر مثلا أو الثاني عشر..

ولكنا نكون مخطئين إلى حد مضحك إذا تصورنا أن هذا الطفل أنضج **في مجموع نفسه** من ذلك الرجل! فهو طفل مهما يكن من نمو مدركاته.. يتناول الحياة بنفسية الطفل ومطالب الطفل وتصورات الطفل.. وذلك الرجل رجل بالغ مجرب، ناضج في مجموع نفسه بمقدار ما تتيح له بنيته الخاصة من النضوج.

الدلالة التي نستحرجها من المثال واضحة.. إن التقدم العلمي ينضج حقا بعض جوانب النفس. ولكنه – بمفرده – لا يصلح للحكم على مدى النضوج واتجاهه، لأن الجانب الذي ينضجه ليس من السعة والشمول بحيث يعطي النفس طابعها المميز الأخير!

وقد وقع القرن العشرون في هذه الأضلولة حين بهره التقدم العلمي!

لقد ظن أنه خير القرون طراً في كل شيء، لأنه أشد القرون تقدما في العلم، وأشدها – حتى الآن – سيطرة على قوى الكون..

وأعماه هذا الظن عن أن يدرك عيوبه.. النفسية والخلقية على حد سواء!

إن هذا القرن الذي تقدم في العلوم كل هذا التقدم، ففجر الذرة وأطلق الصاروخ وغزا الكواكب.. يعيش بنفسية الطفل في بعض جوانب الحياة، وبنفسية المراهق في بعضها الأخر. وفي بعضها الثالث بنفسية الحيوان، من غير ضوابط الحيوان.

وهذا العلم كله – بمفرده، أي بدون توجيه نفسي وخلقي معين – لا يستطيع أن يصلح ما فسد من النفوس. بل هو قمين أن يزيدها فسادا لأنه يلهب غرورها فتظن أنها على صواب! [" قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً "!] [33]

هذا التقدم العلمي كله: الثلاجة الكهربائية، والغسالة الكهربائية، والإنسان الآلي والمخ الإلكتروني. والزر الذي تضغط عليه فيدور مصنع كامل دقيق الآلات أو ضخم الآلات. أو يأتيك طعام جاهز يلبي نداءك كالجني القديم في الأسطورة. أو تسمع الموسيقى الحالمة التي ترتاح إليها نفسك. أو يتكيف جو حجرتك أو فراشك.. أو.. أو.. الخ.

التقدم الذي ينقلك في لحظة عبر العالم. تسمعه وتشاهده وتشاركه. في الإذاعة أو التليفزيون أو التليفون اللاسلكي. فيفتح لك نوافذ متعددة على العالم ترى منها ما لم تكن تحلم أن تراه لو قضيت عمرك كله في الأسفار. هذا وأنت جالس في مكانك لم تبرح. كالجني القديم في الأسطورة ينقل العالم إليك وأنت مستريح..

التقدم الذي نفذ إلى آفاق الكون، فرأى ملايين الملايين من النجوم والكواكب، قاس حرارتها وعرف أبعادها ورصد أفلاكها. ثم قفز إليها يريد أن يضع قدمه على أرضها.

هذا التقدم كله.. ماذا صنع في " نفسية " القرن العشرين؟. ولا نتحدث بعد عن الأخلاق.

هذه الضحالة المزرية بكرامة الإنسان! التي لا تطيق التعمق في المعرفة ولا التعمق في المشاعر ولا التعمق في الأفكار. وإنما تريد أن تأخذ الأمور كلها من سطوحها. قفزا قفزا. كالطائر المجنون.

هذه التفاهة " الجزئية " في الحكم على الأمور، التي لا تطيق النظرة الشاملة ولا تصبر عليها، وإنما تأخذ كل جزئية بمفردها، منفصلة ومستقلة، على غير حقيقتها في بنية الكون وبنية الأحداث.

هذه الآلية الهابطة، التي تحيل المشاعر والأفكار والأعمال نشاطا آليا كنشاط الالة. زر يضغط عليه فتنطلق أعمال. زر يضغط عليه فتنطلق أفكار. زر يضغط عليه فتنطلق

[33] سورة الكهف [103 - 104].

مشاعر. أقرب إلى مشاعر البهيمة، وأحيانا أحط من مشاعر البهيمة المحكومة بفطرتها المضبوطة المستقيمة.

هذه المادية المغلقة التي تغلق جوانب الروح، وتطمس على رفرفاتها، وتجثم على الأرض لا تريد الانطلاق ولا تقدر عليه.

هذه " الواقعية " المريضة التي تعيش في حدود اللحظة، وتأبى أن " تتصور " و "تتخيل".. لتتصور " الكمال " وتسعى إلى تحقيقه.

هذه الحسية التي تحيل المشاعر لذة جسد محصورة، لا تتندى بعواطف "الإنسان".

تلك هي حصيلة " التقدم! " النفسي في القرن العشرين! ولا نتحدث بعد عن الأخلاق!

إنها حصيلة " الآلة "! حصيلة تحويل الإنسان كله إلى آلة تعمل في نطاق الحس القريب.

إنها اختلال نفسي لا مثيل له قط في سالف القرون!

*   *   *

والتفسير المادي للتاريخ يقدم لهذا الأمر تفسيرات شتى، ومبررات شتى. بعضها يقدمه في تبجح وبعضها يقدمه على استحياء.. فحتى التفسير " المادي " للتاريخ ينبغي أن يستحيي من هذا المسخ المشوه الذي صار إليه الإنسان في القرن العشرين!

وما يعنينا هنا أن نناقش التفسيرات والمبررات والاعتذارات. ولكن يعنينا فقط أن نبرز هذه الحقيقة: أن التقدم العلمي لا علاقة له بالوضع النفسي للإنسان. فالعلم يتقدم في سبيله، صاعدا أبدا، كل خطوة تؤدي إلى تقدم جديد. والنفس تمضي في سبيلها. إن وجهت الوجهة الصالحة يكون فيها الخير، وإن وجهت الوجهة الفاسدة لا يمسكها عن الفساد كل التقدم العلمي والتطور في أساليب الإنتاج.. بل قد يزيدها فسادا كما هو الحال في القرن العشرين.

ونعود إلى دراسة التطور النفسي في ذاته. ما هو؟ وما العوامل المؤثرة فيه؟ وما دلالته على الفطرة البشرية؟

النفس البشرية – ككل شيء في حياة الإنسان – تنمو بفطرتها نحو النضوج والتكامل والتعقد والشمول.

وتتعرض في أثناء نموها للاعتدال والانحراف. كلاهما فطرة في طبيعة الإنسان [34]..

في طفولتها تكون أقرب إلى البساطة. تعبيرها ساذج مباشر. " فراملها " ضعيفة التكوين. حسية أكثر مما هي معنوية. جزئية أكثر مما هي شاملة. جزئية في تناولها وتفسيرها للأمور. وفي الوقت ذاته واسعة الخيال على غير أسس تحكم هذا الخيال. فهو خيال مطلق يتخيل كل شيء ويصدق كل شيء في بساطة وسهولة ويسر.

وتأخذ البشرية في النضوج..

لماذا؟

هكذا ركب في فطرتها. فلا تحتاج إلى مبرر آخر!

ولكن النضوج [أي النمو] يحتاج إلى غذاء. وإلا فإنه يذبل ويذوي ويموت.

والخالق الذي خلق النفس ووضع في فطرتها ذلك النمو، وضع لها كذلك غذاءها " الفطري " على مقربة منها. كما جعل الثدي على مقربة من فم الطفل، والغذاء كله على مقربة من الإنسان.

غذاء النمو النفسي هو " التجربة ".. وفي فطرة الإنسان أن يجرب ويستفيد بالتجربة.

وميدان التجربة هو الحياة كلها على الاتساع: في عالم الحس وعالم النفس وعالم الروح. في الكون المادي والكون المعنوي سواء.

" عقل " الإنسان يحتك بالكون المادي فتكون تجربة. يكشف النار. يكشف خواص المادة. يكشف طريقة " التعامل " مع المعادن أو النبات أو الحيوان.

[34] انظر كتاب الدراسات، " فصل الانحراف والشذوذ "

و " نفس " الإنسان تحتك بالكون المادي فتكون تجربة من نوع آخر. يكتشف **عجزه** عن أمور **ومقدرته** على أمور. ومن العجز والمقدرة كليهما تتكون له مشاعر وعقائد وأفكار. فيتعبد. ويعتقد. ويتجبر أحيانا ويغتر! ويحاول التغلب على العجز بالمزيد من القدرة، فتنمو في نفسه وعقله وجسمه طاقات مختلفة كانت كامنة من قبل.

ويحتك بالناس فتكون تجربة من نوع ثالث.. بل تجارب شتى متعددة. يكتشف أنه يحب الناس ويكره الناس [لأسباب!] [35] وأنه يطغى على غيره أحيانا فيستخذي هذا الغير أو يقاوم الطغيان، وأنه هو كذلك يستخذي لطغيان غيره عليه أحيانا ويقاوم أحيانا. وأنه يحتاج إلى الناس ويستغني عن الناس. ويتخصام ويتصافى. ويحارب ويسالم. ويتعاون وينعزل. فتنشأ من كل ذلك " نظم " وشرائع وعلاقات.

وهكذا.. كلما خطا خطوة وقعت له تجربة جديدة، ومن هذه التجارب ينمو ويتسع ويشتد قوامه. ويتدرج من البساطة إلى التعقيد. من التعبير الساذج المباشر إلى التعبير الناضج البعيد الغور. وتقوى " عضلات " نفسه وفراملها، ويختلط الخيال بالواقع، ويصير أقرب إلى " تعقل " الأمور.

وتتواكب الأمور كلها في وقت واحد.. في عملية النمو السوية. فتزداد الخبرة وتتحسن العدد والآلات وأدوات الإنتاج، وينمو الكيان الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.. وكذلك تنمو " النفس " في مجموعها وتنضج وتتعمق.

ولكن الأمور لا تستقيم في كل حالة.. فقد ينمو جانب من النفس أو جانب من الحياة ويتعثر جانب آخر.. فلا يحدث التواكب الفطري السليم الذي ينبغي أن يكون.

يتقدم الإنتاج المادي أو الخبرة النفسية أو الخبرة الفكرية ولا تستقيم بقية الخبرات..

وقد عرف التاريخ نماذج من ذلك كثيرة..

فالإغريق قد بلغوا الذروة – في عصرهم – في التقدم " الفكري " الخالص. في الفلسفة والعلوم النظرية. ومع ذلك كانت في حياتهم اختلالات جمة. أبرزها الاختلال في الجانب الروحي. فالذهن المتضخم كان يطغى على نشاط الروح.

---

[35] يقول فرويد إن الحب والكره ظاهرة مزدوجة في الكيان النفسي تحدث بلا سبب! وقد ناقشنا ذلك تفصيلا في كتاب الدراسات.

والهند – في عصرها – بلغت الذروة في التقدم " الروحي ".. في إشراقات التصوف وسبحات التعبد، و " الفناء " في الكل الأعظم الذي يشمل روح الوجود. ومع ذلك كانت في حياتهم اختلالات جمة. أبرزها السلبية المنصرفة عن الإنتاج المادي. فالنشاط الروحي المتضخم يفسد إيجابية الحياة.

والرومان – في عصرهم – بلغوا الذروة في التقدم " المادي ".. في تطبيقات المدنية العملية، من طرق وجسور وخزانات وحمامات وهندسة للري وتنظيمات للحكم وسياسة للسلم والحرب.. ومع ذلك كانت في حياتهم اختلالات شتى. أبرزها الاختلال الروحي والخلقي.. فقد انغمسوا في لذائذ الحس وتكالبوا على متاع الأرض، فانقلبوا وحوشا يلغون في الدماء أو أجسادا بلا أرواح.

والمصريون – في عصرهم – بلغوا الذروة في النشاط الروحي والنشاط المادي معاً. فكانت لهم عقائد وعبادات أرقى بكثير مما عرفه زمانهم في شتى الأمم، وفيها نفحة من بقايا الديانات السماوية التي وصلت إليهم، وإن كانت مشوهة منحرفة، وكانت لهم هندسات وتنظيمات وإنتاج مادي رفيع.. ومع ذلك كانت في حياتهم اختلالات شتى. أبرزها عبادة الفرعون وتأليهه، والاستنامة من ثم للضغط والطغيان [وهو عيب بارز في تاريخهم كله] والجنوح إلى التفكير في الموت والعالم الثاني ومن ثم الاكتفاء من الحياة الدنيا بالحد الأدنى الذي لا يرفع مستوى الحياة؛ لا عن عجز عن المدنية والتقدم [فقد كانت الصناعات الدقيقة الرفيعة كلها تصنع من أجل الفرعون وبتسخيره] ولكن عن قناعة ذليلة ترتضي لقمة الخبز والحصير المفروش على الأرض الجرداء.

في كل هذه الحالات لم يتواكب التقدم في جوانبه المختلفة كما ينبغي أن يكون..

كانت البشرية في طفولتها.. أو في طفولاتها المختلفة.

ثم بلغت سن الرشد في فترة من حياتها معينة.. على يد الإسلام.

يمكن أن نقول إنها بلغت سن الرشد بدعوتها إلى الإسلام أو باستجابتها إليه، يوم خاطب الله تعالى المسلمين بقوله: " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً " [36]. ففي ذلك اليوم كان قد اكتمل لها الرشد حقا،

[36] سورة المائدة [3].

وانطلقت تقيم الخلافة الراشدة على ظهر الأرض.. فكيف كان ذلك الرشد؟ وما مظاهره ومميزاته؟

الرشد العقلي ظاهر في طبيعة الرسالة ذاتها.. التي تخاطب العقل، ولا تقهره بالمعجزات الحسية، وإنما ترشده وتوضح له المسالك ليهتدي - بذاته - إلى الحق الذي خلقت به السماوات والأرض وما فيهن. والذي تقوم عليه حياة الإنسان وتقوّم به أعماله في آخرته ودنياه.

وظاهر كذلك في إطلاق طاقة العقل في جميع ميادين النشاط العقلي المتاحة للإنسان.. بتدبر آيات الله في الكون، وبتعرف على " القوانين الطبيعية "والنواميس التي تحكم كيانه. ويمشي في مناكب الأرض يبحث عن الرزق، فيحتك بالكون المادي ويستنبط طاقاته. ويمشي في " التاريخ " فيستنبط أسباب قيام الأمم وزوالها، ويستفيد بها خبرة لحاضره ومستقبله. ويتدبر حكمة التشريع ليقيم تنظيماته السياسية والاقتصادية والاجتماعية على هدى وبصيرة.

والرشد الروحي في الاهتداء إلى الله الحق. والاتصال به. والاستمداد منه. والتعبد الصحيح إليه، بإفراده بالعبودية، ونبذ العبادات الضالة كلها، من عبادة بشر لبشر، أو عبادة بشر لوثن أو قوة من قوى الكون، أو عبادة بشر لذاته وأهوائه وشهواته..

والرشد " الحسي " في البحث عن وسائل التقدم المادي والحضاري، وهضمها وتمثيلها والإضافة إليها حتى صارت حضارة الإسلام مضرب المثل في التاريخ..

كيان راشد ناضج تواكبت جوانب النمو فيه **فتوازنت** على شمول وإحاطة.

وكانت تلك قمة البشرية..

وانطلقت تلك الأمة الراشدة تبني مثلا للتاريخ.. مُثُلا في كل جوانب الحياة وكل مجالات النشاط الإنساني. الفتح الخاطف الذي لا مثيل له من قبل ولا من بعد في كل التاريخ.. من المحيط للمحيط في نصف قرن من الزمان!

نشر العقيدة الصحيحة في ربوع الكون المعمور على ثبات وقوة وتمكن.

إقامة المثل الخلقية الباقية التي تستمد منها البشرية كلها في جميع عصورها في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين صنعهم على عينه: أبي بكر وعمر..

وعثمان وعلي.. وأبي عبيدة وخالد.. وسلمان وصهيب.. وبلال وعمار. وأسماء وعائشة.. وفاطمة وأم سلمة.. وسمية ونسيبة.. ومئات وألوف على مدار الأجيال حتى اللحظة الراهنة رغم جميع التقلبات والأحداث!

إقامة الحضارات بكل الوسائل المتاحة في الأرض.

إنشاء المذهب التجريبي الذي قامت عليه بعد ذلك العلوم الحديثة كلها، وخطا به العلم هذه الخطوات الجبارة في العصر الحديث..

و... في كل جانب من جوانب الحياة..

تلك كانت قمة البشرية.. " كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ " [37].

ولكن " البشرية " لم تحافظ على قمتها!

لقد تقدم العلم. وتقدمت " الخبرات " النفسية في شتى الميادين.. ولكن عادت الاختلالات إلى الظهور!

تجنح البشرية بروحها مرة. وعقلها مرة. وجسدها مرة.

تهتم بالحضارة المادية وتهمل حضارة الروح..

تهتم بالتقدم العلمي وتهمل التوجيه الخلقي..

تهتم بالحياة الدنيا وتهمل الآخرة..

وتفقد البشرية توازنها، ولا تتواكب الخبرات.. فينحدر الكيان النفسي في مجموعه..

وتنشأ من ذلك " حضارة " القرن العشرين!

* * *

[37] سورة آل عمران [110].

حين نصل إلى هذا الحد من البحث، نعود إلى زاوية النظر التي نرصد منها الموضوع كله.. " **دلالة الفطرة** ".

لقد قلنا من قبل إن التقدم العلمي جزء من الفطرة يحققها في أحد جوانبها. وكذلك قلنا عن التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.. وقلنا إن هذا التطور وذاك لا يخرجان عن حدود الفطرة في نهاية المطاف..

فماذا نقول هنا عن التطور النفسي؟

إنه نفس الموقف ونفس القضية..

كل ما يحدث فهو في حدود الفطرة..

ولكن الفطرة هنا – بصورة أوضح من كل ما سبق – ذات وجهين متقابلين، ينشأ من أحدهما الاعتدال، ومن الآخر ينشأ الانحراف!

إن الخط النفسي – كما رأينا – لا يصعد دائماً في جميع الحالات، كخط التقدم العلمي..

ولذلك سبب من ذات الفطرة!

التقدم العلمي صاعد أبداً لا ينكص، لأن في فطرة الإنسان أن يطلب المزيد من المعرفة. وفي فطرته أن يحسّن على الدوام ما يملك من أدوات. إن التحسين يستجيب للفطرة من **كل جوانبها**. فهو يلبي رغبتها في المعرفة. ورغبتها في الجمال. ورغبتها في التطلع إلى الكمال. كما أنه يستجيب لرغبتها في الراحة ورغبتها في القوة والقدرة والبروز. فكل تحسين يحقق – ولو في أحد جوانبه – مزيداً من الراحة للإنسان [وذلك دافع من دوافع الاختراع: تيسير الحياة] كما يحقق شعوراً بأن الإنسان قد قدر على عمل جديد، وبهذه القدرة يحقق ذاته ويبرز.. وفي اختصار فالفطرة هنا دافعة دفعاً ملحاً دائباً نحو التقدم العلمي. ولهذا ظل التقدم العلمي يسير في خط صاعد طوال التاريخ. **لهذا**، وليس لأي سبب آخر من " خارج " الفطرة، يدعيه التفسير المادي للتاريخ! ولهذا الكيان **الكلي الشامل**، الذي يشمل الإنسان كله، لا لجزء واحد منه كما زعم التفسير المادي للتاريخ حين قال إن تاريخ الإنسان كان دائما تاريخ المحاولة لتحقيق كيان " الإنسان " ولم يكن تاريخ البحث عن أي جانب واحد منفصل في هذا الكيان!

أما التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي فهو يسير قدما في جانب واحد منه: هو جانب التعقد والتشابك وإحكام الروابط و " مزجها " بعضها ببعض. ولكنه لا يسير قدما من حيث " الكيف "، فهو يسير متأرجحاً بين الفردية الطاغية والجماعية الطاغية.. وأبرز الأمثلة على ذلك: الرأسمالية والشيوعية في القرن العشرين. ولكن مرد ذلك أيضاً إلى الفطرة! ففيها اعتدالات وفيها انحرافات، وفيها مرونة تتسع لأشكال شتى وضغوط متعددة.. حتى تثور في النهاية وتلفظ ما لا يناسبها من الأوضاع والظروف.. وفي كل ثورة من ثورات الفطرة يحدث انتقال من طور إلى طور، ينطلق في طريقه فترة حتى تغلبه الانحرافات فيبيت في انتظار انقلاب جديد. وهذا - وليس التطور في أساليب الإنتاج وحده كما يزعم التفسير المادي للتاريخ - هو الذي يفسر التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي في حياة البشرية.

وأما التطور النفسي فهو لا يسير على خط واحد على الإطلاق!

هناك مرحلة كان خط التطور واضحا فيها.. إلى الأمام، وهي المرحلة السابقة لمرحلة الرشد.. والتي أدت إلى الرشد.

كان النمو في هذه المرحلة هو العنصر البارز الواضح. النمو إلى الأمام. إلى النضوج والتكامل والشمول. ومع ذلك فلم يكن خطا واحداً صاعدا في كل مراحله. فالتاريخ يثبت قيام حضارات **وانهيارها**، والانهيار نكسة إلى الوراء. ومعنى ذلك أنه يحدث تقدم ونكوص. فلا يسير الخط على سواء.

ثم بلغت البشرية الرشد على مولد الإسلام وانتشاره. ولم ترتفع قط عن تلك القمة في تاريخها كله. فقد كانت هذه أعلى قمة وصلتها البشرية.. وكذلك لم تثبت عليها، بل أخذت في الانحدار.

وقد حدثت أنواع من النمو الجزئي في النفس البشرية بعد الإسلام ولا شك، في الجوانب التي تتغذى على التقدم العلمي الصاعد أبدا، وعلى التعقد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الدائم [التعقد لا التقدم].. ولكن النفس في مجموعها لم تتقدم بعد تلك القمة أبدا بل لم تثبت عليها. وقد مر بنا بيان الانحدار النفسي المتواصل في " حضارة " القرن العشرين.

والمرجع الأخير هنا - كما في الأمور الأخرى كلها - هو الفطرة!

ففي الفطرة البشرية استعداد للهبوط يقابل الاستعداد للارتفاع. كلاهما فطري. وكلاهما أصيل. ليس أحدهما مجلوبا من خارج النفس ولا مفروضاً عليها من خارجها " وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا "[38] " لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ "[39]][40].

والنفس – في حالتيها – داخل حدود الله كما خلقها الله..

والتوجيه هو الذي يدفع النفس إلى فطرة الارتفاع أو فطرة الهبوط.

ولقد كان التوجيه الإسلامي هو قمة التوجيه نحو الارتفاع، وكان النظام الإسلامي هو قمة الأنظمة التي تسمح بتحقيق ثمرة تلك التوجيه، فارتفعت النفس البشرية إلى قمتها. والتوجيه الغربي في القرن العشرين هو الدرك المقابل للتوجيه الإسلامي، والأنظمة الغربية تكمل هذا التوجيه وتحققه في عالم الواقع! فهبطت به النفس البشرية إلى دركها الأسفل، الذي لا يبدو أن هناك مزيدا عليه.

الضحالة المزرية بكرامة الإنسان. التفاهة الجزئية في الحكم على الأمور.. الآلية الهابطة.. المادية المغلقة التي تغلق جوانب الروح.. الواقعية المريضة التي تعيش في حدود اللحظة.. الحسية التي تحيل المشاعر لذة جسد محصورة.

ولكن النفس البشرية قابلة للصعود مرة أخرى حين يهتف لها هاتف الصعود..

وفي حالتيها تكون في حدود الفطرة.. وتكون الفطرة – بشعبتيها المتقابلتين – ثابتة رغم تغير الأشكال!!

*　　　*　　　*

والآن نقترب حثيثاً من الحديث عن " التغير " الأخلاقي.. ولا نقول " التطور "!

---

[38] سورة الشمس [7 – 10].
[39] سورة التين [3 – 6].
[40] انظر كتاب " دراسات في النفس الإنسانية ".

على هدى ما تبين لنا من دراسة التطور النفسي، لا نجد مشقة في تتبع التغير الأخلاقي في تاريخ البشرية. فهنا تتبدى لنا الفطرة البشرية المزدوجة في أجلى معانيها وأوضح مظاهرها.

فلئن كان الخط العلمي صاعداً أبداً لا ينكص.. ولئن كان " التعقد " الاجتماعي والاقتصادي والسياسي صاعداً أبداً [دون التقدم في هذا الميدان ذاته] ولئن كلن التطور النفسي أقل استقامة وأكثر تقلباً.. فالجانب الأخلاقي من الحياة البشرية هو أكثرها تقلباً على الإطلاق، وأقلها استقامة على " خط " معين في أي مرحلة من مراحل التاريخ.

إنها بادئ ذي بدء مسألة تبرز فيها الفردية على الرغم من تأثرها بالمحيط الجماعي الشامل، ولا يكون التخصص الفردي واضحاً بقدر ما يكون في الجانب الخلقي. فلئن كان التقدم العلمي والتطور الاجتماعي تحكمهما الظروف الجماعية بشكل واضح، وكان التطور النفسي مزيجاً من الفردية والجماعية.. فالمسألة الخلقية يبرز فيها الجانب الفردي، وإن يكن المحيط الجماعي الذي يعيش فيه الفرد هو الذي يساعد أو يعوق النمو الخلقي في الأفراد على تفاوت في التأثير يرجع إلى طبائع الأفراد ومدى صلابتها.

ثم إنها لم تتخذ خطا مستقيما أبدا في التاريخ.. إنما أخذت على الدوام صورة دورات صاعدة هابطة.

يهتف للبشرية هاتف بالصعود: نبي مرسل أو زعيم مصلح أو قائد.. فتتجه – في مجموعها – إلى الصعود فترة من الوقت، ويبقى حثالة من الناس في أسفل القاع، مذمومين مدحورين. لأن الموجة صاعدة. ثم يتعب الناس من الصعود، أو من الاستقامة على القمة! فيبدأون دورة الهبوط.. وهنا تنتفش الحثالة الموجودة في أسفل القاع، وتحس أن " الضغط " عليها قد خف، فتأخذ في النشاط، ويكون نشاطها في مبدأ الأمر محدودا، ومنظورا إليه باستنكار. وتهبط الموجة أكثر، ويخف الضغط على الحثالة الواطية، فتزداد انتفاشاً ونشاطاً وتتسلم هي القيادة! وتبقى قلة من الناس مرتفعين، ولكن تحت ضغط مرهق عنيف.. وتشتد الموجة في هبوطها حتى تطغى.. ويصطدم بقرارة الفساد في النفس البشرية حتى تمجها " الفطرة ".. حتى الفطرة المريضة.. فتبدأ تلفظها لأنها تجاوزت آخر مداها. وعندئذ تأخذ الموجة في الصعود مرة أخرى على يد نبي مريسل أو زعيم مصلح أو قائد..

وذلك تاريخ البشرية!

ولئن كان التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ألصق شيء بالتطور المادي، ومع ذلك فهو مستقل عنه، ويمكن أن يوجد بلا تدخل منه [كما حدث في الإسلام]، وكان التطور النفسي أقل لصوقا بالتطور المادي، وأكثر استقلالا عنه، فالتغير الأخلاقي هو آخر شيء يمكن أن يرتبط بالتطور المادي!

والقصة الطويلة – جدا – التي يرويها التفسير المادي للتاريخ، في ارتباط الأخلاق بتطور أساليب الإنتاج.. قد كذبتها شهادة التاريخ!

ولا نحتاج أن نعود إليها! فقد تبين لنا من شهادة التاريخ أن وضعين متشابهين إلى حد يثير الدهشة، قد فصل بينهما ألفا عام.. وفصل بينهما ما بين العمل اليدوي، واستخدام الطاقة الذرية في الصناعة والزراعة والطب و.. التدمير!

إذن.. فالعلاقة بين الأخلاق ووسائل الإنتاج هي أضعف العلاقات على الإطلاق.

ولسنا نقول – مع ذلك – إن تفسيرات التفسير المادي للتاريخ بشأن " تطور " الأخلاق في القرنين الأخيرين كلها بعيدة عن الواقع! إنما نقول فقط إنها تفسيرات مضللة لأنها تأخذ في حسابها المظهر الخارجي ولا تنفذ إلى الباطن.. إلى " الفطرة ".

إن كل التغيرات الأخلاقية التي حدثت مع الانقلاب الصناعي، ومع الداروينية والتوجيه اليهودي، لم تكن حتمية! وهنا مفرق الطريق بين التفسير المادي للتاريخ، والتفسير الإنساني للإنسان!

ظروف أوربا المحلية هي التي أنشأت الانهيار الخلقي في تلك الفترة، وليست الطبيعة البشرية.

" فالتطور " – بمعنى نمو الحياة وتجددها – كان عنصراً دائما في حياة المسلمين.. فلم يفسدهم. لا أفسد أخلاقهم ولا أشاع الخلل في نفوسهم. إنما فسدوا واختلت نفوسهم حين تغيرت في حياتهم دوافع النمو والتجدد، وجنحوا إلى الجمود والتحجر.

والصناعة – في حدود – كانت جزءاً من مكونات المجتمع الإسلامي.. فلم تفسدهم. لم تفسد أخلاقهم ولا جعلتهم يتركون الآخرة لحساب الدنيا ويتكالبون على متاع الأرض. إنما فسدوا حين قل نشاطهم الصناعي وحصروا أنفسهم في ألوان من الإنتاج ضئيلة الفائدة.

وتحرير المرأة – نفسياً وإنسانياً – كان جزءاً أصيلا من العقيدة الإسلامية ذاتها التي حررت الإنسان كله – بشقيه – من كل عبودية لغير الله تعالى، وجعلت أداة تحريره الكبرى هي علاقته المباشرة مع الله، التي يستصغر بعدها كل قوة من قوى الأرض، ويرفض الخضوع لها إلا أن تكون هي مهتدية بهدى الله. ومنذ اللحظة الأولى للبعثة المحمدية أخذت المرأة وضعها الإنساني والاقتصادي والاجتماعي، فاتصلت بربها مباشرة، وصار لها حق الملك والتصرف والخطبة والزواج [وطلب الطلاق أيضاً] وصارت تجادل عن حقوقها [" قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ "] [41] ثم نزل الوحي بإنصاف المرأة وتثبيت حقها الإنساني في الحياة.. ومع ذلك فهذا التحرر لم يفسد المسلمين. وإنما فسدوا يوم طغوا على كيان المرأة فخنقوا كيانها المتحرر وغلفوها بعبودية لغير الله ظالمة، وبتأخر وقذارة وانحطاط..

ومن ثم فكل " العوامل " التي ينسب إليها هواة التفسير المادي للتاريخ " تطور! " المفاهيم الخلقية في القرنين الأخيرين كانت – في صورة ما – موجودة في المجتمع الإسلامي فلم تفسده، بل كانت دعامة من دعائم الأخلاق فيه.

إنما كانت هناك أمة مؤمنة. على هدى من دينها. راشدة لا تستمتع للتوجيه اليهودي الماكر الخبيث. ولذلك لم تفسد بهذه العوامل المزعومة، بل تماسكت وصعدت على استواء.

ولو حدث " الانقلاب " الصناعي في أمة مسلمة مؤمنة مهتدية، فقد كان حريا أن يقوّم أخلاق الأمة ويزيد تماسكها، لا أن يفرط عقدها ويحل أخلاقها ويطلق فتيانها وفتياتها كالبهائم الشاردة لا تشبع من السعار المجنون، بينما الحيوان ذاته محكوم بفطرة مضبوطة لا تنحرف عن خطها القديم:

إنما " حضارة " الغرب الملحدة الكافرة هي المسئولة عن التحول الهابط، وليست وسائل الإنتاج ولا حتمية التاريخ!

وعلى أي حال فكل جدالٍ زائفٌ بعد شهادة التاريخ!

* * *

---

[41] سورة المجادلة [1].

ونريد أن نخلص من الموضوع إلى غايته..

لقد رأينا أن هناك أربعة أنواع مختلفة من التطور:

التطور المادي – التطور الاجتماعي – التطور النفسي – التطور [أو التغير] الأخلاقي.

ورأينا أن مردها جميعا في نهاية المطاف إلى الفطرة. كما رأينا أن الفطرة شيء ثابت رغم تعدد الأشكال وتطورها على الدوام.

وهنا شبهة ينبغي أن نزيلها بقوة.

إن قولنا المكرر الملحّ بأن الفطرة ثابتة لا يعني قط أننا نلغي من حسابنا قيمة التطور.

إننا إن ألغينا قيمة التطور فإننا نلغي حقيقة الإنسان! فالإنسان مخلوق ليتطور على الدوام. والتطور أبرز ما في فطرته، وأشد ما يميزها عن فطرة الحيوان! وعن كل فطرة ثابتة الكيان.

كل ما في الأمر أننا نرد التطور الدائم إلى الفطرة الثابتة الجوهر. ونرى – في ذات اللحظة – الجوهر الثابت والصورة المتغيرة حقيقتين متجاورتين، أو حقيقة واحدة شاملة تفسر كل نشاط الإنسان.

ثم نحكم على الإنسان – في تطوره – بالمقياس الثابت الذي تقدمه الفطرة!

وهذه الحسبة الرياضية المعقدة في ظاهرها – أو المتناقضة – بسيطة جداً حين نمثل لها في كل من الأنواع الأربعة السالفة من التطور.

فمقياس الفطرة الثابت بالنسبة للتقدم العلمي أنه يسير في خط صاعد أبدا. وبهذا المقياس – الثابت – نحاسب الإنسان. فكل إنسان يأخذ بنتائج العلم في تقدمه النظري والعملي **فهو سليم الفطرة** سائر في الطريق الصحيح. وكل إنسان يرفض – لأي سبب – الاستفادة من ذلك التقدم **فهو منحرف الفطرة** في حاجة إلى علاج.

ومقياس الفطرة الثابت بالنسبة للتقدم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي أنه ينحو دائما نحو التشابك والتعقد، **والمفروض فيه** أن يعمل على التوازن بين مختلف طاقات

البشرية ونوازعها. فكل جيل من الناس يصلون إلى هذا التوازن، فتنضج نظمهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية **على توازن**: توازن بين الفرد والمجتمع، وبين الطاقة المادية والطاقة المعنوية، وبين السلبية والإيجابية... الخ... الخ فهو جيل سليم الفطرة سائر في الطريق الصحيح. وكل جيل يرفض النضوج الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، **أو ينحرف عن التوازن** فهو جيل متخلف أو منحرف. في حاجة إلى علاج.

ومقياس الفطرة الثابت في التطور النفسي هو النمو الدائم نحو **النضوج والتكامل والشمول والتوازن**. فكل فرد أو جيل يتجه نحو هذا اللون من النمو فهو سليم الفطرة سائر في الطريق الصحيح. وكل فرد أو جيل يثبت على درجة معينة من النمو – متخلفة – أو يتقدم ببعض جوانب نفسه ويتأخر ببعض، أو يفقد توازنه، فهو منحرف الفطرة في حاجة إلى علاج [والمقياس الواضح المحسوس هو القمة التي وصلت إليها البشرية على هدى الإسلام مع إضافة ما يجد بطبيعة الحال من تقدم علمي وتقدم في أشكال المجتمع، وهو أمر تدعو إليه طبيعة الإسلام، فمن اتجه نحو هديها فهو سائر في الطريق الصحيح، ومن انحرف عنها فهو منحرف معتل].

ومقياس الفطرة الثابت في الجانب الخلقي **أن يكون الإنسان إنسانا!** وهو مقياس مستمد من الفطرة! فالإنسان قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله، ممتزجتين مترابطتين في كيان موحد. له دوافعه وأشواقه. دوافع الجسد وأشواق الروح. له نزعاته الفطرية من طعام وشراب وملبس ومسكن، وجنس وتملك، وصراع وبروز.. وله " قيم " تجعل لجميع الأعمال غاية وهدفا، ولا تكون هي هدفا في ذاتها كما يحدث في عالم الحيوان. وهدفا واعيا مدركا بما يتناسب مع طبيعة الإنسان.. ثم إنه له إلى جانب الدوافع ضوابط تضبط منصرفات الطاقة الفطرية وتنظفها دون أن تكبتها أو تقتلها من منبتها، وهذه الضوابط فطرية كالدوافع سواء بسواء. يستخدمها الإنسان السوي استخداما فطريا غير مفروض من الخارج [وإن كانت تنمية الضوابط في حاجة إلى عون خارجي بالتربية، كالقدرة على النطق والقدرة على المشي، فطريتان كامنتان في الجسم. ولكنهما تحتاجان إلى العون الخارجي لتنتقلا من الحالة الكامنة إلى الوجود الواقعي]. وفي هذه الفطرة خطوط متقابلة: الخوف والرجاء.. الحب والكره. الحسية والمعنوية. الإيمان بما تدركه الحواس والإيمان بالغيب. الواقع والخيال. السلبية والإيجابية. الالتزام والتحرر. الفردية والجماعية.. وهذه الخطوط مهمتها أن تعدد جوانب الإنسان وتوازن نشاطه.. ثم إن في صميم الفطرة أن تهتدي إلى خالقها، فتعرفه وتتصل به وتقبس من نوره وتهتدي

بهديه وتتعبد له وحده.. ومن هذه القاعدة تنبثق كل مبادئ الأخلاق [42] فمن سار عليها فهو سليم الفطرة سائر في الطريق الصحيح. ومن انقلب عليها فهو منحرف هابط مرتكس إلى مستوى الحيوان!

* * *

وهواة التفسير المادي للتاريخ يجادلون أشد الجدال في هذه **الدلالات**. وفي الدلالة الخلقية خاصة. يجادلون في أن ما حدث في القرن التاسع عشر والقرن العشرين هو انحراف عن الفطرة. ويقولون إنه تطور، وإنه صاعد، وإنه سليم!

ولقد سمعنا من قبل شهادة التاريخ لتزييف قصة التطور، فأثبتت لنا هذه الشهادة أن ما حدث في العصر الحديث لم يكن " تطورا " فريدا في بابه، ناجما عن الظروف المادية الخاصة بهذا العصر، إنما كان له شبيه فـــي حياة الإغريق والرومان من قبل ألفين من السنين!

الآن.. لكي نتأكد من دلالة الفطرة بالنسبة لهذا " التطور " المزعوم.. هل هو انحراف عن الفطرة وارتكاس إلى الحيوانية المريضة، أن تطور صالح يسير مع فطرة الإنسان..

بل.. لكي نتأكد من وجود فطرة على الإطلاق يرجع إليها في قياس المسائل الخلقية.. فطرة ثابتة تقول لا، ونعم، في كل مرة، عن قواعد ثابتة مكينة في كيان الإنسان..

لكي نتأكد.. فلنستمع إلى شهادة القرن العشرين!

---

[42] انظر بالتفصيل كتاب الدراسات.

شهادة القرن العشرين

كما استمعنا من قبل لشهادة التاريخ. لنثبت أن ما يسمى " تطورا " خلقيا في القرن العشرين، ناشئا من " التقدم " العلمي والصناعي والاجتماعي.. الخ ليس شيئاً فريدا في التاريخ، وإنما كان له شبيه من قبل.. نستمع الآن لشهادة القرن العشرين ذاته، لنرى هل هو " تطور " أم انحراف!

إن الدفعة التي نفخ فيها ماركس وفرويد ودركايم، وغيرهم ممن يحذون حذوهم، قد أفهمت هذا الجيل من البشرية أنه حين ينفلت من إطار الدين، وينسلخ من قواعد الأخلاق – في مسائل الجنس على الخصوص – ويأبى التقيد بشيء على الإطلاق مما كان في الماضي.. حين يصنع ذلك فهو " يتطور ". أي يرتقي ويتقدم إلى الأمام..

وفهم هذا الجيل من البشرية أنه " مطالب " بتحطيم ذلك كله: الدين والأخلاق والتقاليد.. وأنه لن يرتقي ويتقدم حتى يأتي عليها جميعا ويقتلعها من جذورها. وأنها " معركة مقدسة " يخوضها هذا الجيل ضد الرجعية والجمود والتأخر.. ضد الجهل والخرافة والأسطورة.. ضد " القيد " الذي يعوق الانطلاق.

وكانت الشياطين تنفخ في روح الجيل من جوانب متعددة في آن واحد.. أو إن شئت قل تنفخ فيها من كل جانب.

فالذي يتحدث في علم النفس يقول إن الدين كبت.. ينبغي أن يحطم لكي لا يؤذي الكيان النفسي للفرد!

والذي يتحدث في الاقتصاد يقول إن الاقتصاد الصناعي يحتاج إلى مجتمع " متحرر " من القيود الموروثة من المجتمع الزراعي، ومن بينها كذلك احتجاز المرأة لمهمة الأمومة! إذ ينبغي – في المجتمع الصناعي – أن تخرج المرأة تعمل!

والذي يتحدث في الاجتماع ينظر بعين السخرية إلى تلك السذاجة التي كانت تخيل للناس أن الدين فطرة! وأنه شيء متزل من السماء! ألا يعلم الناس أن البشر هم الذين ابتدعوا الدين أيام جهالتهم وسذاجتهم؟! انظروا إلى المجتمعات المتأخرة التي ما تزال تعيش في الأحراش في أفريقيا وأستراليا.. وستجدون بذرة الدين هناك. في الجهل والسذاجة والخرافة والأسطورة.. ثم انظروا إلى التقدم الحضاري في القرن العشرين! أما تستحون من أن يكون في ضمائركم ووجداناتكم بقية مما ورثتموه عن سكان الغابات والأحراش؟!

والذي يتحدث عن العلوم.. العلوم البحتة، لا ينسى الدين كذلك! إنه يذكر الناس بيوم كان الناس متدينين فكانوا لجهالتهم الشديدة ينسبون ما يحدث في الكون كله إلى الله! يا لجهالتهم! لم يكونوا يعرفون القوانين الطبيعية التي تحكم الكون.. أما " نحن " العلماء في القرن العشرين..

والذي يتحدث في الفن.. يزري بتلك الأيام التي كان التحدث عن الجنس فيها يعتبر " عيبا " تأباه الأخلاق! تباً لكم أيها المتأخرون! كم كنتم تحجبون من ألوان الجمال الممتع البهيد الأخاذ! انظروا إلينا نحن المتحررين! اليوم نحن نجعل الجنس فنا قائما بذاته.. لحظة الجنس " كون " كامل.. تعالوا نتتبعه من جميع أقطاره.. تعالوا نصفه داخل النفوس وفي واقع الحياة.. تعالوا نكشف متعه ومباهجه.. تعالوا نعرِّ الناس ذكورا وإناثا ونطلقهم ينشطون نشاط الجنس.. ونمسك الكاميرا للتسجيل.

أما الذي يتحدث في " التطور ".. فهو يدخل الميدان من كل باب. من أي باب. يتحدث ليقول إن الدين " ظاهرة " تاريخية! تمر بها البشرية في دورها الطبيعي وتبرأ منها بمضي الأيام! [كالحصبة التي تصيب الطفل مثلا!!] ولكنها إذ تبرأ منها تتحصن ضدها، فلا تعود إليها بعد ذلك أبداً! " فالمصل " المضاد للدين هو العلم. هو المعرفة. وهو اليوم متيسر بعون الله – بعون الشيطان (!) – في كل مكان. في المدرسة. في السينما. في الإذاعة. في التليفزيون. في الصحافة. في الأدب. في الفن. في كل مكان يجد الإنسان المصل الواقي من الدين!

وهكذا دخل في ورع هذا الجيل من البشرية أنه لا مناص! إما الدين والرجعية والتأخر والتخلف الاقتصادي والاجتماعي والخرافة.. وإما الانطلاق والتحرر والنشاط والحركة والمعرفة والتقدم العلمي والاقتصادي والاجتماعي.. بلا دين!.. فمن ذا الذي يرمي بنفسه إذن في هاوية الظلمات وهو يرى مرتقى النور؟!

كلا!

فمن شاء له مزاجه المنحرف أن يتدين.. فلا بأس! نحن في عصر " الحرية ". ومن الحرية أن نترك كل صاحب مزاج لمزاجه. ولو كان منحرفا! نعم. فهذه هي الحرية. فمن شاء أن يتدين فما عسانا أن نصنع له؟ لا شيء. ولكن لا بد من تحصين المجتمع ضد الجرثومة الفاتكة.. نقدم المصل الواقي من الرجعة إلى الوباء الفتاك. نقدم " تنظيمات " عملية تجعل هذه الرجعة مستحيلة، وتتركها حالات فردية غير مخشية الانتشار. " فالاختلاط " على نطاق واسع كفيل – بذاته – أن يحطم هذه العقدة اللعينة.. عقدة

الدين. في لحظة الاختلاط.. وسط المغريات، والأنفاس الحارة والشواظ المتلمظ.. والجسد ملاصق للجسد وتواق إليه.. في الخلوة والزحمة سواء.. في تلك اللحظة من ذا الذي يذكر دينه؟! يذكره ليحرمه من تلك المتعة المباحة؟ وي! ومن ذا الذي يرتكب هذه الحماقة؟! خلّ الدين للحظة أخرى.. خل الدين لساعة الخلوة. ساعة لا يحرمنا فيها الدين من المتاع.. مثلا للحظة الكنيسة! ومع ذلك تلاحق الشياطين نفوس الشباب حتى في هذه الخلوة الروحية في داخل الكنيسة، فما يكاد " الأب " ينتهي من " الموعظة " في الكنيسة الأمريكية، حتى يطفئ الأنوار الكبرى ويضيء المصابيح الخافتة المغرية بالخلسة! ويدير اسطوانات الرقص للشباب والفتيات.. بنفسه.. ليتطور! هل يصح أن يبقى الدين في عزلة عن المجتمع؟!!

الاختلاط على نطاق واسع.. هو صمام الأمن ضد الدين. إنه يأكل هذه الجرثومة أكلا كما تقتل مضادات الحيوية الجراثيم (Anti - Biotics!).. إنه يزيحها من مكمنها في أعماق النفس، بأن يضع إلى جوارها متعة الشهوة العارمة المتجددة النشيطة.. أنشط ما في كيان الإنسان حين يطلق لها العنان!

فليكن الاختلاط على نطاق واسع إذن هو " شعار " المجتمع " المتطور "..

وليكن السؤال هكذا في كل مكان في الأرض: مجتمع مختلط؟ أم رجعي؟!

ويكون رد الفعل بطبيعة الحال هو نفي التهمة الشائنة عن النفس. من ذا الذي يرضى لنفسه التهمة وسوء السمعة وسوء الحال؟

وليكن معنى " الروح الجامعية " في الجامعة هو الاختلاط! لأي مدى يختلط الطالبات والطلبة؟ لأي مدى تستطيع البنت أن تنتقي ولدا من هؤلاء وتجلس معه على حشائش الجامعة أو في " البوفيه ".. فترة ريثما تنتهي الدروس ويخرجان.. ويذهبان.. أين يذهبان..؟!

وليكن توظيف المرأة في المصانع والمتاجر والدواوين " سياسة ".. ليكون الاختلاط طابعا " رسميا " للمجتمع.. وتكون نتائجه " الحتمية " هي القضاء على الجرثومة الخبيثة الملعونة.. ملعونة لأنها بعد أن تبدو أنها قتلت قتلا كاملا.. تعود!

وليكن الأدب والفن والإذاعة والسينما والتليفزيون والصحافة.. بكل ما تملك من قوة " الدعوة " ومغريات العرض والتشويق، أداة في يد تلك السياسة، توجهها حيث يراد لها التوجيه.

الاختلاط. البهجة. المتعة. التحرر.. أيها " الرجل " هل تكره " الاستمتاع "؟! أيتها " المرأة " ألا تحبين أن تثبتي " ذاتك "؟.. إنك في حقيقة الأمر لطيفة ومغرية.. " جذابة " ولكنك لا تجربين سحرك. جربي.. هل تعلمين أنك لو تأنقت في ملبسك وتزينت فإن هذا الرجل سيلتفت إليك.. سيعجب بك. سيتجه إليك بعواطفه. سيحبك. قد يتزوجك. لم يرض؟ جامد.. رجعي.. متحجر.. جربي مع الآخر.. رضي؟ ألم نقل لك! لقد نجحت في إثبات ذاتك.. يا له من انتصار.. الآن قد نزلت الميدان.. فلا تنكصي على عقبيك!

يا بيوت الأزياء.. يا مصانع الزينة.. يا بيوت " الجمال ".. إياك أن تكفي لحظة لكي لا " يبرد " الشواظ المنطلق المسعور.. لا تكفي عن إزجاء المغريات. يا سلام. فستان يجنن عقول الرجال. فتنة. إغراء.. من يتماسك أمام هذا الإغراء؟ الصدر المكشوف المغري. من يصمد للفتنة؟ الساق العريانة.. الرقصة والثنية في المشية.. الرنة في الصوت الناعم.

أيتها البنت.. إياك أن يحجزك أبوك عن " تحقيق ذاتك ".. ما لأبيك ومالك؟ ثوري. إرمي في وجهه تقاليده البالية. تمسكي بالتحرر. قولي له إن عارضك: إنك من جيل رجعي. أنا من جيل " متطور ".

أيها الولد. تريد أن تتدين؟! يا مجنون! تحرم نفسك؟! عش واستمتع! هيا أقدم! تنظر لك! خذها! حقق ذاتك!

*　　*　　*

وهكذا تبلورت فكرة " التحرر " حول ذلك التحلل الخلقي، الذي لا يسمى بطبيعة الحال تحللا لكي لا يفسد مفعوله. وإنما يسمى " تطورا " ليظل مفعوله قائما على الدوام.

التطور.. معناه الانفلات من قيود الدين وقيود الأخلاق. وقيود التقاليد. وقيود " الإنسان "!

فإذا قام مجنون يحاول وقف التيار الجارف من الانفلات والتحلل تصايحت حوله الأصوات، ألوف الأصوات وملايين الأصوات، تهزأ به وتسخر، وتصمه بكل تهمة شنيعة لكي يكف.. لكي لا يفسد المفعول!

رجعي. متأخر. جامد. متحجر. جاهل. متهوس. مجنون. يريد أن يرجع عقارب الساعة إلى الوراء. يريد أن يوقف عجلة التطور.

العجلة ستدوسه.

ستدوسه " حتمية " التطور!

فهو ليس تطورا فقط. وإنما هو كذلك حتمي! فلقد يخشى أن يقوم فعلا جماعة من " المجانين " يحاولون رد البشرية إلى صوابها، وتذكيرها " بإنسانيتها " الشاردة المفقودة، فلا بد من الاحتياط من قيام مثل هذه الجماعة في أي مكان على الأرض، تعيد نشر الجرثومة الخبيثة الملعونة، التي تبدو أنها قتلت قتلا كاملا. ثم تعود!

فإذا كان الاختلاط على نطاق واسع هو المصل الواقي من الدين في نطاق الواقع العملي.. " فالحتمية " هي المصل الواقي من الرجعة إليه في نطاق " الفكر ". ومن هنا نكون احتطنا للأمر من كل جوانبه في عالم الفكر وعالم الواقع سواء. ومن قام بعد ذلك يقف في طريق " الحتمية التاريخية " و " حتمية التطور "، فلا يلومن إلا نفسه. يذهب مزقاً في الآفاق.

* * *

ومضت الموجة العاتية تكتسح في طريقها كل شيء.. وبدت فعلا ذات قوة " حتمية " مروعة.. لا يقف في سبيلها شيء..

ونبت جيل في أوربا وأمريكا متحلل من كل قيد.. حقيقة.. لا يربطه رابط من خلق أو دين أو تقليد في مسألة الجنس. لا شيء على الإطلاق يقول له: أمسك. كل شيء يقول له: أقدم.

كل التوجيهات وكل " التنظيمات " وكل التيارات تهيئ له الانطلاق الجنسي وتزينه له وتدفعه إليه.

وصار أمراً طبيعياً جداً، وهيناً جداً، ومعروفا جداً أن تتخذ كل فتاة " صديقا " (Boy Friend) وكل فتى " صديقة " (Girl Friend) يقضيان معاً " ضرورة " الجنس بصورة

من الصور تبلغ حد العلاقة الكاملة بلا حواجز إن شاء وإن شاءت.. وحبوب منع الحمل تيسر الطريق.

و " استمتعت " أوربا وأمريكا بنتائج " الاختلاط " كاملة.. حتى الثمالة.

وبدا للناس هناك أن هذا هو الأمر " الطبيعي " الذي لا يستنكر. لِمَ يستنكر؟

ما المانع؟ هل هناك مانع " حقيقي " يمنع من هذا السلوك؟

الدين؟ تلك الخرافة القديمة الذميمة؟ لقد " عجز " الدين عن وقف " التطور ". عجز عن الوقوف في وجه " الحتمية " التاريخية. فكيف نلتفت إلى هذا العاجز الذي يختنق صوته بين الأصوات؟

الأخلاق؟ قيم وضعتها أجيال عابرة. قد ذهبت. لن ترجع. أنّى للماضي أن يحكم الحاضر؟ أنى للموتى أن يحكموا الأحياء؟ ألسنا نحن الأحياء؟ هل هي حياتنا نحن أم حياة أولئك الذين ماتوا وانتهت مهمتهم في حياة البشرية؟ لقد كانوا يتحدثون بظروف أيامهم. ونحن نتحدث بظروف أيامنا. بالذرة. بالصاروخ.

ماذا؟ ما المانع؟ أي شيء يضيرنا؟ المجتمع يزداد " تقدما " كل يوم. الاختراعات مستمرة. العلم يقتحم كل يوم أفقاً لم يقتحم من قبل. الإنتاج يزيد. ووسائل الراحة والتيسير متوالية تترى.

" الإنسان يصنع نفسه " (43)

لا حرج. ولا قيد. ولا رجعة.

الحياة تجارب. وتلك تجربة القرن العشرين. أروع تجربة في تاريخ البشرية. تجربة يقوم بها " الإنسان " بعيداً عن وصاية " الله ". لقد شب عن الطوق. ما حاجته اليوم إلى

---

(43) " Man Makes Himself " عنوان كتاب لمؤلف أمريكي يدعى " جوردن تشايلد " V. Gordon Childe

الله أو الدين؟ إنه هو الإله الجديد، يصنع دينه بنفسه بعيداً عن إيحاءات الدين الموروث.. دين القرون الوسطى في عصر الظلمات [44]

و لم يفكر أحد في أثناء الدفعة المسعورة التي تنفخ فيها الشياطين، أن هناك " فطرة " للإنسان تتأذى من هذا الانحراف المجنون..

" فطرة "...؟!

هل بعد هذا العلم كله، والتقدم كله، والانطلاق كله، والتحرر كله.. يجيء من يحدثنا عن الفطرة؟

فطرة ماذا؟!

ألم تقرأ التفسير المادي للتاريخ؟ ألم تعلم أنه ليس هناك كيان ثابت يسمى الإنسان؟ وأن الإنسان هو حصيلة ظروفه الاقتصادية والاجتماعية.. والمادية. وظروف اليوم غير ظروف الأمس. فحصيلتها مختلفة. ومؤدى هذا الاختلاف أن تجارب الماضي لا تقيد إنسان القرن العشرين، ولا يحكم بها على نشاطه وأعماله. إنما يستمد الحكم الجديد من الوضع الجديد..!

الفطرة..؟!

بل الفطرة ذاتها – إن شئت أن تستخدم هذا اللفظ الرجعي المتأخر – هي التي تدفع إلى هذا الانطلاق. فالجنس عملية " بيولوجية " بحتة. ما دخلها بالأخلاق؟ هذا منطق الفطرة! هل الكلب وأنثاه، يعرفان في لحظة الجنس شيئاً اسمه الأخلاق؟ وماذا يزيد الإنسان عن الكلب؟ أوهام صنعتها الأديان!!

الفطرة.. لا فطرة. أو إن شئت فهاتيك الفطرة. نحن نعيش على الفطرة على الدوافع الفطرية. بلا كبت أو ضغط أو حرمان!

---

[44] يقول جوليان هكسلي في كتابه (الإنسان في العالم الحديث) Man in the Modern World: ولقد كان الإنسان في العصور السابقة يلقي العبء على كائن مقدس غير مفهوم يسير الأمور بطريقة غامضة. أما الآن فيجب عليه ألا يفعل ذلك نظرا لزيادة معرفته بحقائق الكون. ومعنى ذلك قيام الإنسان بالتبعات التي كان من قبل يلقيها على الإله (ص 224 من الترجمة العربية)

ومضت الموجة العاتية إلـــى قمتها.. لا يضبطها شيء أو يمسكها عـــن تحطيم " الإنسان "!

الحتمية.. من ذا يمكن أن يقف الحتمية؟

ثم.. لماذا يوقفها؟

العيش لذيذ في ظل " التطور ".. انفلات بلا قيود.. وانطلاق بلا حدود. متعة..

ومن الذي يتجه إلى وقفها؟ البنت المجنونة بالإغراء لتثبت ذاتها وتحقق كيانها؟ أم الولد الغارق في المتاع الميسر اللذيذ الذي لا يكلف دراهم معدودات؟

أم بيوت الأزياء ودور السينما والمخرجون والمنتجون والــ.. الذين يعملون في تلك الصناعة الرابحة بالملايين؟

أم " الأدباء " و " الفنانون " الذين تروج كتبهم وأعمالهم في هذا السعار المجنون؟

أم الشياطين الذين يقودون البشرية إلى الدمار؟

كلا!

* * *

ومع ذلك.. يقف أناس ليصيحوا صيحات النذير!

يقف أناس ليقولوا: قد جاوزنا المدى وأبعدنا في التيه!

يقف أناس ليقولوا: عودوا إلى " الفطرة ". عودوا إلى الأخلاق. عودوا إلى الفرامل. فأنتم تدمرون أنفسكم. تدمرون مستقبلكم. تدمرون " البشرية "!

أناس من اتجاهات شتى.. ليس فيهم واعظ من رجال الدين!

رجال " علم " ورجال " سياسة ". وفلاسفة. وملحدون!

وتتوالى الشهادات من تلك الأفواه.. أفواه القرن العشرين!

يقول.. " ألكسس كاريل " في كتابه " الإنسان ذلك المجهول ":

" إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب، لأنها لا تلائمنا. لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا **الحقيقية**. إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس، وأوهامهم، ونظرياتهم ورغباتهم. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا [ص 38].

يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء. ولكن الواقع هو عكس ذلك. فهو غريب في العالم الذي ابتدعه. **إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته**.. ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية.. فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لا بالنسبة لقومنا، ولا بالنسبة لهيئتنا.. إننا قوم تعساء **لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا**.. **إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها**.. " [ص 43 - 44].

" إن الحضارة لم تفلح حتى الآن في خلق بيئة مناسبة للنشاط العقلي. وترجع القيمة العقلية والروحية المنخفضة لأغلب بني الإنسان - إلى حد كبير - للنقائص الموجودة في جوهر السيكلوجي. **إذ أن تفوق المادة ومبادئ " دين الصناعة " حطمت الثقافة والجمال والأخلاق** " ص [184]

" لقد ارتكب المجتمع العصري غلطة جسيمة باستبداله تدريب الأسرة بالمدرسة استبدالا تاما. ولهذا تترك الأمهات أطفالهن لدور الحضانة، حتى يستطعن الانصراف إلى أعمالهن، أو مطامعهن الاجتماعية، أو مباذلهن، أو هوايتهن الأدبية أو الفنية، أو اللعب البريدج، أو ارتياد دور السينما.. وهكذا يضيعن أوقاتهن في الكسل. إنهن مسئولات عن اختفاء وحدة الأسرة واجتماعاتها التي يتصل فيها الطفل بالكبار، فيتعلم منهم أموراً كثيرة.. إن الكلاب الصغيرة التي تنشأ مع أخرى من نفس عمرها في حظيرة واحدة، لا تنمو نمواً مكتملا كالكلاب الحرة التي تستطيع أن تمضي في إثر والديها. والحال كذلك بالنسبة للأطفال الذين يعيشون وسط جمهرة من الأطفال الآخرين وأولئك الذين يعيشون بصحبة راشدين أذكياء. لأن الطفل يشكل نشاطه الفسيولوجي والعقلي والعاطفي طبقا للقوالب الموجودة في محيطه. إذ أنه لا يتعلم إلا قليلا من الأطفال في مثل سنه. وحينما يكون مجرد وحدة في المدرسة، فإنه يظل غير مكتمل. ولكي يبلغ الفرد قوته الكاملة فإنه

يحتاج إلى عزلة نسبية، واهتمام جماعة اجتماعية محددة تتكون من الأسرة " [ص 318 - 319].

" من المعروف أن الإفراط الجنسي يعرقل النشاط العقلي. ويبدو أن العقل يحتاج إلى وجود غدد جنسية حسنة النمو، وكبت مؤقت للشهوة الجنسية حتى يستطيع أن يبلغ منتهى قوته.. ولقد أكد فرويد، عن حق، الأهمية القصوى للدوافع الجنسية في وجوه نشاط الشعور. ومع ذلك فإنه ملاحظاته تتعلق بالمرضى على الأخص.. ومن ثم يجب ألا تعمم استنتاجاته بحيث تشمل الأشخاص العاديين، وبخاصة أولئك الذين وهبوا جهازا عصبيا قويا، وسيطرة على أنفسهم.. وبينما يصبح الضعفاء، المعتلو الأعصاب، غير المتزنين، أكثر شذوذا عندما تكبت شهوتهم الجنسية، فإن الأقوياء يصيرون أكثر قوة، بممارسة هذا الشكل من الزهد " [ص 174].

" الإنسان نتيجة الوراثة والبيئة وعادات الحياة والتفكير التي يفرضها المجتمع العصري. ولقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات في جسمه وشعوره، وعرفنا أنه لا يستطيع تكييف نفسه بالنسبة للبيئة التي خلقتها " التكنولوجيا " وأن **مثل هذه البيئة تؤدي إلى انحلاله**. وأن العلم والتكنولوجيا ليسا مسئولين عن حالته الراهنة، **وإنما نحن المسئولون، لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع. لقد نقضنا القوانين الطبيعية، فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى. الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائما.. فالحياة لا تعطي إلا إجابة واحدة حينما تستأذن في ارتياد الأرض المحرمة.. هي إضعاف السائل.. ولهذا فإن الحضارة آخذة في الانهيار** " [ص 322].

*   *   *

ويقول " ول ديورانت " الفيلسوف الأمريكي في كتابه " مباهج الفلسفة ":

" وثقافتنا اليوم سطحية، ومعرفتنا خطيرة، لأننا أغنياء في الآلات فقراء في الأغراض. وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الديني، وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقياتنا؛ ويبدو العالم كله مستغرقا في فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنا المضطرب. إننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التي أقلقت بال سقراط. نعني كيف نهتدي إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التي بطل أثرها في سلوك الناس؟ **إننا نبدد تراثنا الاجتماعي بهذا** الفساد الماجن من جهة، وبهذا الجنون الثوري من جهة

أخرى، حين نفقد الفلسفة التي بدونها نفقد هذه النظرة الكلية التي توحد الأغراض وترتب سلم الرغبات... " [45] [ص 6 - 7 ج 1]

" واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر في تغير أخلاقنا. فقد كان القانون الأخلاقي قديما يقيد الصلة الجنسية بالزواج، لأن النكاح كان يؤدي إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما، ولم يكن الوالد مسئولا عن ولده إلا بطريق الزواج. أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل، وخلقت موقفا لم يكن آباؤنا يتوقعونه، لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذة في التغير نتيجة هذا العامل. ويجب على القانون الأخلاقي في المستقبل أن يدخل في حسابه هذه التسهيلات الجديدة التي جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة!... " [ص 125 ج 1]

" فحياة المدنية تفضي إلى كل مثبط عن الزواج، في الوقت الذي تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها ولكن النمو الجنسي يتم مبكرا عما كان من قبل، كما يتأخر النمو الاقتصادي. فإذا كان قمع الرغبة شيئاً عمليا ومعقولا في ظل النظام الاقتصادي والزراعي، فإنه الآن يبدو أمرا عسيراً أو غير طبيعي في حضارة صناعية أجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال، حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين. ولا مفر من أن يأخذ الجسم في الثورة، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان في الزمن القديم. وتصبح العفة التي كانت فضيلة موضعا للسخرية؛ ويختفي الحياء الذي كان يضفي على الجمال جمالا، ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم، وتطالب النساء بحقها في مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال. ويصبح الاتصال قبل الزواج أمرا مألوفا، وتختفي البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس. لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقي الزراعي، ولم يعد العالم المدني يحكم به [46] " [ص 126 - 127].

---

[45] يلاحظ أن الكاتب – مع إقراره بأن حرارة الإيمان الديني قد أنشأت ذات يوم اتزانا في العقل – لا يدعو ولا يعمل لاستعادة حرارة الإيمان الديني. إنما هو يلجأ إلى " الفلسفة " لتعيد اتزان العقل المفقود! والفلسفة في تاريخها الطويل كانت حصيلة ذهنية باردة، لم تؤثر قط في حياة البشرية الموارة. فالحياة البشرية لا تؤثر فيها إلا العقيدة الدافعة. ولكن الكاتب الغربي – الأمريكي – لا يملك إلا هذا الحل الهزيل.. لأنه هارب من الكنيسة!

[46] واضح أن الكاتب يسير هنا على هدى التفسير المادي للتاريخ، فيفسر التحلل الخلقي " بالتطور " الاقتصادي. ولن نناقش هذه " الشهادات " هنا، وإنما ننقلها كما هي بغير تعليق، لأن الذي يهمنا منها هو النتائج التي يصل إليها أصحابها في النهاية، من القول بأن هذا " التطور " أو أياً كان اسمه، ينذر البشرية بالانهيار. وهي نتيجة مشتركة وصل إليها " الشهود " جميعا على اختلاف مذاهبهم.

" ولسنا ندري مقدار الشر الاجتماعي الذي يمكن أن نجعل تأخير الزواج مسئولا عنه. ولا في أن بعض هذا الشر يرجع إلى ما فينا من رغبة في التعدد لم تهذب.. **ولكن معظم هذا الشر يرجع في أكبر الظن في عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعي للحياة الزوجية. وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو في الغالب ثمرة التعود قبله.** وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية في هذه الصناعة المزدهرة؛ وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه في عالم خلقه الإنسان. وهذا هو الرأي الشائع لمعظم المفكرين في الوقت الحاضر. **غير أنه من المخجل أن نرضى في سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية، وهي تعرض علينا في المسارح وكتب الأدب المكشوف، تلك التي تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية في الرجال والنساء المحرومين، وهم في حُمَّى الفوضى الصناعية، من حِمى الزواج ورعايته للصحة.**

ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة. لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن في ابتذال ظاهر. ويجد الرجل لإرضاء غرائزه الخاصة في هذه الفترة من التأجيل نظاما دوليا مجهزا بأحدث التحسينات، ومنظما بأسمى ضروب الإدارة العلمية. ويبدو أن العالم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها.. " [ص 127 - 128].

" **وأكبر الظن أن هذا التجدد في الإقبال على اللذة قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم دارون على المعتقدات الدينية. وحين اكتشف الشبان والفتيات – وقد أكسبهم المال جرأة – أن الدين يشهر بملاذهم التمسوا في العلم ألف سبب وسبب للتشهير بالدين...** " [ص 134]

" ولما كان زواجهما [الرجل والمرأة في المجتمع الحديث] ليس زواجا بالمعنى الصحيح – لأنه صلة جنسية لا رباط أبوة – فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذي يقوم عليه، ومقومات الحياة. يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع. وينكمش الزوجان في نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان. وتنتهي الغيرية الموجودة في الحب إلى فردية يبعثها ضغط حياة المساخر. وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية في التنويع، حين تؤدي الألفة إلى الاستخفاف. فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته... " [ص 225]

" لندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا. **أكبر الظن أنها لن تكون شيئاً نرغب فيه أو نريده.** فنحن غارقون في تيار من التغيير، سيحملنا بلا ريب إلى

نهايات محتومة لا حيلة لنا في اختيارها. وأي شيء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم، فالآن وقد أخذ البيت في مدننا الكبرى في الاختفاء، فقد فقد الزواج القاصر [المقصور] على واحدة جاذبيته الهامة. ولا ريب أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر، حيث لا يكون النسل مقصودا. وسيزداد الزواج الحر، مباحا كان أم غير مباح. ومع أن حريتهما إلى جانب الرجل أميل، فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شرا من عزلة عقيمة تقضيها في أيام لا يغازلها أحد. سينهار " المستوى المزدوج " وستحث المرأة الرجل بعد تقليده في كل شيء على التجربة قبل الزواج. سينمو الطلاق، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة. ثم يصاغ نظام الزواج بأسره في صور جديدة أكثر سماحة. وعندما يتم تصنيع المرأة ويصبح ضبط الحمل سرا شائعا في كل طبقة، يضحي الحمل أمرا عارضا في حياة المرأة، أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفال محل عناية البيت.. وهذا كل شيء "[47]. [ص 235 - 236].

* * *

ونشرت جريدة " أخبار اليوم " في عددها الصادر في 12 مايو 1962، تحقيقا صحفيا بعنوان " شباب العالم في طريق الضياع! " جعلت مقدمته هكذا: " إلى أين يتجه شباب العالم؟! في أمريكا يرتفع ترمومتر الانحراف بين الشباب.. وفي بريطانيا تتألف عصابات من المراهقين للسطو وتدخين الحشيش.. وفي سويسرا يتزايد الانحلال.. وفي روسيا يجتمع المجلس الأعلى للسوفيت ليبحث مشكلة انحراف الشباب الروسي.. لقد أبرقت " أخبار اليوم " إلى مندوبيها ومراسليها في عواصم العالم وطلبت منهم صورة كاملة من الانحراف الجارف الذي يهدد شباب العالم.! "

وهذا هو نص التحقيق:

من لندن كتب زغلول السيد:

إن جرائم من كل نوع يرتكبها الشبان في بريطانيا كل لحظة. وهي جرائم تختلف باختلاف الطبقات. إذ أن بريطانيا هي أكثر بلاد العالم حساسية بالنسبة لنظام الطبقات. الصحف البريطانية تنشر كل يوم جرائم تقع في مختلف أنحاء البلاد. وتصور لنا هذه

[47] ألف الكاتب كتابه هذا سنة 1929! وقد تحققت كل الشرور التي توقعها الكاتب يومئذ، فأصبح المجتمع الأمريكي كما توقعه بالفعل، كما أن هذه الشرور ذاتها تنتقل - بالعدوى - إلى المجتمعات " المتحضرة " التي تنقل حضارتها عن الغرب.

الجرائم تلك الجريمة التي وقعت أخيراً عندما دخل بعض الشبان السينما، ولم يعجبهم الفيلم فانهالوا على مقاعد السينما الوثيرة يمزقونها بالسكاكين، ثم مزقوا الشاشة بأيديهم. وكانت النتيجة أن أغلقت السينما أبوابها. ولم يكن هذا الحادث هو الأول من نوعه. وإنما كان الثالث!

هجوم العصابات:

ومنذ أيام نظمت إحدى عصابات الشباب هجوما على عصابة أخرى وطعنت بالسكاكين عشرة من أفرادها. وقد أعد الهجوم كما تنظم الحملات العسكرية. فقد أرسلت عصابة " موسويل " بعض أفرادها للقيام بمهمة الاستطلاع ثم بدأ بعد ذلك الهجوم بالسكاكين والعصي والقضبان الحديدية والزجاجات المكسورة. وكان أفراد العصابة الأخرى يرقصون التويست في قاعة البلدية. وفاجأتهم عصابة " موسويل " بالهجوم وارتفعت صرخات الفتيات اللاتي كن يشتركن في الرقص وسالت الدماء في كل مكان.

جرائم الطبقة الدنيا:

ومثل هذه الجرائم هي التي يشتهر بها أفراد الطبقة الدنيا. وهي في الواقع أفظع الجرائم وأكثرها إزعاجا... فالشبان المنحرفون من أفراد هذه الطبقة يتجمعون أحياناً في عصابات كبيرة ويهاجمون القرى والمدن الصغرى ويتصرفون بالطريقة التي يشاهدونها في الأفلام تماماً.

5 شبان أمام القاضي:

وفي الأسبوع الماضي وقف خمسة شبان أمام القاضي الإنجليزي سيمور كوليتر في ويست لندن بتهمة الانحراف والبطالة. قال القاضي لجون بومونت (23 سنة) إنك شاب تتمتع بإمكانيات طيبة. ولكنك تترك نفسك تتهاوى وتزداد كسلا وخمولا حتى تصل إلى مرحلة لا يستطيع أحد أن يساعدك فيها.

وقال القاضي لبول إيفا " 23 سنة " هل تعتقد حقاً أن أي شخص يمكن أن يستخدمك في عمل. وأنت تترك شعرك يسترسل على جبينك ورقبتك؟

وقال لشارلس ويستوود (21 سنة) يلزمك قدر كبير من المجهود لتجعل من نفسك إنساناً مهذبا.

تركت الكلية إلى الشارع:

ويرد الشبان بأقوال مختلفة. فمالكوم دريك (23 سنة) قال: " لقد ساعدني أبواي على تحصيل قدر كبير من التعليم. ولكن في منتصف مرحلتي الدراسية بالكلية بدأت أتساءل: ما الذي سأكونه في المستقبل؟ ورأيت نفسي مساعد صيدلي أجلس طوال اليوم وراء " البنك " وعندما تمعنت في هذه الحياة لم أجد فيها كثيراً من السعادة. كل ما فيها مرض وأدوية وحبوب مهدئة.. ولذلك فقد تركت الكلية، وقررت أن أحيا طليقاً فـــي شوارع لندن وباريس! "

احتقار الحياة.. بالإجماع:

إن هؤلاء الشبان جميعاً مجمعون على احتقار الحياة، وكان مثل هؤلاء يموتون في الشوارع من الجوع، أما المتعطلون في لندن منذ ثلاثين عاما الآن فإن المجتمع يساعدهم "على نحو ما" على الحياة.

يشرح أحدهم وهو شارلس ويستوود كيف يحصلون على نقود فيقول: " إن دخلنا الأسبوعي يتراوح بين 30 و40 شلنا، ونحن نحصل على المال من الفتيات اللاتي يشفقن علينا، أو الفتيات اللاتي يشعرن بالسرور منا، كما نحصل على المال من السياح الذين يريدون التقاط صور لنا، أو من زائري لندن الذين يريدون الاطلاع على خبايل الليل في المدينة. أو من المثقفين الذين يقضون الليل في مناقشتنا، أو من الناس الذين يشعرون بالوحدة ويريدون رفيقا. أو باختصار من أي شيء مشروع ولكن بلا مجهود أو عمل ".

جرائم الحشيش:

وهذا النوع من الجرائم التي يرتكبها الشبان المتعلمون من الطبقة المتوسطة مثل تدخين " الحشيش " يتزايد باستمرار. ويجذب هذا النوع من الجرائم الفتيات تماماً كما يجذب الشبان. ولكن لما كان من الصعب على الفتيات أن يحصلن على " الحشيش " فإنهن يلجأن إلى نوع من أقراص المخدرات الخفيفة. وتباع هذه الأقراص سراً في بعض المقاهي والبارات. وقد اكتشف البوليس في بلدة إيستبورن أن طالبات المدارس يتناولن هذه

الأقراص. والسبب الذي أبدينه هو " الهرب من الحياة " [48] وأسوأ مناطق الإجرام والانحراف في لندن منطقة " سوهو " التي تنتشر فيها أوكار المخدرات وحيت ترقص الفتيات التويست طوال الليل حتى إذا طلع الصبح يصبح التخدير والإرهاق قد أعياهن فلا يهمهن بعد ذلك ماذا يحدث لهن!

مواجهة الحقائق:

والسؤال الآن: ما الذي تفعله بريطانيا لمواجهة هذه الجرائم المتزايدة؟

لقد ذهبت إلى إدارة الأحداث المنحرفين بوزارة الداخلية. وقابلت مستر رومان مدير الإدارة الذي قال لي إن أسباب الجرائم تختلف من طبقة إلى أخرى. وإن أسوأ أنواع الشبان المنحرفين هم الشبان الذين ينتمون إلى الطبقات الدنيا. ولقد دل التحقيق على أن تربية الطفل مسئولة إلى حد كبير عن سلوكه. ولقد كانت الحرب مسئولة في البداية. فقد هاجرت بعض الأسر أثناء الحرب وتركت أطفالها الذين لم يجدوا آباء وأمهات يعتنون بهم. واتجه الكثيرون منهم إلى الجريمة.

ولا شك أن السينما والتليفزيون لهما تأثيرهما على الشبان أيضاً. لقد شنق صبي في الثالثة عشرة من عمره صديقا له بجورب أمه. وعندما سئل عن السبب أجاب قائلا: " لقد رأيت شيئا كهذا في التليفزيون. "

العلاج:

وقد أمرت الحكومة بإجراء تحقيق خاص في مسألة الأفلام والمسرحيات العنيفة التي تعرض في التليفزيون. ولكن هذا ليس السبب الوحيد في انتشار جرائم الشباب. لقد قال مستر بومان إن الحكومة لم تستطع توفير التسهيلات اللازمة لكي يقضي الشبان أوقات فراغهم بطريقة مرضية، ولذلك فإن الحكومة تشترك الآن في مشروع كبير يهدف إلى بناء مزيد من الأندية وحمامات السباحة وغير ذلك من وسائل قضاء وقت الفراغ.

---

[48] في بحث جديد للدكتور لينيكن في جريدة الصنداي تيمز الإنجليزية بتاريخ 27 يناير سنة 1963 يقول عن الشباب المنحرف الذي يتعاطى المخدرات هناك: " إنهم يقولون إن الحشيش محاولة للتعبير عن أنفسهم، ولتحديد ملامحهم في مجتمع ضائع. في عالم بلا شكل! وهم يفخرون بأنهم قد فتحوا لنا باب إدراك الخيال الإنساني! "

وفي نفس الوقت يشترك جيش كبير من الأطباء والإخصائيين الاجتماعيين والإخصائيين في التربية في دراسة أسباب انحراف الشبان واحتياجاتهم ومشاكلهم.

صورة من سويسرا:

ومن سويسرا كتب إبراهيم سعدة:

الوقت الواحدة بعد منتصف الليل. الشوارع خالية تماما.. البرد يجمد الأطراف ويشل حركة الدم في العروق. وفجأة ظهرت سيارة قديمة مكشوفة!.. لا تعرف لونها فهي مطلية بجميع الألوان الطبيعية وغير الطبيعية. لوحة طائشة عبثت بها ريشة الفنان الغريب الذي يقلد بيكاسو. رسومات عجيبة. فوق هيكل السيارة. ونوافذها. وكل مكان فيها. حتى ليصعب عليك التقاط أرقامها.. أكثر من 7 أشخاص كانوا يركبون هذه السيارة.

لا يمكنك أن تفرق بين الصبي والفتاة. الملابس واحدة. نفس البنطلون الضيق جداً الذي يحدد أكثر مما يخفي. نفس " البلوزة " الملونة بالأحمر والأخضر والهباب مع النمبي. الشعر طويل ويصل إلى أعلى الدقن.. وإلى ما وراء القفا.

إلى داخل الشقة:

ثم وقفت السيارة أمام إحدى الفيلات المتناثرة في إهمال أمام بحيرة جنيف. ويدور المفتاح المفقود في القفل.. وتندفع المجموعة داخل الشقة – في الدور الثاني من الفيلا – وتضاء الأنوار.. والشموع.. وتفرقع زجاجات النبيذ والبيرة والويسكي ثم يسكب كل هذا في وعاء كبير لتكوين أعجب كوكتيل لم يسمع بمثله أمهر " متردوتيل " حتى يومنا هذا! وانسابت الموسيقى من الآلة الصغيرة التي تدور فوقها أحدث الأسطوانات الراقصة وغير الراقصة.. واختفت الأنوار.. واكتفت المجموعة بالشموع الملونة.. والأضواء غير المباشرة والتي تنبعث من خلف مقعد.. من وراء ستارة.. فوق دولاب! ووضع كل " مخلوق " سيجارة أو سيجارا أو بيبة بين شفتيه.. وبدأت حلقات وسحب الدخان المتباينة تحلق في سقف الغرفة الضيقة. وكان لا بد من الرقص لتكتمل " الحفلة ".. ولم تنتبه المجموعة إلى أن الساعة قاربت الثالثة صباحا.. بل اختاروا أعنف أنغام راقصة كالروك أندرول.. وأجنها كالتويست، وبدأوا يضربون بأقدامهم وأجسامهم فوق الأرض... ثم توزع أوراق " الكوتشينة " بالتساوي على اللاعبين.. ثم يسحب الأول ورقة من اللاعب الثاني فإذا وجده عنده مثلها ألقى بالورقتين على الأرض.. وهكذا حتى ينتهي الدور بأن تتبقى ورقة أخيرة في يد لاعب فيعتبر الخاسر في هذا الدور.. ويستحق توقيع العقاب عليه.. والعقاب

الوحيد في هذه اللعبة هو أن يقوم الحاضر بخلع أي قطعة من ملابسه.. فيبدأ عادة بخلع الجاكيت.. أو الكرافت.. أو الحذاء.. وهكذا حتى تنتهي اللعبة بأن يخلع اللاعبون ملابسهم كلها ويصبحون عرايا كما ولدهم أمهاتهم.. بين ضحكاتهم وصرخاتهم وغمزاتهم.. وتزداد هذه الصرخات في حالة وجود فتاة أو أكثر ضمن " الشلة "..

وحكاية أخرى..

ولم تتنبه كل العائلات إلى نداء الصحافة! إن بعضها لم يستفد من الدرس المؤلم الذي جاء بعد القبض على " شلة " المراهقين التي كتبتها في بداية هذا التحقيق! الدليل.؟ لقد عرفت سويسرا عصابات البلوفر الأسود.. إنها البدعة المستوردة من باريس.. الشباب الضائع الذي استطاع الهروب من سيطرة الآباء فعاش في الشوارع والمقاهي والمواخير.. حياة بوهيمية لا معنى لها.. الأيام تمر وهو في مكانه في المقهى أو على الرصيف، لا يشعر بها حتى تنتابه حالة من حالات الملل والضيق.. فيقرر أن يقدم على شيء يبعده عن هذا الضيق وهذا الملل ويقربه من الضياع.. أي شيء خارق للعادة ليلفت إليه الأنظار.. وتنشر صوره في الصحف ويقفز اسمه إلى الصفحات الأولى.. ويتحدث عنه الناس في كل مكان.

الشباب الضائع فقد زمامه:

هذه المشكلة لا تهم سويسرا وحدها.. وإنما تعاني منها معظم دول أوربا. بدأت الأزمة في باريس.. فقالت الصحافة إن الشباب الفرنسي مظلوم إن السينما الأمريكية هي السبب. أفلام المغامرات والعصابات ورعاة البقر هي التي حطمت معنويات الجيل الجديد. إن المراهق الفرنسي يقلد آل كابوني.. ويحلم بالثراء بعد السطو على أحد البنوك على الطريقة الأمريكية التي يشترط فيها اختفاء جميع رجال الشرطة تماما من أمام البنك لحظة تنفيذ الخطة. آراء أخرى لا توافق الرأي الأول وتقول إن السينما والأفلام الأمريكية مظلومة وبريئة من هذا الاتهام. وإن أهم أسباب انحراف الشباب في فرنسا هو انحلال المجتمع نفسه. انعدام الروابط بين أفراد الأسرة. سياسة " عدم المبالاة " التي يطبقها الآباء في تربية الأولاد. إن ترك المراهق وحده في هذا الحياة المبكرة يدفعه إلى الحيرة.. والضياع. الأفلام المثيرة تؤثر فيه.. التصرف الخاطئ يجد فيه نوعا من المغامرة.

حفلات ساهرة وألوف الجنيهات:

ففي كل شهر – على الأكثر – تقام في باريس حفلة ساهرة للشباب يغني فيها جوني هوليدي الذي لا يزيد عمره على 18 سنة ومطرود من المدارس الإعدادية

وصاحب مئات الألوف من الجنيهات الآن! ويتسابق أكثر من 10 آلاف مراهق ومراهقة لسماع هذا المغنى.. برغم ارتفاع ثمن تذكرة الدخول. تبدأ السهرة في التاسعة مساء ولا تنتهي إلا بعد تدخل البوليس والمطافئ والإسعاف والآباء.!

وتسيل الدماء ويسقط العشرات قتلى وجرحى!

الرقابة الدقيقة:

وعلماء النفس يطالبون أولا بالعلاج الوقائي.. يطالبون بفرض الرقابة الصارمة على الأفلام السينمائية.. سلسلة الأفلام الإباحية المنحلة التي تخرجها فرنسا وألمانيا وإيطاليا يجب أن تتوقف.. أن يمنع عرضها تماما لا أن يقتصر على تحديد سن المتفرج بعمر معين. هذه الرقصات الانحلالية يجب أن تمنع من التلفزيون ومن المحال العامة.. والقبض على المنحل جوني هوليدي وأمثاله وإيداعهم إصلاحيات يتربون فيها.

جرائم الأحداث في أمريكا:

ومن واشنطون كتب فريد زوسي:

سجلت جرائم الأحداث في الولايات المتحدة ارتفاعا ملحوظا في العام الماضي معادلها منذ 12 سنة على التوالي حيث بلغ عدد الأولاد الذين مثلوا أمام محاكم الأحداث حوالي المليون. بعد أن كان هناك 773 ألف قضية أمام محاكم الأحداث في عام 1959.

ومشكلة الأحداث تثير الأمة الأمريكية. ولا سيما بسبب امتدادها إلى الطبقات العليا في المجتمع. كما أن هناك نسبة عالية من الانحراف بين الفتيات، ويثرن مشكلة كبيرة في كيفية التصرف معهن لأن معظم مؤسسات الأحداث خاصة بالأولاد.

وقد ألقى البوليس أخيراً القبض على مجموعة من الأولاد تتراوح أعمارهم بين 15 و 17 سنة من أغنى العائلات متهمين في 11 تهمة سرقة وأربع تهمات اقتحام منازل، ومتهمين بسرقة سيارة، وعشر تهمات تخريب وتدمير. وفي نيوجرسي قبض البوليس على عصابة تضم 17 من الأحداث بتهمة سرقة أشياء ثمينة تقدر أثمانها بحوالي 10 آلاف دولار وبيعها بأثمان بخسة. ولقد اعترفوا بأنهم يتلقون من آبائهم أموالا كافية تجعلهم في غنى عن السرقة، وأنهم أقدموا على السرقة لأنها " شيء مثير ". وفي ويست شستر وهي إحدى الضواحي الغنية بمدينة نيويورك اتهم المدعي العام أكثر من 250 شابا

معظمهم من العائلات الغنية المعروفة ببيع واستخدام المخدرات. وقد تحول الكثيرون منهم إلى مدمنين وبعضهم من طلبة الجامعات.

قانون الكونجرس الأمريكي:

وقد أصدر الكونجرس الأمريكي أخيراً بعد ست سنوات من المناقشة قانون جرائم الأحداث عام 1961 ووقعه الرئيس كنيدي. ويعد هذا القانون بمثابة نقطة تحول في مكافحة جرائم الأحداث، وهو يخصص 30 مليون دولار لهذا الهدف خلال السنوات الثلاث القادمة، ولما كانت البطالة بين الشباب من الأسباب الرئيسية للانحراف، لذلك أكدت حكومة كنيدي عزمها على القيام ببرنامج ضخم لتشغيل الشباب، ومن مراحل هذا البرنامج إنشاء قوات السلام خارج الولايات المتحدة وفي أعالي البحار.

مشكلة دولية:

وهنك حقيقة هامة هي أن جرائم الأحداث ليست مقصورة على أمريكا ولكنها مشكلة ذات طابع دولي، وقد أكد ذلك عدة مئات من المندوبين من جميع أنحاء العالم الذين حضروا مؤتمر الأمم المتحدة لمنع الجريمة وتقويم المنحرفين الذي عقد في لندن عام 1960 وحضره مندوبون من الاتحاد السوفيتي أيضاً.

* * *

وأخيراً تجيء تلك الشهادة من رئيسي أكبر دولتين في العصر الحاضر، الدولتين الحاكمتين بأمرهما في الأرض، واللتين تتنازعان فيما بينهما مناطق النفوذ في العالم أجمع.

في عام واحد، 1962، يصدر تصريحان من رجلين يباعد بينهما ما بين الشيوعية والرأسمالية من خلاف في المذهب وخلاف في السياسة وخلاف في الوسائل. ولكن يجمع بين تصريحيهما شبه واضح. إن كلا منهما يقدم إنذاراً لشباب وطنه، أنه جاوز المدى في انحلاله، وأنه في طريقه إلى الانهيار.

قال خروشوف: إن الشباب الشيوعي قد بدأ ينحرف ويفسده الترف! وإن من بينه " عصبجية وصيّعا! " وأنذر بأن الحكومة السوفييتية تبحث إطلاق يد البوليس في معالجة هؤلاء " البلطجية " كما أنذر بأن معسكرات جديدة قد تفتح في سيبيريا للتخلص من الشباب المنحرف لأنه خطر على مستقبل روسيا!!

وقال كنيدي: إن الشباب الأمريكي مائع منحل مترف غارق في الشهوات، وإنه من بين كل سبعة شبان يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين، بسبب انهماكهم في الشهوات! وأنذر بأن هذا الشباب خطر على مستقبل أمريكا. وأهاب بالعلماء والمصلحين الاجتماعيين أن يبحثوا هذا الخطر ويقرروا العلاج!

* * *

ولا يفوتنا أن نشير إلى الفضيحة الكبرى التي حدثت في إنجلترا منذ قريب وأتهم فيها وزير الحرب بإذاعة أسرار عسكرية هامة تعرض وطنه للخطر في مقابل شهوة دنسة مع فتاة ساقطة تحيط نفسها بجو من الدعارة يسقط فيه الأمراء والوزراء!

وهذا كله فوق حوادث الجنون والانتحار ولأمراض العصبية والنفسية وضغط الدم، الآخذة في الزيادة المستمرة، والتي لا مثيل لها في عددها وفي ضراوتها، في كل أجيال التاريخ!

* * *

إنها أمور خطيرة جداً تلك التي تقولها شهادة القرن العشرين!

إنها تقول أولا: إن هذا التحلل الخلقي ليس " تطورا " وإنما هو **انحراف**.

وتقول ثانيا: إنه انحراف ضار بالكيان البشري مؤدٍ إلى الدمار.

وتقول بالتالي: إن هناك " فطرة " للإنسان، تتأذى من كل شيء لا يلائم طبيعتها، وتمرض من استمرار تعاطيه.

وتقول كذلك: إن هذه الفطرة **ثابتة**، فما كان يؤذيها ويدمرها قبل ألفي عام ما زال يؤذيها ويدمرها بعد مرور الأجيال الطوال، ولم يحدث فيها " تطور " يجعلها تصحّ على ما كانت تمرض به في تلك الأزمان. بل هي ما زالت تمرض به على نفس الصورة وبنفس المقدار.

وتقول أخيراً إن الجانب الخلقي – على الأقل – من حياة الإنسان، ذو مقياس ثابت يقاس به في جميع الأجيال، فما كان صوابا في علاقات الناس – وعلاقات الجنسين

بصفة خاصة – قبل ألفي عام، ما يزال هو الصواب، وما كان خطأ وانحرافا في تلك العلاقات ما يزال هو الخطأ والانحراف، بعد كل " التقدم " العلمي، " والتطور " الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، " والتحور " النفسي في ألفين بل ألوف من الأعوام!

وخلاصة ذلك كله أن أي نظام لحياة البشرية ينبغي أن يجعل في حسابه ذلك المقياس الثابت للأخلاق، مهما كانت مرونته في الجوانب المادية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، التي ينبغي أن تنمو، وينبغي أن يسمح لها بالنمو في ظل أي نظام صالح للحياة..

وهذا يقودنا إلى الحديث عن موقف الإسلام من الحياة البشرية..

الإسلام وحَياة البشرية

الإسلام دين الفطرة..

ومزيته العظمى أنه يساير الفطرة ويطابقها مطابقة كاملة.

وقد تحدثت في كتابين سابقين عن لون هذه المطابقة ومداها. فتحدثت في كتاب " منهج التربية الإسلامية " عن طريقة الإسلام في تربية النفس البشرية، وكيف أنه يشملها كلها من جميع جوانبها، ويشملها كلها في آن واحد:

" طريقة الإسلام في التربية هي معالجة الكائن البشري كله معالجة شاملة لا تترك منه شيئاً ولا تغفل عن شيء. جسمه وعقله وروحه، حياته المادية والمعنوية، وكل نشاطه على الأرض.

إنه يأخذ الكائن البشري كله، ويأخذه على ما هو عليه، بفطرته التي خلقه الله عليها، لا يغفل عن شيء من هذه الفطرة، ولا يفرض عليها شيئاً ليس في تركيبها الأصيل.

ويتناول هذه الفطرة في دقة بالغة فيعالج كل وتر منها، وكل نغمة تصدر عن هذا الوتر، فيضبطها بضبطها الصحيح.

وفي الوقت ذاته يعالج الأوتار مجتمعة. لا يعالج كلا منها على حدة فتصبح النغمات نشازا لا تناسق فيها. ولا يعالج بعضها ويهمل البعض الآخر، فتصبح النغمة ناقصة غير معبرة عن اللحن الجميل المتكامل، الذي يصل في جماله الأخاذ إلى درجة الإبداع " [49]

وفي كتاب " دراسات في النفس الإنسانية " عدت إلى رسم مكوّنات النفس الإنسانية وطريقة الإسلام في معالجتها " ووكدت بصفة خاصة حقيقة الترابط في كيان الإنسان:

" هذا الكيان الإنساني المفرد، لا نصل إلى كل قراره في الحقيقة حين ندرك فقط أنه كيان مزدوج الطبيعة، ثم ندرك أن هناك امتزاجا بين عنصريه المكوّنين له، يجعله - وهو يجمع بين نشاط الملَك ونشاط الحيوان - يؤدي كلا منهما بطريقته الخاصة، طريقة

[49] منهج التربية الإسلامية، ص 19 من الطبعة الثانية.

الإنسان، التي تحمل مشابه من الملك ومشابه من الحيوان، ثم تفترق في النهاية عن الملك والحيوان.

ليس هذا هو القرار الأخير في كيان الإنسان!

وإنما نصل إلى قراره حين ندرك أن في الحقيقة كيان موحد، على الرغم مما في طبيعته هذه من ازدواج.

كيان موحد.. كل ما ينبعث عنه من نشاط فإنما يصدر عن كيانه الموحد المتشابك المعقد التركيب!

أعمال الإنسان كلها ذات ترابط وثيق وإن بدت منفصلة في بعض الأحيان.

النشاط المادي والنشاط المعنوي..

النشاط العملي والنشاط التعبدي..

النشاط الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، والنشاط الفكري والروحي..

كل لون من ألوان النشاط هذه وما شابهها قد يبدو لأول وهلة نشاطا منفصلا، متخصصا، مستغرقا، يقوم به الإنسان بجانب من جوانبه، ولا يتصل ببقية الجوانب أي اتصال..

وذلك وهم ظاهري، كوهم تجزؤ الإنسان إلى جسم وروح منفصلين.

وَهْمٌ يغري به بروز أحد هذه الجوانب في لحظة وتوارى الجوانب الأخرى مؤقتاً وراء هذا البروز " [50]

وهنا في هذا الكتاب نبحث الموضوع من زاوية أخرى، هي زاوية الثابت والمتطور في كيان الإنسان، وطريقة الإسلام في معالجة النفس البشرية في هذا المقام.

* * *

[50] دراسات في النفس الإنسانية، فصل " طبيعة مزدوجة "

إن الكيان البشري وحدة..

وحقيقة إن فيه جوانب ثابتة وجوانب متطورة كما رأينا فيما سبق من البحث. أو فيه – على الأصح – صور متغيرة وجوهر ثابت.. ولكن عجيبة الإنسان الكبرى أن الثابت والمتطور فيه يكوّنان وحدة واحدة في النهاية، مترابطة متماسكة متحدة، لا يمكن فصل بعضها عن بعض.

العقل البشري يتطور.. ينمو على الدوام.. تجدّ له معلومات وخبرات وتصورات. ولكنه مع كل تطوره لا يقفز وحده خارج كيان الإنسان، ويتطور بمفرده، تاركا بقية النفس. **وإنما يتطور وينمو وهو في داخل الإطار الكلي للإنسان،** سواء في ذلك الإنسان الفرد، أو الإنسان المتجمع في صورة مجتمع.. وكذلك النتاج العلمي أو المادي لهذا التطور، إنه ينمو على الدوام، ولكنه لا يستقل بنفسه عن الكيان البشري، وإنما يأخذ حيّزه – مع تطوره الدائم – في داخل الكيان الثابت الذي يتكون منه " الإنسان ".

والنمو الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، والنمو النفسي كذلك.. كل شيء ينمو ويتطور، وهو في النهاية داخل في الكيان الثابت الذي لا تغير جوهرة التطورات..

ومن هذا الخيط المزدوج يأخذ الإسلام الأمر، وعلى أساسه يقيم نظامه للحياة البشرية.

* * *

" بسم الله الرحمن الرحيم. يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً "[51] صدق الله العظيم.

فـــي هذه الآية الواحدة العجيبة أربع قضايا متوالية تحدد الجانب الثابت من حياة البشرية!

" اتقوا ربكم الذي خلقكم " " من نفس واحدة " " وخلق منها زوجها " " وبث منهما رجالا كثيراً ونساء "

[51] سورة النساء [1].

وإنه للون من الإعجاز أن تجتمع القضية هكذا، أو القضايا الأربع، بهذا التتابع السهل البسيط، في آية واحدة معدودة الكلمات!

آية واحدة تقص في إيجاز معجز كل تاريخ البشرية..!

وتجيء آيات أخرى كثيرة في القرآن الكريم فتفصل جوانب هذه القضية تفصيلا وتزيدها بيانا. وسنستعرض بعض هذه الآيات في أثناء الحديث التفصيلي عن تلك القضية أو القضايا الأربع المتوالية، ولكنا نريد هنا أن نبرز اجتماعها في تلك الآية المفردة التي تحدد في بساطتها تلك حقائق البشرية الأساسية في ألفاظ معدودات.

قضية الربوبية. قضية وحدة الإنسانية. قضية وحدة الجنسين. قضية المجتمع البشري.. أربع قضايا متوالية تحدد الإطار الذي تعيش في داخله البشرية.

" اتقوا ربكم الذي خلقكم " قضية الربوبية والخلق. الله هو الخالق. قضية أزلية ثابتة لا تغيرها كل تطورات التاريخ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ! ومن ثم يترتب عليها تقوى الله. فتنشأ القضية الأولى في حياة الإنسان: قضية العقيدة.

" من نفس واحدة ".. قضية الإنسانية الناشئة من نفس واحدة. من أصل واحد مشترك. من كيان واحد يضمها جميعاً. قضية ثابتة لا تغيرها كل تطورات التاريخ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ! ومن ثم يترتب عليها أخوة البشرية.

" وخلق منها زوجها ".. قضية الجنسين، الرجل والمرأة، أحدهما من الآخر. فالمرأة " من " ذات النفس التي هي الرجل.. قضية ثابتة لا تغيرها كل تطورات التاريخ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ! ومن ثم يترتب عليها المساواة " الإنسانية " بين الجنسين، وكذلك وجود علاقة ثابتة بين الجنسين.

" وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ".. قضية المجتمع المتكون من الأفراد، الناشئين من نفس واحدة، والذي هم أخوة في الإنسانية. قضية ثابتة لا تغيرها كل تطورات التاريخ، ولا تفقدها مكانتها كل تطورات التاريخ! ومن ثم يترتب عليها أن تكون تنظيمات المجتمع قائمة على هذه الحقائق: الأخوة ووحدة النشأة ووحدة " النفس " البشرية..

هل تتغير هذه الحقائق أو " تتطور " بتطور أساليب الإنتاج أو تقدم العلوم؟ أم هل تتغير دلالتها؟!

إنها ثابتة لا تقبل التغيير، لأنها حقائق " تاريخية " وجدت وانتهت، ولا سبيل إلى تغيير حقائق التاريخ!

وعلى هذه الحقائق الأربع الثابتة، تقوم حقائق أخرى، وتشريعات وتوجيهات، لا بد أن تكون ثابتة لأنها تتعامل مع حقائق ثابتة، ولا بد أن تكون دائمة ما دامت الحياة البشرية على الأرض.

ونأخذ في التفصيل...

*   *   *

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ "

قضية الربوبية والخلق هي القضية الرئيسية في التصور الإسلامي، لأنها **الحقيقة الأولى** التي تنبثق منها كل الحقائق التالية وتعود إليها.

إن الله هو الخالق الذي خلق الكون وخلق الإنسان.. ومن ثم فهو " الرب " الذي ينبغي عبادته.. وحده.

تلك حقيقة أزلية **لا سبيل إلى تغييرها!** فكل التطور المادي والعلمي والاقتصادي والاجتماعي والنفسي لن يوجد خالقاً جديداً يُنسب إليه الخلق كله وخلق الإنسان خاصة، غير الله! وكل ما يحدثه " الإنسان " على وجه الأرض من تغيير وتطوير، وإنشاء وتعمير، وهدم وتدمير.. كله لا يغير تلك الحقيقة الأزلية، ولا ينشئ خالقاً في السماوات والأرض غير الله!

والملحدون من أمثال جوليان هكسلي، الذين يقولون إن الإنسان ينبغي أن يأخذ على عاتقه ما كان يلقيه من قبل في عجزه وجهله على عاتق الله.. يهزلون! ولا يحترمون عقولهم.. وإن كانوا " مخلصين " في إلحادهم – كما يعتذر لهم بعض " المثقفين "! – فهم يسيئون تفسير حقائق الحياة. فالله الذي خلق الإنسان قد منحه الخلافة في الأرض: " وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً "[52]. ومن مقتضى هذه الخلافة أن **ينشئ** الإنسان بإذن الله أشياء وأوضاعا وأحداثاً على وجه الأرض. أن **ينتج**. أن **يعمل**.

[52] سورة البقرة [30].

أن **يطور** الموجود ليبدع منه أشكالا جديدة على الدوام. وذلك معنى الخلافة التي جعلها الله للإنسان... أفذلك يغري الإنسان أن ينسى حقيقته ويخاصم الله! " أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ؟! " [53]

ماذا أحدث الإنسانُ على غير قانون الله؟!

أليس في كل ما يعمل وينتج وينشئ ويطور، يعمل بمقتضى القانون الإلهي الذي أودعه فطرة الكون، وكل عمله " أن يتعرف " على " القوانين الطبيعية " التي هي " سنة الله ".. يتعرف عليها بما وهبه الله من طاقة المعرفة، ثم يحاول التطبيق عليها، بمقتضى ما وهبه الله من قدرة على التطبيق؟

أي شيء في عمله كله خارج عن النطاق الذي رسمه له الله؟

كلا! إنهم يهزلون ولا يحترمون عقولهم.. أو يعميهم الجهل عن حقيقة الناموس..

لا خالق إلا هو في السماوات والأرض.. تلك هي الحقيقة " العلمية " التي تنشأ منها كل الحقائق الأخرى في هذا الوجود.

وما دام هو الإله، فمقتضى ألوهيته أن يقوم العباد بعبادته: " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ " [54].

والعبادة لفظ شامل واسع محيط. إنه ليس شعائر التعبد المحصورة المحدودة. ولكنها **كل شيء**. **هي عمل العباد كله**. فالعباد مخلوقون للعبادة. أي أن كل عملهم الذي يعملون مفروض أنه عبادة. ومن ثم يلتقي العمل بالشعائر التعبدية ويصبحان شيئاً واحداً في عرف الإسلام.

وما دام هو الإله الواحد الأحد، فمقتضى وحدانيته هو إفراده بالعبادة. فلا يعبد غيره في الأرض. وليس معنى ذلك هو المعنى الضيق المحصور، وهو ألا يسجد الإنسان لأحد ولا يركع لأحد. فهذا المفهوم لا يناسب إلا المفهوم الضيق للعبادة المحصور في الشعائر التعبدية. ولكن العبادة بمعناها الحقيقي، التي هي **عمل الناس كله**، هي التي ينبغي

[53] سورة يس [77].
[54] سورة الذاريات [56].

أن تكون لله وحده ولا تكون لأحد غيره من الخلق. **فكل** العمل البشري – وهو العبادة – ينبغي أن يكون لله وحده دون شريك.

فيأكل الإنسان لله ويشرب لله ويسكن ويلبس لله. وينشط نشاطه الجنسي لله. ويملك لله. ويقاتل لله. ويبرز لله. ويحب لله ويكره لله إلخ.. الخ وذلك هو معنى العبادة لله في نطاقها الواسع.. نطاقها الحقيقي.

ومقتضى وحدانيته كذلك أن تكون له الحاكمية وله التشريع. فالحاكمية ألوهية، وطاعة الحاكمية عبودية.. ولن يشرع إنسان للناس – من عنده – إلا أن يكون شاعراً أن الناس ينبغي أن يطيعوه هو ولا يطيعوا سواه. أي – بمعنى من المعاني – يعبدوه! وما دام يضع لهم عقوبات حين يخرجون على طاعته – هو – فهو يستعبدهم لنفسه، وهم – حين يطيعونه راضين – يتعبدون له! ويستوي أن يكون المشرع إنساناً فرداً أو مجموعة من الناس تعطي نفسها الحق في التحليل والتحريم لبقية الناس، وترسم العقوبات للمخالفين.. إنها تعطي نفسها حقوق الإله، وتتطلب من الناس ما يتوجهون به إلى الله. وهو ما لا يحق لهم ما داموا ليسوا آلهة ولا خالقين..

تلك هي القضية الأولى في التصور الإسلامي. أن تكون العبادة لله وحده. والحاكمية لله وحده. والتشريع من عند الله وحده.

وهي قضية تقوم على حقيقة أزلية.. وحقيقة " علمية " هي أنه لا إله إلا الله.

والذين يدعون إلى أن يشرع الإنسان لنفسه، ويضع القواعد لنفسه، ها هم أولاء في صراحة يقولون: إن الإنسان ينبغي أن يحمل على عاتقه هو ما كان يضعه على عاتق الله من قبل، **ويصبح هو الله!** (55)

ويلتقي بهذه الحقيقة الأزلية حقيقة مقابلة في الفطرة.. أن الفطرة البشرية تتجه إلى عبادة الله: " وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا " (56)

وتلك حقيقة علمية، تثبتها وقائع التاريخ..

(55) جوليان هكسلي، كتاب " الإنسان في العالم الحديث " [وغيره كثيرون!]
(56) سورة الأعراف [171].

الإنسان في كل عصوره وكل أحواله يعبد الله. ولكنه يهتدي تارة ويضل أخرى. فيعبد الله على صفاء وصحة، أو يعبده في صور منحرفة، أو يعبده ويشرك به آلهة أخرى..

ولكنه في كل حالة يعبد الله.. الخالق.. الذي خلقه وخلق الكون والحياة.

ولا تحتاج الفطرة إلى من يوجهها إلى عبادة الله. فهي تعبده تلقائيا – ضالة أو مهتدية – بلا تدخل. وإن كانت توقيعات مختلفة من الكون في الحس البشري " توقظ " الفطرة وتنبهها إلى حقيقة الله.

العجز البشري، الذي يحسه الإنسان في أعماقه مهما وصل من القوة والمقدرة. العجز عن تحقيق **كل** ما يريده الإنسان والسيطرة على **كل** ما يريد السيطرة عليه. العجز عن الخلود. العجز عن معرفة الغيب. العجز على أن يكون الإنسان إلها، يقوم بذاته ولا يحتاج إلى مدد من خارجه.. من غذاء أو كساء أو جنس!!

والروعة التي يحسها الإنسان إزاء الكون.. الكون الهائل، والكون الدقيق. الأجرام المروعة في ضخامتها، والدقة المعجزة في تفصيلاتها وجزئياتها وتنظيماتها ودورة أفلاكها.

والموت.. الذي يروع الحس البشري ويلجئه للبحث عن واهب الحياة.

وروعة حدوث الأحداث: الليل والنهار، والزمان والمكان، والموت والحياة، والصحة والمرض، والغنى والفقر، واللذة والألم والسعادة والشقاء.. الخ

كلها توقيعات يوقعها الكون على الحس البشري، فتوقظ فطرته إلى الله! [57]

والإسلام يقيم نظامه كله على هاتين الحقيقتين المتقابلتين: حقيقة وجود الخالق وحقيقة توجه الفطرة إليه.

فهو يمنح الإنسان عقيدة في الله، تلبي فطرته المتوجهة إلى الله، وتصحح الفطرة وتقومها من ضلالها إن ضلت عن حقيقة الله. عقيدة تلبي حاجة الإنسان الفطرية إلى الله. وحاجتها الفطرية إلى عبادته. وحاجتها الفطرية إلى التعرف على مركزها من الحياة والكون، وعلى حقيقة الصلة بينها وبين الله.

---

[57] انظر فصل الدين والفطرة في كتاب الدراسات.

وعقيدة – من ناحية أخرى – تنظم حياة الإنسان، بمقتضى عبوديته لله وحاكميه الله له، فتجعل التشريع كله والتنظيم، مستمدا من العقيدة، مرتبطا بها متعلقا بعبادة الله.[58]

وعقيدة – من ناحية ثالثة – تجعل التشريع والتنظيم متمشيا مع فطرة الإنسان، في الثبات والتغير على السواء! ومن ثم تلتقي العقيدة بالفطرة في كل اتجاه.

* * *

والنظم التي خرجت على تلك الحقيقة الأزلية، ماذا صنعت ببني الإنسان؟!

لقد صنعت بهم شرورا كثيرة..

استعبدتهم بعضهم لبعض.. في حدود " الوطن " الواحد، وفي حدود العالم الكبير!

" فالطبقة الحاكمة " كما تعترف المذاهب كلها، تشرع لنفسها ولمصالحها على حساب بقية الطبقات. أي أنها تتأله على حساب الآخرين، وتستعبد الآخرين لحسابها ألوانا من الاستعباد.

و " الفرد الحاكم " هو الطاغية في كل أطوار التاريخ..

ذلك في حدود " الوطن ".. أما في حدود العالم الكبير، فأمة تستعبد أمة وتذيقها العذاب، وهذه وتلك خارجتان على الله!

واستعبدتهم لشهواتهم.. فحين ينفلت الإنسان من ضوابط العبادة الحقة لله تملكه شهواته ونزواته، فيستعبد لها ويستذل.

ووضعت لهم نظما لا تلائم فطرتهم [انظر ألكسس كاريل] لأنها قائمة على الجهل المطبق بحقيقة الإنسان. وكان من جراء هذه النظم هذا الفساد الذريع والشقاء الذي يغشى وجه الأرض..

---

[58] انظر كتاب " هذا الدين " وكتاب " المستقبل لهذا الدين ".

ومزقتهم، بين حاجتهم الفطرية إلى الله والعقيدة، وبين التنظيمات الضرورية لهم، لأمنهم وراحتهم، والتي تستمد – في حياهم – من عند غير الله. فتتضارب الحاجات، وتتمزق المشاعر، ويحدث الجنون والاضطراب..

وفي النهاية تهدد – كما رأينا في شهادة القرن العشرين – بتدمير البشرية! [59]

*　　*　　*

والعقيدة في الله أمر ثابت، لثبات الحقيقة التي ترتكن إليها، وهي وجود الخالق ووجود المخلوق.

ومن ثم كانت العقيدة – كما أنزلها الله – ثابتة في جميع أطوار التاريخ. لا تتبدل ولا يطرأ عليها تغيير.

" لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ... وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ.. وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ.. وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ... " [60]

دعوة واحدة على مدار التاريخ..

ولكن للعقيدة جانبها المتطور على مدار التاريخ! جانب التشريع والتنظيم الذي يناسب درجة النمو التي تكون عليها الأمة وقت الرسالة. النمو النفسي والاجتماعي والعقلي..

وحين تبلغ البشرية رشدها تجيئها العقيدة في صورها الأخيرة الثابتة، وتحمل هذه العقيدة في الوقت ذاته كل المرونة المطلوبة لتطورات المستقبل [كما سيجيء بالتفصيل في نهاية الفصل]: " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْأِسْلامَ دِيناً " [61]

---

[59] راجع كتاب " الإسلام ومشكلات الحضارة " لسيد قطب.

[60] سورة الأعراف.

[61] سورة المائدة [3].

أما الذي يزعمه علم الاجتماع الغربي من " تطور " العقيدة في الله ذاتها، ليوحي إيحاء خبيثا بأن العقيدة أمر بشري، ابتدعه البشر في جهالتهم، وينبغي أن نتبرأ منه في عصر النور (!).. أما هذا فمغالطة لا تثبت للتمحيص

إن الذي " تطور " لم يكن هو العقيدة في الله. إنما كان انحراف العقيدة في الله!

حين عبدت البشرية أباها، وعبدت الطوطم، وعبدت الوثن، وعبدت قوى الطبيعة المفرقة.. كانت في كل ذلك تنحرف عن العقيدة الصحيحة في الله، وتتصوره تصورات شتى منحرفة، تتطور في كل مرة مع تطور " المعلومات " والتصورات البشرية، والتشابكات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.. ولكنها لم تكن في شيء من ذلك تتبع دين الله.

ومن ناحية أخرى فمن الثابت في التاريخ – الذي أغفله علم الاجتماع الغربي عن عمد – أن البشرية – فيما بين انحرافاها المتكررة " المتطورة " – قد مرت بفترات فاءت فيها إلى العبادة الصحيحة – عن طريق الرسالات السماوية – قبل أن تعود مرة أخرى إلى الانحراف.

ومن ثم فإن " تطور " التصورات المنحرفة يفقد دلالته التي يلصقها بها علم الاجتماع الغربي. فهو ليس دليلا على أن الدين قد ابتدعه البشر ولم ينزله الله، وليس دليلا كذلك على أن العقيدة في الله عنصر متطور، يجيء عليه وقت يزول من النفوس بحكم " التطور ".. وتستبدل به عبادة أخرى، أو لا عبادة على الإطلاق!

بل إن هذه الانحرافات " المتطورة " لتعطي دلالة عكسية لما يقوله علم الاجتماع الذي أبدعته الشياطين!

إنها تعطي دلالة **ثبات العقيدة!** ففي جميع الأجيال، وعلى جميع المستويات توجد عقيدة في الله!! تهتدي أو تضل، وتأخذ صوراً شتى، ولكنها في النهاية عقيدة في الله! فهي إذن عنصر ثابت في كيان الإنسان!

والقرن العشرون، أو " علماؤه " من الشياطين، لا يستطيعون أن يأخذوا من هذه الانحرافات التوجيه الذي يريدونه، وهو أن الناس في القرن العشرين أحرار في ألا يعبدوا الله! وأن الخروج من عبادة الله ظاهرة " بشرية " آن أوانها في القرن العشرين!

كلا! إن ما أثبتته الفطرة في مئات الألوف من السنين.. لا يلغيه الواقع المنحرف لبعض الشياطين في القرن العشرين، ممن فسدت فطرهم فارتكسوا إلى ما دون مستوى الآدميين!

* * *

" اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ".

ينتقل القرآن بعد ذلك إلى القضية التالية، بعد قضية ربوبية الخالق وعبادة العباد.

" خلقكم من نفس واحدة ".

تلك الحقيقة الثابتة لا تغيرها التطورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ولا التطور في أساليب الإنتاج! إن شيئا من ذلك كله لا يقول إن الإنسان يرجع في تاريخه إلى أصول متعددة.

حتى التفسير الحيواني للإنسان – تفسير دارون – لم يقل إن هناك أصولا متعددة للجنس البشري. وإنما هو أصل واحد مشترك في نهاية المطاف.

ولكن تلك الحقيقة الثابتة تعطي كثيراً من المعطَيات.

إن وحدة البشرية وأخوّتها حقيقة علمية. تترتب عليها أمور خطيرة في علاقات الناس بعضهم بعض.. أمور تغفلها النظم " البشرية " كلها، ويذكرها الإسلام.

ولا نعود إلى النظم السالفة، التي جعلت من الناس قوما منبوذين لا حقوق لهم، ولا كيان، ولا " آدمية ".. إنما نتحدث عن النظم " المتحضرة " الراقية في القرن العشرين!

كيف تبدو أخوّة البشرية ووحدتها في ظل " التفرقة العنصرية " التي تشوه وجه الأرض في القرن العشرين، في أمريكا المتحضرة، وانجلترا [في جنوب أفريقيا] وغيرها من بلاد الله؟!

كيف تبدو هذه الحقيقة الثابتة في ظل النظم التي استكبرت عن عبادة الله وقالت إنها شبت عن الطوق، ولم تعد في حاجة إلى وصاية الله أو وصاية الرسل والأنبياء.. لأنها تعيش في عصر " العلم " و " التقدم " و " المدنية "؟!

كيف هي حين يمسك البيض " المتحضرون " بشاب زنجي ذنبه أنه أسود اللون، فيضربونه ويركلونه حتى الموت، ويعلقونه في فروع الشجر زيادة في التنكيل، ورجل البوليس الأبيض واقف ينظر ولا يتدخل حتى ينتهي الجرم البشع الشنيع!

تلك هي الحضارة! الحضارة الراقية التي تستكبر على الدين. وتنظر إلى العقيدة في الله على أنها رجعية وتأخر وانحطاط!

* * *

والإسلام قد راعى هذه الحقيقة الثابتة في تشريعاته وتوجيهاته:

" وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** "[62]. ولم يقل أبيضكم. ولا أكثركم " حضارة! " من ذلك النوع الذي يبيح قتل الملونين لأنهم ملونون، ويثور ثورة همجية حين تأمر الدولة بإعطاء أحدهم حق التعليم في مدارسهم وهو من أبسط حقوق " الإنسان "!

" لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى "[63]

" اسمعوا وأطيعوا، ولو استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة، ما أقام فيكم كتاب الله تبارك وتعالى "[64]

وراعاها في واقعه التاريخي. فبلال الحبشي الأسود هو مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يظهر على ظهر الكعبة فيؤذن يوم الفتح، وهي التي يعظمها العرب في الجاهلية والإسلام. وعمار وابن مسعود كذلك هما اللذان يجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما وبين أبي بكر وعمر – رضي الله عنهم – في حديث واحد في شأن واحد فيقول: " إني لا أدري ما بقائي فيكم فاقتدوا باللذين من بعدي – وأشار إلى أبي بكر وعمر – واهتدوا بهدي عمار، وما حدثكم ابن مسعود فصدقوه "[65]

---

(62) سورة الحجرات [13].
(63) أخرجه الطبري.
(64) رواه البخاري.
(65) أخرجه الترمذي.

وراعاها مع غير المسلمين، لأنها حقيقة لا تتعلق بوجود المسملين، وإنما تتعلق بوجود " الناس ": " " يا أيها **الناس** اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ". فعامل الناس جميعاً على أساس إنسانيتهم المطلقة ما داموا لا يفسدون في الأرض ولا يحاربون المسلمين ولا يفتنونهم في دينهم: " لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ " [66]

بل راعاها في الحرب مع الذين يقاتلونه في الدين! فكانت تلك المعاملة الإنسانية الكريمة التي لم يعرفها التاريخ في غير حروب المسلمين!

والذين لا يؤمنون بالله ولا يريدون أن يكونوا مسلمين في كل الأرض، لعلهم يستنبطون شيئا من التفسير المادي للتاريخ، أو التفسير الحيواني للإنسان يبررون به وحشياتهم في السلم والحرب، في الاضطهاد العنصري والقتل والتدمير على نطاق واسع، وفي وسائل التعذيب الوحشي التي يستخدمها الطغاة من حكامهم ليسندوا ألوهيتهم الزائفة.. في عصر " الحرية " و " التقدم " والاستكبار عن عبادة الله!

*   *   *

وقد انعكس هذا المفهوم الإسلامي عن وحدة البشرية وأخوتها في مجموعة من التشريعات والتوجيهات والتقاليد، لم يكن لها مثيل في تاريخ الأمم الأخرى كلها، خارج نطاق الإسلام.

فقد انبثق من هذا المفهوم بادئ ذي بدء أن يكون المسلم هو القاعدة الأولى للبشرية. فهذا هو الذي يتناسب مع أبناء " النفس الواحدة ": " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً " [67]. " وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ " [68] فالأمر الأول موجه إلى المؤمنين ليدخلوا في السلم كافة، ذلك بأن يسلموا أنفسهم كلها لله، فيسود السلام بينهم وبين فطرتهم، وبينهم وبين الكون من حولهم، وبين بعضهم وبعض، وبذلك يصبحون الأمة الراشدة التي تشرف على بقية البشرية: " وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً " [69] الأمة التي تجعل من

---

[66] سورة الممتحنة [8].
[67] سورة البقرة [208].
[68] سورة الأنفال [61].
[69] سورة البقرة [143].

نفسها المثال الذي تترسمه البشرية، فأولى بها أن تكون ترجمة صادقة لمفهوم القرآن، وتكون خالصة لله. والأمر الثاني يحدد العلاقة بين هذه الأمة المؤمنة وغيرها من الناس. فإن جنحوا للسلم، إن امتنعوا عن العدوان، وأطلقوا الحرية للدعوة إلى الله بينهم، تاركين الناس لحرية اقتناعهم، فالأمر للمسلمين أن يجنحوا هم كذلك للسلم، وقد باتت الأبواب مفتوحة أمامهم لمزاولة الدعوة إلى دين الله في الأرض، بلا حاجز من سلطة تحول بينهم وبين الناس، وإقامة نظام الله في الأرض بلا مانع من سلطة تحول بينهم وبين إقامة شريعة الله، ليسود السلام كل الأرض، تحقيقاً لأخوة البشرية في صدورها من " نفس واحدة ". فأما حين يقع العدوان على دعوة الله أو على المسلمين، أو على النظام الإسلامي، في صورة من صور العدوان، سواء بالوقوف في وجه الدعوة، أو محاربة النظام القائم على شريعة الله، أو فتنة المسلمين عن دينهم، فالحرب تقع لرد العدوان الظالم: " وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ " [70] " فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ " [71].

وانبثق عن هذا المفهوم كذلك أنه " لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ " [72]. حقيقة إن الإسلام هو الهدى. والمسلمون هم الأمة المهتدية الراشدة. ولكن ليس لهم مع ذلك أن يُكرهوا إخوتهم في البشرية على اتباع دين الحق! إنما عليهم أن يدعوهم إلى الهدى.. دعوة بالتي هي أحسن. كما يليق بالإخوة: " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ " [73] " وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " [74]. وإنما تقع الحرب في الدعوة لا لإكراه الناس على الدين، فالأمر صريح بأنه لا إكراه في الدين. ولكن لإزالة القوى الظالمة التي تحجب الهدى عن الناس. فإن جنحت تلك القوى الظالمة المعتدية إلى السلم وأبدت أنها لا تقف في سبيل الدعوة إلى الله الحق، فلا حرب ولا عدوان.

وانبثق عنه أن تكون العلاقة بين المؤمنين وأصحاب الديانات الأخرى هي علاقة المودة: " وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ

(70) سورة البقرة [190].
(71) سورة البقرة [193].
(72) سورة البقرة [256].
(73) سورة النحل [125].
(74) سورة النحل [125].

الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ " [75]. فهي علاقة المؤاكلة والتزاور والتزاوج.. وهي أوثق العلاقات.

ثم انبثق عنها أن يقوم العدل بين البشر على أساس إنسانيتهم وحدها. بصرف النظر عن أي اعتبار آخر.. ولو كان هذا الاعتبار هو العداوة للمؤمنين! ففي وسط الحرب الخبيثة التي كان يشنها اليهود على الإسلام في مهده، يحاولون زلزلة المؤمنين واقتلاع العقيدة الجديدة من جذورها قبل أن ترسخ في الأرض، والدس والكيد ونشر الأراجيف، وتشكيك الناس بعضهم في بعض، وإيذاء المسلمين والمسلمات في أعرضهم.. بالإضافة إلى الحرب الرسمية التي تستخدم فيها أدوات القتال، مع الغدر في هذه الحرب ونقض المواثيق وانتهاك الحرمات.. في وسط كل ذلك لا يقبل الإسلام عدواناً وقع على واحد من اليهود، إذ رُمِيَ بتهمة ظالمة وكاد يحكم عليه من أجلها، فيتنزل الوحي بتبرئته في هذه الآيات البينات: " إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا، وَاسْتَغْفِرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا، وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا، يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا، هَاأَنتُمْ هَـــؤُلاء جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجَادِلُ اللّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً، وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللّهَ يَجِدِ اللّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا، وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا، وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا، وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مُّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاُّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا " [76].
وقد نزلت هذه الآيات التسع بهذا التفصيل والبيان والتوكيد الشديد المكرر، لتحمي الرسول صلى الله عليه وسلم من الحكم على هذا اليهودي البريء الذي كانت القرائن – الظاهرة – كلها تتهمه، وكان الحق أنه بريء من الاتهام! ووضع الإسلام بذلك في عالم الواقع هذا المبدأ الإنساني الخالد.. الذي لا يوجد قط بهذه الصورة في غير الإسلام!

ثم كانت هذه التوجيهات العامة: " وَلا تَلْمِزُوا **أَنْفُسَكُمْ** وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ " [77]. " مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي

(75) سورة المائدة [5].
(76) سورة النساء [105 - 113].
(77) سورة الحجرات [11].

الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً " [78] [وهو مكتوب على الأمة المسلمة كذلك] " وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى " [79].

هكذا.. إنسانية على الاتساع! في السلم وفي الحرب سواء. في الحب وفي الكره سواء!

وكان هذا في نظر الإسلام عنصراً ثابتا في حياة البشرية، لا تقلبه الظروف والأهواء، لأنه ليس نابعاً من الظروف، وإنما ينبع من حقيقة ثابتة لا تغيرها تطورات " الإنتاج " ولا أحداث التاريخ!

* * *

والقضية الثالثة هي قضية العلاقة بين الجنسين.. وهي من أخطر قضايا البشرية.

" خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ".

إن الزوجين – الرجل والمرأة – من " نفس " واحدة. والإشارة إلى النفس هنا ذات دلالة لا تخفى. إن المشاركة ليست في " النوع الإنساني " فقط. ولكنها أخصّ من ذلك كثيراً. إنها المشاركة في " النفس ".. النفس الواحدة. ومن ثم يتشاركان في الكيان الإنساني الداخلي، الذي تشير إليه لفظة " النفس " كما يتشاركان في الإطار الخارجي للإنسان.. " فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى **بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ** " [80]... متداخلين ممتزجين لا يتميزان من حيث الكيان الإنساني للإنسان!

وهذه الحقيقة الأولية التي وضعها الإسلام بهذه الصورة، ورتب عليها ما يتفق معها من تشريعات، لم تفيء إليها البشرية خارج نطاق الإسلام إلا بعد فترة طويلة جداً.. وبعد صراعات مدمرة، حطمت الأسرة والمجتمع في الغرب، وحطمت الأخلاق والتقاليد، وأدت إلى تلك الفوضى الجنسية البشعة التي ردت الإنسان حيواناً يرتكس في سعار مجنون. بينما الإسلام قد أعطاها للمرأة تكريماً وكرما، مع المحافظة الكاملة على كيانها،

[78] سورة المائدة [32].
[79] سورة المائدة [8].
[80] سورة آل عمران [195].

وكيان الرجل معها، وكيان الأسرة والمجتمع.. وذلك هو الفرق بين دين الله ودين البشر الذين يشرعون لأنفسهم، ويزعمون لأنفسهم حقوق الإله!

لقد رتب الإسلام على هذه المشاركة في النفس الواحدة، نتائجها الطبيعية، فأعطى المرأة حق الملك والتصرف والكسب والعمل والتعليم، والزواج وطلب الطلاق، والمجادلة عن نفسها والمنافحة عن حقوقها.. وهي مصونة الأخلاق، تقوم بهذه الأمور كلها على مستوى " الإنسان " الراشد العابد النظيف، لا على مستوى الحيوان المنفلت من القيد، ولا الشيطان القاعد للفتنة والإغراء: " لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ "[81] " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهاً وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ "[82] " قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ "[83]

وفرنسا - المتحضرة - لم تعط المرأة حق التصرف المباشر فيما تملك، وحق التعامل المباشر مع المجتمع إلا في القرن العشرين! وأوربا كلها لم تعط المرأة حق المساواة في الأجر على العمل الواحد إلا في القرن العشرين. وما تزال انجلترا إلى هذه اللحظة لا تراعي هذه المساواة بين الموظفين والموظفات، بحجة أن المرأة تحمل وتلد وتطلب إجازة للوضع!

و لم تصل المرأة إلى هذه الحقوق حتى اضطرت أولا أن تخرج للعمل لتكفل نفسها لأنه لا عائل لها يكفلها! واضطرت ثانياً أن تتخلى عن أخلاقها لأنها قيد يمنع حصولها على العمل، من الرجل الحيوان الذي يريد - قبل أن يمنحها لقمة الخبز التي تريدها - أن ينال منها المتعة الحرام. ثم انتهى الأمر بها أن تقوم - غير مضطرة - بدور الفتنة في الأرض، وتحول الحياة في الغرب إلى ماخور كبير. ثم.. ثم قال الغرب بعد هذا الصراع الحيواني كله مع المرأة: إنه لا يعطي لها هذه الحقوق لأن ذلك مقتضى الحقيقة الأولية في خلق الرجل والمرأة، ولكن لأن " التطور " الاقتصادي قد اقتضى ذلك!! التطور " الحتمي "! أي.. والناس راغمون!! بينما يضع الإسلام هذه القواعد مبتدئا - بلا ضغط من الظروف الاقتصادية ولا قهر - والناس راضون، لأنهم بذلك يعبدون الله! ويضعها قواعد ثابتة - لأنها مستمدة من حقيقة ثابتة - تطبق في المجتمع الرعوي - الذي كان يوم نزل الإسلام - وفي المجتمع الزراعي الذي تلاه، كما تطبق في المجتمع الصناعي والمجتمع الذري سواء. لا

[81] سورة النساء [32].
[82] سورة النساء [19].
[83] سورة المجادلة [1].

دخل لها " بتطور " أساليب الإنتاج ولا تطور الاقتصاد والمجتمع. لأنها تتعلق بشِقّي " الإنسان ".. الإنسان من حيث هو إنسان!

* * *

وتتفرع من قضية الجنسين قضايا كثيرة متشعبة، ذات خطر كبير في حياة البشرية:

" وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً " [84]

الأزواج – كما مر بنا في الفقرة السابقة – من " أنفسكم ". من "نفس واحدة". ولكن الآية هنا تضيف بيان نوع العلاقة بين الجنسين واتجاهها وحكمتها.

لماذا خلق الله الأزواج؟ إن حكمة الله واسعة شاملة.. ولكن الآية تحدد الحكمة – أو تشير إلى بعض اتجاهاتها – " لتسكنوا إليها " ذلك هدف خلقة الزوجين في عالم الإنسان.

والسكن علاقة واسعة يشملها السكون والراحة والاطمئنان. وتظللها السكينة ويرفرف عليها الهدوء. وهذا ما يريده الله من علاقة الزوجين. إنه لا يريدها خصاما وعراكا تفسد معه طيبات الحياة. ولا يريدها مشغلة دائمة وهمًّا مقعدا مقيما كما هي اليوم في الغرب حين انفلت من إطار الوحي الإلهي وأخلد إلى الأرض واتبع هواه.

" وجعل بينكم مودة ورحمة " ذلك تركيب الفطرة: التجاذب بين الجنسين. ولئن كان القرآن لم يستخدم هنا كلمة " الحب " وإنما استخدم " المودة " فلأنه – من ناحية – يريد أن يرفع العلاقة إلى أفق شفيف منير، ولأنه – من ناحية أخرى – أكثر واقعية! إن الوله والعشق والتطلع.. مرحلة من مراحل الدفعة الجنسية، تقع في فورة الشباب ولكنها لا تدوم.. وليس من شأنها أن تدوم! إنما الذي يدوم هو المودة! إنها تشمل العلاقة كلها في جميع مراحلها، وتبقى بعد فتور الوله والعشق والتطلع بحكم طبائع الأشياء وطبائع النفوس!

---

[84] سورة الروم [21].

هذه القضية الثابتة ذات أطراف ثابتة، وعلاقات ثابتة. ومن ثم ترتبت عليها أمور ثابتة في حياة البشرية!

فالقضية تقوم ابتداء على وجود " الرجل " من ناحية و " المرأة " من ناحية. وتلك حقيقة ثابتة [فيما عدا انحرافات الفطرة التي سنتكلم عنها بعد قليل!] ثم على وجود تجاذب بين الرجل والمرأة من ناحية أخرى. وتلك حقيقة أخرى ثابتة. ثم على رغبة تحقيق السكن من هذه العلاقة القائمة على التجاذب من ناحية ثالثة. وتلك حقيقة كذلك ثابتة.

وإذ كانت جميع أطراف القضية ثابتة كما هو واضح.. فنتائجها لا يمكن أن تخضع للتطور والتغيير!!

وهنا تتداخل تلك القضية الثالثة [قضية الجنسين] مع القضية الرابعة التي سنتحدث عنها تفصيلاً في الفقرة التالية، وهي قضية المجتمع [" وبث منهما رجالا كثيراً ونساء "] فتتحدان معاً كل علاقات الجنسين.

إن هذا التجاذب القائم بين الرجل والمراة، ووجودهما في ذات الوقت في مجتمع، قد استلزم تطبيق العلاقة بينهما على أسس تلتقي مع فطرتيهما أولا، وتلتقي كذلك مع حقيقة وجودهما في مجتمع.

لو كان الأمر أمر رجل واحد وامرأة واحدة في كل الأرض.. لما احتاج إلى تنظيم كثير! ولكن خروج النسل من هذه العلاقة بينهما أولا، وتحول النسل إلى رجال كثير ونساء ثانيا، يجعل الأمر في حاجة إلى تنظيم دقيق محكم يمنع الخلل الذي ينشأ – كلما اتسعت الدائرة – من الفوضى التي لا يضبطها دليل.

لقد استلزم وجود رجال كثيرين ونساء – لا رجل واحد وامرأة واحدة – تنظيم صور " التجاذب " الذي يحدث حدوثا فطريا بين الرجال والنساء. لكي لا يصبح فوضى تصطدم فيه مختلف " التجاذبات " فتؤدي إلى ضياع " السكن " المرجو لكل نفس من جهة، وتؤدي إلى فساد روابط المجتمع من جهة أخرى. كما استلزم وجود النسل المنبث من لقاء شِقَّي النفس الواحدة قيام " الأسرة " وتنظيم علائقها.

وهكذا تشعبت علاقات كثيرة مختلفة من الحقيقة الرئيسية وهي خلق الزوجين وشد بعضهما إلى بعض برباط الجذب و " المودة ".. ثم صارت هذه العلاقات المتشعبة **ثابتة** لأنها ترتكز على حقائق ثابتة.

وأمر العلاقة بين الجنسين هو أشد ما يجادل فيه المصابون بلوثة التطور في الغرب والشرق، وأشد ما يجادل فيه الأولاد والبنات الذين أعمتهم الشهوة المنفلتة من قيادها، فلم تعد تبصر إلا متعة الجسد الفائر، و لم تعد تطيق قيداً يوضع في طريق السعار المجنون.

ولكننا ونحن نناقش الأمور الجادة في حياة البشرية لا ينبغي أن نغمض عيوننا عن الحقائق الثابتة " الصارمة " التي لا تلين لشهواتنا وأهوائنا، ولا تدور معها حيث تدور. " إننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع. لقد نقضنا قوانين الطبيعة فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى، الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائما... فالحياة لا تعطي إلا إجابة واحدة حينما تستأذن في السماح بارتياد الأرض المحرمة.. هي إضعاف السائل. ولهذا فإن الحضارة آخذة في الانهيار " [ألكسس كاريل].

لذلك لا ينبغي لنا ونحن نبحث هذا الموضوع الجاد، أن ندور مع شهوات الأولاد والبنات، أو نندفع وراء المصابين بلوثة التطور.. إنما ينبغي أن نبين لهؤلاء وهؤلاء حقائق الفطرة، فيساعدهم ذلك على مواجهة أزمتهم والتغلب عليها بإنشاء أوضاع تلائم الفطرة وتسير في اتجاهها..

إن ثبات العلاقة بين الجنسين، وعدم خضوعها " للتطور " أمر تمليه الفطرة التي لا حيلة لأحد فيها. والتي رأينا من شهادة القرن العشرين أنها لم تتطور في عشرين قرنا من الزمان، و لم تعط إلا إجابة واحدة في كلتا المرتين، وفي كل مرة استئذنت في ارتياد الأرض المحرمة!

لقد أعطت الفطرة إجابتها واضحة حاسمة جازمة في كل مرة انفلت فيها عقد " الضوابط " في علاقات الجنسين، وانفلت فيها الأولاد والبنات وراء دفعة الجسد لا يطيقون صبرا ولا يخضعون لتنظيم.

أعطت الفطرة إجابتها في اليونان القديمة وروما القديمة وفارس القديمة. وأعطت إجابتها في العالم الإسلامي يوم انحل وركبته الشهوات. وأعطت إجابتها في فرنسا في الحرب العظمى الثانية. وتعطي إجابتها الآن على نطاق واسع في كل الأرض، وفي أمريكا وروسيا على وجه التخصيص..

إجابة واحدة لا تتغير: الانحلال الخلقي والإباحة الجنسية.. معناها الدمار. معناها الشقاء. معناها الضياع. لا إجابة غير هذه الإجابة في كل التاريخ!

وعبثا حاول القرن العشرون أن ينجو من قانون الفطرة الصارم. أو من عقوبة الفطرة التي تصيب مخالفيها.

عبثا حاول أن يقول إنه خَلْق وحده لا شبيه له من قبل!

وعبثا حاول أن يقول إنه لا توجد " فطرة ثابتة " للإنسانِ!

وعبثا حاول أن يقول إن ما أصاب الأمم السالفة من الدمار مع النشاط الجنسي " الحر " لن يصيبه!

وعبثا حاول أن يقول إنه سيمنع الدمار قبل حدوثه لأنه جيل واع فاهم عارف دارس متعلم!

وعبثا حاول أن يقول إن لديه علاجا لكل داء!

عبث.. كله!

إنها إجابة واحدة ثابتة تصدر عن الفطرة الثابتة..

إما تنظيم علاقات الجنس بقيود من الدين والأخلاق والتقاليد.. وإما الانفلات الحر.. والشقاء البشع والدمار الرهيب..

تلك هي " الحتمية " الحقيقية.. لأنها حتمية الفطرة كما خلقها الله.

ما قيمة الجدل والإنكار؟

ما قيمة دفن الرءوس في الرمال؟

الشهوة لذيذة. نعم. والانفلات محبوب:

" زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا... [85] ".

ولكن العقوبة عنيفة، هائلة. مخيفة...

[85] سورة آل عمران [14].

الضغط العصبي والنفسي. الانتحار والجنون. الشذوذ والجريمة.. الدمار.

تلك شهادة القرن العشرين..

من ذا الذي يملك عقلا في رأسه، ثم يندفع وراء لوثة التطور، أو وراء شهوة الأولاد والبنات، وهو يرى أمامه النتائج بالفعل، منذرة بأبشع نهاية للبشرية؟!

بل من ذا الذي في قلبه ذرة حب لهؤلاء الأولاد والبنات ثم لا يمسك بحجزهم أن يتهاووا في الهاوية؟

إن علينا واجبا " إنسانيا " ضخما، نؤديه لأنفسنا. لإنسانيتنا. لأولادنا وبناتنا، أن نبصّرهم بحقيقة موقفهم وحقيقة الفطرة لكي لا يذهبوا في طريق الضياع.

وقد يكرهوننا – نعم – ونحن نبصرهم! كما يكره الطفل الطبيب ويسبه ويلعنه وهو يحقنه بالدواء!

ولكن أي أحمق يلقي الدواء من يده لأن الطفل يسبه ويلعنه؟ أو يتركه في لوثة الحمى لكي يحبه؟!

كلا! إن كنا جادين.. فلنتبين حقائق الفطرة، ونبينها للناس.

أو إن كنا لا نريد أن نتعب خواطرنا، أو كنا نحن – كالأولاد والبنات – نريد أن " نستمتع ". نريد أن " ننتهب لذة العيش ". نريد أن نلغ في حمأة الجنس.. فلنكن صرحاء! ولنقل إننا هكذا " مبسوطون " مرتاحون ملتذون لا نريد أن نفيق من دخان الحشيش والأفيون. وليكن بعد ذلك ما يمكن أن يكون!!

* * *

حقائق الفطرة تقول إن هناك تجاذبا فطريا بين الجنسين.. لا بد أن يأخذ سبيله إلى اللقاء. ففي أي صورة يكون هذا اللقاء؟ على صورة التخصص؟ أنثى معينة لكل رجل، ورجل معين لكل امرأة؟ أم علـــى صورة المشاع: كل أنثى لكل رجل وكل رجل لجميع النساء؟

تجربة القرن العشرين تعطينا الإجابة الحاسمة عن هذا السؤال.

إن المجتمع الغربي – أو الشيوعي – لم يصل لصورة الفوضى الكاملة. فما زال فيه أفراد فاضلون بل " متطهرون ". بل " متزمتون " يحافظون على التقاليد وينظرون بتقزز عنيف لتلك الفوضى الجنسية الضاربة بأطنابها هناك.. ومع ذلك.. مع أن الفوضى لم تصل لصورتها الكاملة.. فإن بوادر الانهيار قد بدت واضحة تنذر بانهيار المجتمع، مع القلة القليلة الفاضلة المتبقية فيه.. فكيف إذا زادت عن ذلك، وهي ما تزال في طريقها إلى الزيادة، لأن الشياطين لم تشبع بعد، ولم تزل تطلب المزيد من التدمير؟!

والمجادلون يقولون: لا هذا ولا ذاك.. لا التزمت ولا الإباحة.. شيء وسط بين الطرفين المتطرفين!

لا نحرم كل علاقة بين الجنسين، ولا نطلق لها العنان!

أكذوبة لطيفة مخدرة! تريح الأعصاب من عناء التفكير والتدبير، وحمل الهم، ووجع القلب!

نبيح للشبان والفتيات الاختلاط.. مع الرقابة!

الولد والبنت يشتركان في " النشاط الاجتماعي ". في الجامعة بلا شك. وفي المدرسة الثانوية إذا أمكن. وفي الشارع. والنادي. والـــ...

تحت رقابتنا!

ماذا يمكن أن يصنع الأولاد والبنات وهم تحت رقابتنا؟!

ستتهذب مشاعرهم. ويذهب الجوع الجنسي الناشئ عن الحرمان من ناحية. ويتعارف الجنسان من ناحية أخرى فلا يصير كل منهما مجهولا من الآخر متهيبا له، تملأ رأسه الخيالات المنحرفة عنه..

و.. تحت رقابتنا! ماذا يمكن أن يحدث تحت رقابتنا؟!

ولقد يحدث فعلا أن يميل ولد إلى بنت، أو بنت إلى ولد.. أليس كذلك؟

شيء فطري. ماذا يمنع؟.. تحت رقابتنا!

ولقد يحدث فعلا أن يشتد الميل.. شيء فطري!

فلنكن واقعيين! هل يمكن أن نمنع هذا الشيء الفطري؟

فلنكن بعيدي النظر: هل الأفضل أن يتم اللقاء خلسة.. أم تحت رقابتنا؟!

ولقد يحدث فعلا أن يطغى الميل ويشتد..

" يا سيدي.. وماله.. بكرة يتزوجها "!

فلنكن بعيدي النظر: هل الأفضل أن يتزوج بنتا لا تعرفه أو يعرفها.. أم بنتا تعرفه ويعرفها؟

ضمة؟! قبلة؟ في السينما أو في الشارع.. في الظلمة.. أو في الخلوة؟!

يا سيدي.. وماله..

شيءٌ من عبثٍ جنسي؟! لا ضير البتة. تجرب يأخذ منها خبرة.. والبنت؟ ستعرف صاحبها! تأخذ موعظة تنفعها في غفلتها! هل أنت ستحرسها إن شاءت أن تفسد؟ كلا! فلتتركها!

ماذا يحدث حتى من غير رقابتنا؟!!

تلك طريق الحرية في القرن العشرين!!

بدأت – والله! – بهذا التفكير المخلص لا من جانب الشياطين الذين أوحلوا بلوثة التطور وأوحوا بالانفلات من القيد والانطلاق كالحيوان.. ولكن في أذهان المربين والآباء والأمهات، وربما بعض " رجال الدين " المتطورين!

ثم.. كانت النتيجة التي يشكو منها المربون والآباء والأمهات والساسة والعلماء.. و.. رجال الدين!

لا وسط لشهوات البشرية!

لا وسط يمكن الوقوف عنده بالإرادة الواعية أو النية المخلصة..

إنما الوسط المتخيل الذي يراود الناس أحيانا، فيودون - في إخلاص - أن يقفوا عنده، هو مرحلة من مراحل " التطور! ". مرحلة من مراحل الانزلاق لا تكون قد أبعدت بعد في الهبـــوط! ولكنها مرحلة لا يمكن الوقوف عندها أبداً. تلك حتمية الفطرة! وتلك تجربة التاريخ!

لقد قال القرن التاسع عشر الذي بدأ تجربة الاختلاط هذه: سنقف عند المرحلة المأمونة. لن نوغل. لن نفقد أنفسنا. لن تبلعنا الهوة.. لكن لم يقدر أن يفعل! بلعته الهوة أو كادت في القرن العشرين!

والبطء الذي تتم فيه عملية الانهيار، البطء الذي يجاوز أعمار الأفراد إلى أعمار الأجيال، هو الذي يغري الأفراد بأن يعتقدوا أن الوقفة ممكنة عند الحد الأوسط!

كلا! وهم باطل! لم يحدث في التاريخ!

ليس " التطور " هو الذي يقول. ليس التفسير المادي هو الذي يقول. إنما تلك حقيقة الفطرة. وهي " الحتمية " المفردة الصادقة في كل هذه الأباطيل.

ما دام قد انفلت من القيد فلا وقفة!

والوقفة الظاهرية التي تستغرق جيلا أو بضعة أجيال هي التي تخدع المخلصين فتخيل لهم أن الوقفة أمر ممكن! إنما خدعة! انظر إلى رقعة أكبر لكي ترى حقيقة الخط الهابط ومدى الاندفاع! إن عقرب الساعات في الساعة بطيء الحركة فلو نظرت إليه لبضع دقائق فلن تراه يتحرك من مكانه! ولكن انظر إليه بعد ساعة! ثم بعد ساعات! والساعة ذات التقويم بها خانة تبين اليوم من الشهر. بطيئة الحركة! تتحرك مرة واحدة في اليوم. لو نظرت إليها بضع ساعات فلن تراها تتحرك من مكانها! ولكن انظر إليها بعد يوم كامل. ثم بعد أيام!

وانظر إلى التاريخ على نطاق واسع. انظر إلى الأجيال. في الجيل الواحد قد لا تتغير الصورة كثيراً. وإن كانت في هذا الجيل خاصة عنيفة التغيير، لأن الشياطين ينفخون فيها بعنف عنيف. ولكن انظر إلى رقعة واسعة لكي ترى الصورة على حقيقتها..

لا وسط لشهوات البشرية!

تلك حتمية الفطرة.. في نهاية المطاف! فطرة الفرد.. وفطرة الجماعات!

إن الشهوة **لا تشبع** بالإرواء الدائم! بل تشتد ظمأً وتجن!

خذ أمريكا مثلا..

هل في المجتمع الأمريكي حواجز تمنع من إرواء الشهوة؟ أي حواجز؟!

كلا! لا شيء البتة!

ومع ذلك ففي هذا المجتمع ذاته ينتشر إلى حد " الشبق " عشق الصور العريانة!

وتنتشر حوادث الاغتصاب والخطف الجنسي. والقتل بعد إتمام الجريمة الخلقية!

وينتشر – أبشع من ذلك – الشذوذ الجنسي في الأولاد والبنات على حد سواء!

وفرنسا وسويسرا وبلجيكا.. نفس الصورة.. ودول الشمال " أرقى " بلاد الأرض!

إجابة واضحة تعطيها الفطرة حينما تستأذن في ارتياد الأرض المحرمة! إجابة **ثابتة** في التاريخ!

*　　*　　*

هل معنى ذلك أن " نكبت " مشاعر الجنس؟

أو ليست المضار الناشئة من الكبت والحرمان وبيلة هي الأخرى؟

بلى! وبيلة!

الحرمان الكامل طويل يفسد مشاعر النفس ويتلف الأعصاب!

والشذوذ الجنسي الذي يصاحب الحرمان الطويل معروف في التاريخ. والخيالات المريضة التي تشغل كل جنس بالجنس الآخر، وتحصر تفكيره الظاهر والباطن في مشاعر الجنس. و.. و.. كل شيء معروف!

والحرمان الكامل الطويل مجاف للفطرة و لم يطلبه الله من البشرية!

إنما وضع نظاما " معتدلا " وسطا لا يكبت المشاعر ولا يطيل فترة الحرمان.

فالكبت بمعناه النفسي، أي استقذار الدافع الجنسي، أمر لا وجود له في مفهوم الإسلام، الذي يضع علاقة الجنسين في النور الكامل، ويقول إنها فطرة. وإنها فطرة سوية. وإنها فطرة مصرح بها ومرغوب فيها! " وإن في بضع أحدكم لأجراً! قالوا يا رسول الله: إن أحدنا ليأتي شهوته ثم يكون له عليها أجر؟! قال: أرأيت لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ قالوا: بلى! قال: فإذا وضعها في حلال كان له فيها أجر! " [86]

وتطويل فترة الحرمان أمر يأباه الإسلام **بكل** وسائله! فهو يدعو دعوة صريحة إلى التعجيل بالزواج. ويضع الترتيبات الاقتصادية التي تعين عليه، بما في ذلك إعانة بيت المال للشبان المتزوجين! فالنظام الإسلامي نظام متوازن في جملته تتناسق فيه التصورات الاعقتادية والتوجيهات الخلقية مع التنظيمات السياسية والاقتصادية، وتتكامل كلها وتتفاعل، لإنشاء مجتمع كامل فاضل. ومن ثم فهو لا يكل مسألة التبكير بالزواج لمجرد التوجيه، ولكنه يكفل لها التحقيق بتيسير وسائل الحياة العملية في نظامه المتكامل.

ولن نقف هنا طويلا لنناقش إمكانية هذا الأمر في تعقدات المجتمع الحالية! فالبشر مطالبون أن يكيفوا أوضاعهم على ضوء فطرهم، لا أن يمسخوا فطرهم على ضوء أوضاع يخضعون لها في ذلة واستخذاء! ثم.. إن التعقيدات الاقتصادية ليست هي السبب الحقيقي في إطالة فترة التعطل الجنسي التي تغري بالفساد! فالشباب في أمريكا يتكسب في سن مبكرة جداً، ثم ينفق كسبه في المتعة الحرام! لأن هذا هو التوجيه الذي تصبه في أعصابه الشياطين! ولا يعجز المجتمع الأمريكي الثري عن تنظيم عملية الزواج للشباب لو أراد.. لو كفت عن تضليله الشياطين! والمجتمع الشيوعي تعوله الدولة! ولا تعجز الدولة عن تنظيم عملية الزواج للشباب لو أرادت.. لو لم يكن في حساب القائمين عليها أن " الأخلاق " خرافة ينبغي أن تباد! ومع ذلك فقد سمعنا صيحة خروشوف المنذرة بالوبال!

أما نحن – المسلمين! – فنحن لا هنا ولا هناك! [87]

إنما يعنينا على أي حال أن نتبين طريقة الإسلام في مسايرة الفطرة، وتنظيم حياة البشرية على أساسها. على الأقل. لكي نعرفها!

لا كبت. ولا حرمان. ولكن تنظيم.

---

[86] رواه مسلم.

[87] انظر فيما بعد فصل " نحن والغرب "!

تنظيم يشمل الفرد والمجتمع في ذات الوقت، وبوسيلة واحدة مشتركة. فالمجتمع النظيف المتوازن، تقوم فيه الأسرة النظيفة المتوازنة، التي تربي الفرد النظيف المتوازن. والفرد النظيف المتوازن بدوره ينشئ الأسرة وينشئ المجتمع. ومن ثم يعمد الإسلام إلى تنظيف ضمير الفرد، بربط قلبه ومشاعره بالله، وتربيته على طاعته، وحبه وخشيته، وفي ذات الوقت يضع التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والتوجيهات الفكرية والروحية التي ترسي المجتمع على قواعده السليمة، التي تنشئ الأفراد المتوازنين.

وفي مسألة الجنس بصفة خاصة يكره الإسلام الاختلاط بلا سبب، ويبيحه في أضيق الحدود. ويمنع التبرج والفتنة ولا يبيحهما على الإطلاق! ويكره خروج المرأة بلا سبب ويبيح خروجها عند الاقتضاء نظيفة المشاعر نظيفة السلوك.

ويكره لها العمل الذي تتشبه فيه بالرجل، ومع ذلك يبيحه إباحة كاملة في حالة الضرورة. ويشجع على الزواج وييسر وسائله، ويدعو إلى التبكير فيه. ويمنع إقامة علاقات جنسية خارج هذا النطاق.

تلك هي الخطوط السريعة لسياسة الإسلام في أمر الجنس، وهي أمور سهلة ميسرة متناسقة مع النظام الإسلامي حين يطبق في واقع الحياة..

وكلها ترتكن إلى الفطرة ودوافعها و " حتمياتها ". كما ترتكن إلى الحقائق الثابتة في حياة البشرية!

* * *

التجاذب بين الجنسين – كما قلنا – فطرة، حتمية الحدوث. وما دام الجنسان ليسوا أفرادا معدودين، ولكنهم رجال كثير ونساء، فقد لزم تنظيم التجاذب بينهما لكي لا يؤدي إلى الفوضى والاضطراب.

وإباحة الاختلاط بلا سبب، وتبرج المرأة وانشغال بالها بالفتنة والإغراء هما اللذان أفسدا الغرب وأنشآ تلك النذر التي شكا منها كنيدي وخروشوف، والفلاسفة والعلماء.

فالإسلام لذلك لا يبيح هذا ولا ذاك.

وليس الحجاب التقليدي هو المقصود. ولا الكبت ولا الحرمان.

لقد كانت المرأة على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تخرج وتعمل وتقاتل وتعلم بنات جنسها.. كل ذلك بقدر الضرورة الواجبة لشخصها وللجماعة المسلمة.

نعم. وفي المجتمع المسلم تقوم بكل تلك الألوان من النشاط عند الاقتضاء. **في المجتمع المسلم**. أي في المجتمع النظيف الذي يعبد الله، ويطبق شريعته، ويأتمر بأوامره. أما في غير هذا المجتمع فليس لها – أو لأي أحد – أن يحتج بالحقوق أو الحريات التي أعطاها الإسلام للمرأة! وهي – والمجتمع معها – لا يطبقان في حياتهما هذا الإسلام.

إنه لم يقل لها – بداهة – أن تعيش وترضى بمجتمع غير مسلم، لا يطبق نظام الإسلام في حياته. فإذا هي قبلت أن تعيش في مثل هذا المجتمع – غير منكرة عليه – فما لها إذن وما للحقوق التي نظمها الإسلام للمجتمع الإسلامي، رجاله ونسائه على السواء؟!

ولم يقل لها – بداهة– أن تخرج متبرجة شغلتها الفتنة! فإذا كانت اليوم – بحكم العدوى الآتية من الغرب – تصنع ذلك، فهي وشأنها.. ولا شأن لها بالإسلام! ولا تتمحك في الإسلام!

وما دامت تخرج – في المجتمع المسلم – لهذه الشئون، فالعزلة الكاملة ليست قائمة بين الجنسين. ولكن لا تقوم العلاقات " الخاصة " بين الشبان والفتيات، والرجال والنساء. لا يقوم نظام " الأخدان " الذي يسمى " الصداقة " في الغرب.

وهي تخرج محتشمة كشرط أساسي لقيام المجتمع المسلم. تلك مسألة لا يمكن أن يتنازل عنها الإسلام!

ويقول دعاة الحرية ودعاة التطور ودعاة تطوير الإسلام (!) إن المسألة عادة! فنحن حين نعتاد أن نرى المرأة الحاسرة عن شعرها وذراعيها وساقيها.. لا يحدث شيء!! في مبدأ الأمر تحدث هزة.. هزة المفاجأة. ثم يصبح المنظر عاديا جداً.. لا يثير شيئا على الإطلاق. بل يصبح – عجبية! – أقل إثارة من الفتاة المغطاة الشعر والذراعين والساقين!

وسنسلم معهم – والله – بكل ما يقولون. ثم نظل عند رأينا.. رأي الإسلام!

إن الذين يقولون إن منظر المرأة الحاسرة لا يثير شيئا في نفس الرجل حين يعتاد عليه.. أولئك ينظرون إلى الرقعة الصغيرة من التاريخ.. ولا ينظرون في تاريخ الأجيال! ينظرون إلى عقرب الساعات بضع دقائق ويقولون إنه لا يتحرك من موضعه ولا يدل على شيء!

ولكن.. فلنحسب الحسبة من أولها.. لنصل منها إلى نهايتها!

لماذا حسرت أول بنت عن ساقيها وذراعيها وشعرها؟

في وقت من الأوقات كان المجتمع لا يبيح ذلك. عن إيمان. ويراعيه بدقة. ثم تنحل قليلا روابط المجتمع، ويفتر الإيمان.. فتخرج " الحثالة " تحاول أن تتنفش حين يخف عليها الضغط! [88] عندئذ تخرج أول فتاة حاسرة. ماذا تقصد؟ تقصد بلا شك إثارة الفتنة بهذا الصنيع. وتحدث الفتنة بالفعل. وتحدث العدوى. فالمجتمع في سبيل الانحلال. وتحدث الهزة الأولى. " الطيبون " يستنكرون، والخبيثون يمضون في الطريق على حذر في مبدأ الأمر. ثم في استهتار حين تخف حدة الاستنكار..

وتخف الهزة فعلا. يعتاد الناس على المنظر الجديد. يصبح عاديا حقا لا يثير شيئا في النفس. إنه جزء من " الروتين " اليومي يفقد دلالته بعد حين، لتبلد الحواس عليه. كما تتبلد حتى على فعل السموم.

هذه حقيقة..

ولكنها نصف الحقيقة..

ونصفها الآخر هو الذي ينساه – أو يتناساه – دعاة الحرية ودعاة التطور. ودعاة تطوير الإسلام!

إن التي خرجت أول مرة تبغي الفتنة [ومثيلاتها بطبيعة الحال اللواتي تكاثرن بالعدوى] لم تعد لهن ميزة في المجتمع الجديد، الذي قلدهن كله، فأصبحن فيه عاديات.. لا يثرن الانتباه.

وهن لا يردن أن يكنّ عاديات.. يردن أن يثرن الانتباه!

فإذا كان القدر – البسيط – من العري الذي تعرينه أصبح عاديا.. فلا بد إذن من المزيد.. بضعة سنتيمترات تتعرى من أي مكان. من صدر الفستان. من ظهره. من تحت الركبة..

---

[88] راجع فصل " الثابت والمتطور في كيان الإنسان " من هذا الكتاب.

وتعود الصيحة.. والهزة.. وتعود فتفتر.. يصبح عاديا هذا القدر من " الفتنة " فلا يثير الفتنة! يصبح من روتين اليوم المعتاد!

نعم.. ولكن لن تقف العجلة!!

البنت الأولى – ومثيلتها – لا بد ستزداد!

القصد هو الفتنة! فإذا بطلت الفتنة بتعرية الصدر، لأن كل الفتيات يعرين صدورهن، والشبان اعتادوا المنظر وتبلدت حواسهم عليه، فلا بد من شيء جديد يثير الفتنة ويزيد الإغراء.. تعرية جديدة. بدعة جديدة في المشي. خلاعة في الضحكة.. تبدل في الأخلاق.. أي إثارة.. القصد هو الفتنة!

والبركة في " المودة " وبيوت الأزياء! والسينما والتليفزيون! تلتقط الخيط الهابط، وتزيد هبوطا في الحمأة!

لا تقف العجلة..!

والطيبون المخدوعون. الذين يظنون أنهم يستطيعون وقف العجلة عند حد معين.. عليهم أن يفيقوا من غفلتهم، ليروا أين: في أي مكان في الأرض، وفي أي عصر في التاريخ، أمكن وقف العجلة عند الحد " المعقول "! وما الحد المعقول؟! وعليهم أن ينظروا في المجتمع الحاضر من حولهم ليروا كيف ومتى يمكن وقف العجلة المندفعة في طريق الفتنة والإغراء.. والتردي في الفاحشة.. والتحلل من كل رباط..؟!

كلا! لا تقف العجلة.. تلك شهادة القرن العشرين، في كل الأرض.. وهي كذلك شهادة التاريخ..

إنها الحتمية الوحيدة الصادقة لأنها حتمية الفطرة التس تقول إنه لا شِبع للشهوات إلا **بالضبط** وبالتقييد!

من أجل ذلك لا يبيح الإسلام الفتنة والإغراء.. ولا يبيح الفاحشة.. ويصر على الحشمة في الزي وفي المشية وفي الحديث، للرجل وللمرأة سواء:

" قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ **وَلا يُبْدِينَ**

زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ **بِخُمُرِهِنَّ** عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ [89] ". " فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ [90] ". " وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى [91] "

هذا.. أو الدمار!

الدمار الرهيب الذي بدأ يهدد الغرب.. ويؤذن غدا بتدمير البشرية!!

*   *   *

وتلك قضية ثابتة لا تتغير!

ثابتة لأنها لا تنبع من تغير أساليب الإنتاج، ولا من التطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، ولا من التطور العلمي.. أو أي لون من ألوان التطور.. وثابتة لأن كل " تطور " تقع فيه البشرية لا يحول دون نتائجها الحتمية!

إنها تنبع من الفطرة. من مكونات النفس البشرية. من قوة الجذب بين شقي الإنسانية. جذب إما أن ينظم.. وإما أن ينفلت قياده بلا نظام..

وكل دعاوى التطور.. وكل النيات الحسنة التي تتعلق بأمل الوقوف عند " الحد المعقول ".. الوقوف قبل الهاوية.. الحيلولة دون الاندفاع الخطر.. الـ.. الـ.. كلها تقف مخذولة أمام شهادة القرن العشرين.. وشهادة التاريخ.

وليست الأمور بالتمني..

إن حقائق التاريخ وحقائق الفطرة أمور جادة لا تحتمل العبث.. ولا تحتمل التضليل! وكذلك لا تحتمل المخالفة!

---

[89] سورة النور [30 - 31].
[90] سورة الأحزاب [32].
[91] سورة الأحزاب [33].

" سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً " [92]

" إننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع. لقد نقضنا قوانين الطبيعة فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى، الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائماً.. فالحياة لا تعطي إلا إجابة واحدة حينما تستأذن في السماح بارتياد الأرض المحرمة.. هي إضعاف السائل. ولهذا فإن الحضارة آخذة في الانهيار " [ألكسس كاريل].

* * *

ينظم الإسلام اللقاء – الفطري – بين الجنسين في علاقة مشروعة هي الزواج. بعد تحريم العلاقات الأخرى كلها، وتربية الفرد خلقيا ودينيا على النفور من الفاحشة والتقزز منها، وتنظيف المجتمع من المثيرات غير العادية التي تجعل الفضيلة مستحيلة. فيمنع التبرج والرقاعة والخلاعة ولين الحديث وفنون الإغراء، ويوجد للناس – من الجنسين – أهدافا جادة بدلا من تلك الأهداف التافهة المحصورة في الإغراء من جانب، والوقوع في الإغراء من جانب آخر، من أجل التسلية والبهجة والمتاع الرخيص! أهدافا جادة تشمل إقامة الجماعة الراشدة التي تنشد القيم العليا وتحاول تطبيقها في الأرض، في عالم المادة وعالم الروح. في التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية والروحية.. النظيفة المتعالية.. ولكل من الجنسين فيها نصيبه كما سيجيء.

وحين ينتظم اللقاء الفطري في رباط الزواج المقدس تنشأ الأسرة.

والأسرة هي النظام الطبيعي الذي يلبي الفطرة..

وقد أطلقها دركايم كلمة خبيثة لم يثبتها بدليل.. وإنما تركها تشكك الناس في مقدساتهم وفي فطرتهم، حين قال إن الإسرة ليست نظاما فطريا!!

وشهادة ألوف السنين وعشراتها.. ليست في نظره ذات دلالة! ولا تشهد – في نظره – باتجاه الفطرة!

وما البديل؟ ما البديل حين يصدر " العقل الجمعي " أمره – سبحانه! – بتحطيم الأسرة والعدول عنها؟

---

[92] سورة الأحزاب [62].

البديل الوحيد هو الفوضى الجنسية.. ودمار المجتمع في آخر المطاف!

الأسرة هي التي تلبي كل دوافع الفطرة. دافع الجنس. والرغبة في النسل. والرغبة في " الاستحواذ ". وفي " الامتداد " و " البروز ". وفي السكن والاستقرار..

وذلك فوق أنها ضرورة " فطرية " لتربية الأطفال، لا تغني عنها المحاضن ولا المدارس ولا التربية الجمعية التي تطبقها النظم الجمعية الحديثة. [راجع شهادة ألكسس كاريل ص 118 من هذا الكتاب، وشهادة أنّا فرويد في كتابها " أطفال بلا أسر " حيث تتحدث عن الاختلالات النفسية والعصبية التي تنشأ من وجود عدد كبير من الأطفال يشتركون في أم واحدة هي الحاضن المربية، ضد الفطرة التي تجعل الطفل في سنتيه الأوليين على الأقل في حاجة إلى أم كاملة لا يشركه أحد فيها].

وإذ كانت الأسرة ضرورة ثابتة للبشرية، لا تلغيها تطورات الإنتاج ولا تطورات الاقتصاد [حتى وإن كانت تنحرف بها في عصر من العصور الفاسدة، كما حدث في اليونان القديمة وفي الغرب الحديث] فهي في حاجة غلى نظام ثابت مثلها ينظم أركانها ويرسي قواعدها. وقد أعطاها الإسلام التشريع الثابت الذي يكفل استقرارها وتمكنها.

أعطاها تشريعات الخطبة والزواج والطلاق والحضانة والإنفاق. والصلح والخصام. والنشوز من أحد الزوجين. كما حدد حقوق الزوج وحقوق الزوجة وحقوق الأطفال المادية والمعنوية. وحدد " آداب " الأسرة، وآداب المجتمع كله تجاه الأسرة وعلاقات الزواج..

وأعطى ذلك كله صفة الثبات.. لأنها أمور مرتكنة مباشرة على الفطرة. على الجانب الثابت من الكيان البشري. على وجود الرجل من طرف، والمرأة من طرف، والتجاذب الدائم بينهما الذي لا بد أن يفضي إلى اللقاء.

و " التطوريون " يقولون إن نظم الأسرة لا يجوز أن تكون ثابتة. لأنها تتأثر بالتطورات العلمية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية..

المرأة اليوم قد استقلت اقتصاديا. وصارت تعمل. وصارت الأدوات العلمية الحديثة تيسر لها شئون المترل، فلم تعد تشغل بالها ولا وقتها كما كانت من قبل، ونشأ عندها " فراغ " لا بد أن تقضيه في " المجتمع " بصورة من الصور، وطاقة لا بد أن توجهها للنشاط " الاجتماعي ". كما أن الاستقلال الاقتصادي لم يجعل للرجل ذلك

السلطان الذي أعطاه له الإسلام [الذي نشأ في مجتمع – لا ننسى! – متأخر! بدوي رعوي!].. الخ.. الخ.

وقد ناقشت تلك الدعاوى في كتب سابقة. ولكن لا بأس هنا بالمزيد!

إن الاستقلال الاقتصادي الذي تفرح به المرأة الغربية الحديثة، والذي كلفها الحصول عليه أن تخرج من دينها وأخلاقها وتقاليدها، كانت قضية مسلّمة في النظام الإسلامي لا تحتاج إلى جهاد.. و.. لا يترتب عليها إفساد الأسرة!

وإن " العمل " الذي اضطرت إليه المرأة الغربية اضطراراً اقتصادياً، واضطرت فيه كذلك إلى التنازل عن أخلاقها لتأكل.. حق أعطاه الإسلام للمرأة.. ولكن دون أن يضطرها إلى التبذل، ودون أن يقبل منها – أو من الرجل – ذلك التبذل.

ولكن الإسلام لم يقم علاقات الأسرة على استقلال المرأة اقتصادي أو عدم استقلالها. ولا على خروجها للعمل أوعدم خروجها. إنما أقامها على أسس الفطرة. والفطرة ثابتة لا تتغير..

إن الإسلام – رغم إعطاء المرأة الاستقلال الاقتصادي الكامل، ورغم تقرير حقها – عند التطبيق الواقعي – في أن تعمل وتخرج إلى " المجتمع " للضرورة.. أقام الأسرة على أساس أنها " أنثى " لا رجل! أنثى تقوم بالمهمة الفطرية للأنثى، وتتكيف نفسيا وعصبيا بهذه المهمة، وتتخصص لها، وتطلق فيها طاقتها الحيوية وتبذل فيها نشاطها. ثم ترعاها. ترعى نتاجها الطبيعي، وتمنحها الجو العاطفي الذي يمسكها ويحافظ على روابطها. وكفل لها مقابل ذلك أن يعولها الرجل – لا ليسلبها حق الاستقلال الاقتصادي [فهو مكفول] ولا ليسلبها حق العمل [فهو مكفول كذلك عند الضرورة. ضرورتها هي الفردية أو حاجة المجتمع إليها] – ولكن لكي لا تشغل بالها وأعصابها بإعالة نفسها وهي متزوجة وفي كنف رجل، حتى تتوفر لها شحنتها الكاملة من أجل مهمتها المقدسة: مهمة الإنتاج البشري ورعايته. بينما ينصرف الرجل للإنتاج المادي ورعايته، متخصصا له، مطلقا شحنته العصبية فيه.

والغرب الحديث – بحكم ظروفه أو بحكم انحرافاته – قد أبى الاستماع لنداء الفطرة، وتنظيمها الطبيعي، وزعم أنه " سيطور " علاقات الأسرة، ويطور وضع المرأة، بل يطور كيان المرأة ذاتها من الداخل لتصبح مخلوقاً جديداً متطورا غير ما أرادته لها عصور الظلام! مخلوقا " مساويا " للرجل في كل شيء. كل شيء على الإطلاق!

فماذا كانت النتيجة؟

لنسمع هنا شهادة " العلم ".. وهي جزء من شهادة القرن العشرين!

يقول ألكسس كاريل في كتاب " الإنسان، ذلك المجهول ":

" إن الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية، ومن وجود الرحم والحمل، أو من طريقة التعليم. إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك.. إنها تنشأ من تكوّن الأنسجة ذاتها، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة يفرزها المبيض.. ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة، إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليماً واحداً، وأن يمنحا سلطات واحدة ومسئوليات متشابهة.. والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافا كبيراً عن الرجل. فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها. والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها.. وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي. فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبي فليس في الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها. ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي. فعلى النساء أن ينمين أهليتهن، تبعاً لطبيعتهن، دون أن يحاولن تقليد الذكور. فإن دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال. فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحدودة " [ص 114].

"... وعلى أي حال يبدو أن النساء - من بين الثدييات - هن فقط اللائي يصلن إلى نموهن الكامل بعد حمل أو اثنين. كما أن النساء اللائي لم يلدن لسن متزنات توازنا كاملا كالوالدات. فضلا عن أنهن يصبحن أكثر عصبية منهن. صفوة القول أن وجود الجنين، الذي تختلف أنسجته اختلافا كبيراً عن أنسجة الأم، بسبب صغرها، ولأنها - جزئياً - من أنسجة زوجها، يحدث أثراً كبيراً في المرأة. إن أهمية وظيفة الحمل والوضع بالنسبة للأم لم تفهم حتى الآن بدرجة كافية. مع أن هذه الوظيفة لازمة لاكتمال نمو المرأة. ومن ثم فمن سخف الرأي أن نجعل المرأة تتنكر للأمومة. ولذا يجب ألا تلقن الفتاة التدريب العقلي والمادي ولا أن تبث في نفسها المطامع التي يتلقاها الفتيان وتبث فيهم.. يجب أن يبذل المربون اهتماما شديداً للخصائص العضوية والعقلية في الذكر والأنثى. كذا لوظائفهما الطبيعية. فهناك اختلافات لا تنقض بين الجنسين، ولذلك فلا مناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات في إنشاء عالم متمدين ". [ص 116 - 117].

" أليس من العجيب أن برامج تعليم البنات لا تشتمل بصفة عامة على أية دراسة مستفيضة للصغار والأطفال، وصفاهم الفسيولوجية والعقلية؟ يجب أن تعاد للمرأة وظيفتها الطبيعية التي لا تشتمل على الحمل فقط، بل أيضاً على رعاية صغارها ". [ص 368].

تلك شهادة عالم طبيب، لا يستمد " رجعيته " من المفاهيم الدينية، ولكن من حقائق العلم المعملية!

وهذه شهادة طبيبة نمسوية التقت بها الدكتورة بنت الشاطئ في النمسا، ونشرت حديثها عنها في جريدة الأهرام بعنوان " جنس ثالث في طريقه إلى الظهور ":

".. شاءت الظروف أن أذهب في عطلة الأحد، لزيارة صديقة لي طبيبة بإحدى ضواحي " فينا " – بعد أسبوع مرهق قضيناه بين أوراق البردى العربية في دار الكتب – وكنت أحسب أن يوم الأحد هو أنسب وقت لمثل تلك الزيارة. فما كان أشد عجبي حين فتحت لي صديقتي باب بيتها معجلة، وفي يدها " بطاطس " تقشره. ثم قادتني في لطف إلى مطبخها لنأخذ مجلسنا هناك.

ولم يغب عنها ما شعرت به من دهشة فابتدرتني قائلة:

ما كنت تتوقعين هذا المنظر: طبيبة في المطبخ، يوم الأحد!

قلت ضاحكة: أما العمل يوم الأحد فربما فهمته. وأما اشتغالك بالطبخ مع ما أعرفه من إرهاق مهنتك، فهذا ما لم أنتظره.

فردت: لو عكست لكنت أقرب إلى الصواب. فالعمل في عطلة الأحد هو المستغرب عندنا. لولا أنه فرصتي الوحيدة لكي أقف هنا حيث ترين. وأما اشتغالي في المطبخ، فلعلي لم أتجاوز به نطاق مهنتي. إذ هو من نوع العلاج لحالة قلق أعانيها وتعانيها معي سيدات أخريات من المشتغلات بالأعمال العامة.

ولما سألتها عن سر هذا القلق – مع استقرار الوضع الاجتماعي للمرأة الغربية – أجابت بأن ذلك القلق لا صلة له بمتاعب الانتقال المفروضة على جيل الطليعة من نساء الشرق! وإنما هو صدى شعور ببدء تطور جديد يتوقع حدوثه علماء الاجتماع والفسيولوجيا والبيولوجيا في المرأة العاملة، وذلك لما حظوا من تغير بطيء في كيانها، لم يثر الانتباه أول الأمر، لولا ما سجلته الإحصاءات من اطراد النقص في المواليد بين العاملات. وكان المظنون أن هذا النقص اختياري محض، وذلك لحرص المرأة العاملة على

التخفف من أعباء الحمل والوضع والإرضاع، تحت ضغط الحاجة والاستقرار في العمل. ولكن ظهر من استقراء الإحصاءات أن نقص المواليد للزوجات العاملات، لم يكن أكثره عن اختيار، بل عن عقم استعصى علاجه. وبفحص نماذج شتى منوعة من حالات العقم اتضح أنه في الغالب لا يرجع إلى عيب عضوي ظاهر، مما دعا العلماء إلى افتراض تغير طارئ على كيان الأنثى العاملة نتيجة لانصرافها المادي والذهني والعصبي – عن قصد أو غير قصد – عن مشاغل الأمومة، ودنيا حواء، وتشبثها بمساواة الرجل، ومشاركته في ميدان عمله.

واستند علماء الأحياء في هذا الفرض – نظريا – إلى قانون طبيعي معروف، وهو أن " الوظيفة تخلق العضو " ومعناها فيما نحن فيه أن وظيفة الأمومة هي التي خلقت في حواء خصائص مميزة للأنوثة، لا بد أن تضمر تدريجيا بانصراف المرأة عن وظيفة الأمومة واندماجها فيما نسميه " عالم الرجل ".

" ثم تابع العلماء هذا الفرض، فإذا التجارب تؤيده إلى أبعد مما كان منتظراً، وإذا بهم يعلنون – في اطمئنان مقرون بشيء من التحفظ – عن قرب ظهور " جنس ثالث " تضمر فيه خصائص الأنوثة التي رسختها الممارسة الطويلة لوظيفة حواء.

وثارت اعتراضات.. منها: أن كثرة المعاملات ينفرن من العقم ويشتهين الولد. ومنها: أن المجتمع الحديث يعترف بالعاملة الأم ويحمي حقها في العمل، ويتيح لها بحكم القانون، فرصة الجمع بين شواغل الأمومة وواجبات العمل. ومنها: أن عهد المرأة بالخروج من دنياها الخاصة لا يتعدى بضعة أجيال، على حين يبلغ عمر خصائص الأنوثة فيها ما لا يحصى من دهور وأحقاب.

وكان الرد على هذه الاعتراضات: أن اشتهاء الزوجة العاملة للولد يخالطه دائما الخوف من أعبائه، والشفاق من أثر هذه الأعباء على طمأنينة مكانها في محل العمل. ثم إن الاعتراف بالعاملة الأم قلما يتم إلا في حدود ضيقة، تحت ضغط القانون. وما أكثر ما يجد أصحاب العمل فرصتهم لتفضيل غير الأمهات. وأما قصر عهد المرأة بالخروج، فيرد عليه بأن هذا الخروج – على قرب العهد به – قد صحبه تنبه حاد إلى المساواة بالرجل، وإصرار عنيد على التشبه به، مما عجل ببوادر التغير، لعمق تأثير فكرة المساواة على أعصاب المرأة، وقوة رسوخها في ضميرها.

وما يزال المهتمون بهذا الموضوع يرصدون التغيرات الطارئة على كيان الأنثى، ويستقرئون في اهتمام بالغ دلالات الأرقام الإحصائية لحالات العقم بين العاملات، والعجز عن الإرضاع لنضوب اللبن، وضمور الأعضاء المخصصة لوظيفة الأمومة ".

* * *

تلك شهادة " العلم ".. أو شهادة " الفطرة "!

إنها تقول شيئاً واضحاً محدداً.. إن المرأة ينبغي أن تكون " أنثى ". وينبغي أن تتفرغ لوظيفتها الطبيعية الأولى.. الهامة. الخطيرة. المقدسة. ولا تفتن عنها بأية وظيفة أخرى قد تستطيعها، وقد تتقنها، وقد تبذ فيها الرجال.. الخ، ولكنها ليست وظيفتها! وليس من صالحها هي - كامرأة - أن تستبدل بها وظيفتها! كما أنه ليس من مصلحة النوع البشري أن تختل وظائف الجنسين فيه، أو أن يختل كذلك تركيبهما العضوي، فوق اختلال تركيبهما النفسي والعصبي!

وتنظيم الإسلام للأسرة قائم على تلك " الفطرة ".. الثابتة التي لا تتبدل إلا بالانحراف. وتلك نتائج الانحراف كما يرويها " العلم " المحايد، الذي تشترك فيه الطبيبة مع الطبيب!

ولكن المهم أن الإسلام - وهو يجاري الفطرة في تخصيص المرأة لوظيفتها - لم يجعل ذلك - بأي شكل من الأشكال - وسية لاستلاب إنسانية المراة أو تحقيرها أو إهانتها.. **الإسلام!** نحن نتكلم عن مجتمع يتعامل بالإسلام لا عن أي مجتمع منحرف يسيء فهم الإسلام، أو يسيء استخدام السلطة التي منحها للرجل في بعض المواضع، أو لا يحترم روحه ونصوصه التي تقول: " وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ "[93] وتقول: " بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ "[94]. وتقول " خيركم خيركم لأهله [أي لزوجته] وأنا خيركم لأهلي "[95].

ثم إن الإسلام، وهو يخصص المرأة للأسرة.. لرعاية الإنتاج البشري.. لا يضعها هناك لأنه يهمل كيانها أو لا يحسب حسابها في تنظيم الحياة البشرية وتنظيم " المجتمع "! كلا! إنه يعهد إليها بصيانة قدس من أقداس الإسلام والمجتمع الإسلامي. فالأسرة في نظر

(93) سورة النساء [19].
(94) سورة آل عمران [195].
(95) رواه الترمذي.

الإسلام – وكذلك هي في الواقع – هي المحضن الذي يتربى فيه الطفل، ويتشرب أخلاق الإسلام وعقائده وشرائعه. وهذه المهمة الضخمة الخطيرة الهائلة، التي تترتب عليها كل صورة المجتمع المقبلة – أي أخطر ما يسعى الإسلام إلى إقامته – موكولة للمرأة، المتخصصة لها، المكفولة الراحة فيها، ولذلك لا يشغل أعصابها بالمهام الأخرى، التي يستطيع الرجل أن يقوم بها **ولا يستطيع** أن يقوم بسواها! ولا يشغل أعصابها بإعالة نفسها وهي تقوم بهذه المهمة الخطيرة المقدسة.. ثم لا يفسد أعصابها وكيانها بتوجيهها إلى مصارعة الرجل في المجتمع – أو حتى مصاحبته – بالصورة التي تحولها – كما تقول الطبيبة المخلصة لبنات جنسها – إلى جنس ثالث معذب شقى في طريقه إلى تدمير خصائصه الذاتية!

أما الفراغ المزعوم، الذي تسعى المرأة الغربية الحديثة إلى ملئه بالعمل تارة، وبالنشاط " الاجتماعي " تارة.. والفساد في المنتديات وأماكن اللهو و " الاحتفالات " تارة أخرى.. فهو فراغ مفتعل. نشأ أولا من إقامة نظم اقتصادية واجتماعية فاسدة، وتوجيهات نفسية وخلقية فاسدة. تتجه كلها إلى تأخير الزواج وتأخير إنجاب الأطفال. ثم تقليل عدد الأطفال.. فينشأ الفراغ.. المنافي للفطرة. ونشأ ثانياً من الظن الخاطئ بأن أي أحد غير الأم يستطيع أن يقوم بالتربية ويعفي الأم منها.. فينشأ الفراغ.. المنافي للفطرة!

إن التربية " بالجملة " في المحاضن وما أشبهها تخرج أجيالا شاذة منحرفة ناقصة الآدمية.. ثم إنها تشغل فتيات بدور الأمومة الصناعية وهن محرومات من الأمومة الحقة! ثم تقوم بحركة بهلوانية مجنونة غير عاقلة الهدف: تعمل المرأة لتكسب لتستطيع الإنفاق على الحاضنة التي تربي لها طفلها في أثناء العمل!! وفي الطريق: يحرم الطفل من أمه الحقيقية، وتحرم الحاضنة من الأمومة!!

مجموعة عجيبة من الاختلالات.. لا تحدث إلا في قمة " الحضارة! " التي يمارسها الغرب في القرن العشرين!!

والإسلام – كلمة الله إلى الأرض – حاشا أن يقع في هذه الاختلالات، لإرضاء مشاعر مجنونة عند مجانين!

* * *

ننتقل الآن إلى القضية الرابعة:

"خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، **وبث منهما رجالا كثيراً ونساء"**.

إنها قضية المجتمع المكون من رجال ونساء، مشتقين في الأصل من النفس الواحدة التي خلقها الله.

وقد أخذنا جزءا من هذه القضية فيما سبق حين تعرضنا لعلاقة الجنسين في داخل المجتمع. فالآن نكمل الحديث عنها فيما سوى علاقة الجنس.

إن تكون المجتمع من الأفراد: من الرجال والنساء، قضية **ثابتة** لأنها تستند إلى حقيقة ثابتة لا تغيرها تطورات العلم ولا تطورات التاريخ.

وقد استلزم وجودها وجود علاقات معينة **ثابتة** بين الفرد وبقية الأفراد. أي بين الفرد والمجتمع.

ونبدأ بمناقشة تلك الأسطورة التي زعمها دركايم.. أسطورة " العقل الجمعي " الذي يحكم الأفراد بغير مقتضى فطرتهم، ويفرض عليهم ما لا يرغبون فيه بطريقة القهر الاجتماعي الذي لا يملك الفرد رده ولا التصرف فيه. إنها أسطورة عجيبة إن لم نقل كذلك خبيثة فقد انتهى منها كما رأينا إلى أن الأسرة ليست فطرة [أي أن البديل – وهو الفوضى الجنسية – ممكن الحدوث بصورة طبيعية إذا أراد ذلك العقل الجمعي!] والدين ليس فطرة [أي أن البديل – وهو التحلل الديني – ممكن الحدوث بصورة طبيعية إذا أراده العقل الجمعي] وأن الجريمة ليست ظاهرة اجتماعية معتلة! وإنما هي ظاهرة اجتماعية طبيعية **ومفيدة** للمجتمع!! [كتاب قواعد المنهج في علم الاجتماع (ص 118 من الترجمة العربية): " ومن ثم تكاد تكون الجريمة الظاهرة الوحيدة التي تنطوي بصفة لا تقبل الشك على جميع أعراض الظاهرة السليمة " ص 119 " ولكن معنى ذلك أيضا أننا نؤكد من جهة أخرى أن الجريمة عامل لا بد منه لسلامة المجتمع. وأنها جزء لا يتجزأ من كل مجتمع سليم "!].

إن هذه الأسطورة كلها تقوم على شيء واحد: أن الإنسان الفرد يقوم في أثناء وجوده في " الجماعة " بأعمال قد لا يرضى عنها أو يرغب فيها. بل قد يستنكرها إذا خلا لنفسه فيما بعد!

وهذه – ولا شك – حقيقة! ولكن ما دلالتها؟!

إن هؤلاء السادة " العلماء " الكبار يغفلون عن حقيقة " فطرية " كبيرة، هي ازدواج الطبيعة الإنسانية [96] ويفسرون الإنسان دائما بأحد جانبيه دون الآخر، ومن ثم يتمحلون الأسباب للوجه الآخر – الموجود دائما – فيفسرونه بتفسير آخر " خارج " كيان الإنسان! فتارة يكون المادة. وتارة يكون المجتمع. وتارة يكون...!

إن من الخطوط المتقابلة في النفس البشرية: **الفردية والجماعية. والسلبية والإيجابية.** كلاهما موجود وجودا فطريا في الإنسان. كلاهما أصيل. ليس أحدهما مفروضا على الإنسان من خارج كيانه. وكلاهما يؤثر فيه. وهو قابل للتأثر من كلا طرفيه بصورة فطرية، لا من طرف واحد فحسب.

والذي يجعل الإنسان في المجتمع يقوم بأعمال لا يرضى عنها كفرد، بل يستنكرها حين يخلو إلى نفسه، ليس هو " القهر الاجتماعي " في كل حالة، وإنما هو في كثير من الحالات " المشاركة الوجدانية "! أي الرغبة – الفطرية – في مشاركة الآخرين ولو على حساب الكيان الفردي، **لفترة من الوقت** وليس كل الوقت!

والذي يهدم دعوى دركايم، أن القهر الاجتماعي – وهو حقيقة في كثير من الحالات – لا يستطيع مهما أوتي من قوة وضغط أن يلغي فطرة الفرد. فطرة الإنسان. وإن كبتها إلى حين. فكل الضغط الذي مارسته الشيوعية لم يستطع إلغاء النزعة الفردية للتملك! فاضطرت الشيوعية إلى التراجع! كما أن " الثورات " هي التعبير الدائم عن رفض الخضوع للقهر. ومع أن الثورة ذاتها ظاهرة " جماعية " إلا أنها ولا شك تتجمع من نفوس الأفراد. بل قد تبدأ بفرد واحد ثائر، يجمّع حوله الآخرين. يجمعهم من داخل فطرتهم. من عدم رضاهم عن القهر.

فالجماعية التي تطغى أحيانا على الفرد. والسلبية التي تسكت أحيانا على القهر، كلتاهما نزعة فطرية. ومن ثم تصبح كل الظواهر الاجتماعية في النهاية فطرية. سواء كانت سليمة أو معتلة. فالفطرة عرضة للانحراف وعرضة للاعتدال. ومن اعتدالاتها وانحرافاتها تنشأ اعتدالات الفرد وانحرافاته، واعتدالات المجتمع كذلك وانحرافاته.

* * *

[96] انظر فصل " طبيعة مزدوجة " في كتاب الدراسات.

" المجتمع " جزء من الفطرة. الفطرة الثابتة. والعلاقة بين الفرد والمجتمع كذلك ثابتة في عمومها. وكونها تقلبت في شتى العصور ذات اليمين وذات الشمال، فأخذت صورة فردية حادة أو جماعية حادة، لا يعني أنه ليس لها مقياس من الفطرة ولا أنه مقياس غير ثابت. وإنما يعني فقط أنها – ككل شيء في الفطرة البشرية – قابلة للانحراف كقابليتها للاعتدال.

والقانون الثابت الذي ينبغي أن يحكم علاقة الفرد بالمجتمع، هو أنهما ناشئان معا من النفس الواحدة. فليس أحدهما " أقدس " من الآخر، وليس لأحدهما حرمات أكثر من الآخر!

وعلى هذا الأساس تصان حرمات الجميع وحقوق الجميع.

ومن ذلك نشأت – في الإسلام – نظرية الحدود أي العقوبات المحددة من الله. ونشأ كذلك ثبات هذه الحدود.

إن العقوبة في طبيعتها، وفي ثباتها، تخضع لهذه الحقيقة الثابتة: وهي أن الرجال الكثيرين والنساء [المكوّنين للمجتمع] منبثون من ذات النفس الواحدة. ومن ثم فحقوقهم " الإنسانية " جميعا واحدة وحرماتهم واحدة.

حرمة الدم، وحرمة العرض، وحرمة المال، حرمات متساوية. وثابتة. لا تغيرها التطورات.

وعقوبات العدوان على حرمات الدم والعرض والمال كذلك عقوبات ثابتة لا تغيرها التطورات.

ومن ثم جاءت في الإسلام عقوبات القتل [وما دونه من جراح] والزنا والسرقة. والإفساد في الأرض الذي يشمل الجرائم السابقة جميعا ويزيد عليها فتنة الناس في أمنهم وعقيدتهم.

أما عقوبة الردة فهي مرتبطة بالعقيدة في الله. وهي عنصر كذلك دائم وثابت في حياة البشرية.

وقد تحدث كثيرون عن " التطور " في النظر إلى العقوبة، وتحذلق كثيرون وهم يشيرون إلى أبحاث علم النفس الحديث - والتحليلي خاصة - في طبيعة الجريمة، وأبحاث علم الاجتماع، وعلوم كثيرة أخرى تبحث في هذا الميدان..

تحدثوا كثيرا وتحذلقوا كثيراً.. وقالوا عن العقوبات الإسلامية جهالات كثيرة!

قسوة. رجعية. تأخر. عدم احترام إنسانية الفرد. النظرة الانتقامية لا النظرة العلاجية.. الخ.. الخ.

وفي كتاب " الإنسان بين المادية والإسلام " فصل كامل عن الجريمة والعقاب. وفي كتاب " قبسات من الرسول " فصل آخر بعنوان " ادرءوا الحدود بالشبهات ". ولا أملك هنا إلا تلخيص الفكرة في سطور.

إن كل " التطور " " والتقدم " " والتحضر " لم يستطع أن يضيف جديداً لفكرة الإسلام! بل لم يصل بعد إلى عدالة الإسلام، ونظرته التربوية والتوجيهية.

إن الإسلام لا يبدأ بالعقوبة!

ولكن يبدأ بوقاية المجتمع من أسباب الجريمة!

ثم بعد ذلك - بعد أن يهيء الوقاية المطلوبة. بعد أن لا يعود هناك دافع معقول للجريمة - يأخذ في تطبيق العقوبة!

ومع ذلك - فاحتياطاً من عدم التأكد من استحقاق المتهم للعقوبة استحقاقا كاملا - يقول: ادرءوا الحدود بالشبهات، أي: يفسر الشك في صالح المتهم! ويقول: " لأن يخطئ الإمام بالعفو خير من أن يخطئ بالعقوبة [97] "!

فأية عدالة..! وماذا أضاف التطور والتقدم والتحضر إلى تلك القمم العالية. بل ماذا يمكن أن يضيف؟! بل ماذا بلغ، وماذا يمكن أن يبلغ؟!

" روي أن غلمانا لابن حاطب ابن أبي بلتعة سرقوا ناقة لرجل من مزينة، فأتى بهم عمر، فأقروا، فأمر كثير بن الصلت بقطع أيديهم، فلما ولى رده. ثم قال: أما والله لولا

[97] حديث ذكره صاحب مصابيح السنة في الصحاح.

أني أعلم أنكم تستعملونهم وتجيعونهم **حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه لحل له،** لقطعت أيديهم. ثم وجه القول لابن حاطب ابن أبي بلتعة فقال: وأيمن الله إذ لم أفعل ذلك لأغرمنك غرامة توجعك! ثم قال: يا مزني بكم أريدت منك ناقتك؟ قال: بأربعمائة. قال عمر لابن حاطب: اذهب فأعطه ثمانمائة "!

ذلك هو الإسلام! إنه لم يوقع العقوبة على السارق – حين رأى أن " المجتمع " هو الذي يدفعه إلى السرقة – بل وقع العقوب في الواقع على هذا المجتمع الظالم ممثلا في صاحب رس المال! وذلك قبل التشدق بالبحوث النفسية والبحوث الاجتماعية والاقتصادية بأكثر من ألف عام!

وعقوبات الإسلام كلها منظور فيها هذه النظرة. وقاية المجتمع أولا من أسباب الجريمة. بالتشريع والتوجيه معا. ثم النظر في كل حالة مفردة للتأكد من دوافع الجريمة فيها. ودرء العقوبة بالشبهة.

والمهم هنا أن نثبت أن هذه الحدود ثابتة، لأنها ترتكز على عوامل ثابتة. مع ما فيها من " المرونة " الإسلامية التي تجعلها تتسع لجميع الحالات، وتردها إلى مقياس العدالة الثابت في جميع الأحوال.

وقد مر بنا من قبل في الحديث عن القضية الثانية: قضية وحدة البشرية وأخوتها، كلام يدخل في قضية الفرد والمجتمع، فيحسن أن نذكر به في ظل القضيتين المتداخلتين في حقيقة الأمر:

إن علاقة المجتمعات – الناشئة من نفس واحدة – ليست علاقة الخصام والحرب:

" وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ **لِتَعَارَفُوا** " [98] فالهدف الأخير هو التعارف. هو السلم الذي يدخل فيه الناس كافة. التعارف بكل الوسائل التي تؤدي إليه.

والحرمات تصان لجميع الناس لا لطائفة دون طائفة ولا لفرد دون فرد.

" مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً " [99] [وهو كذلك مكتوب على المسلمين]

[98] سورة الحجرات [13].

وضمانات التحقيق وضمانات العدالة في القضاء تشمل كل أبناء النفس الواحدة أيا كان لوهم أو دينهم أو شعبهم أو قبيلتهم. وأيا كانت العلاقة بينهم وبين المسلمين. علاقة حرب أو سلام. وقد مرت بنا الآيات التي نزلت لنصفة الرجل اليهودي. والتوجيه العام: " وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى "[100]

* * *

تلك هي الأمور الثابتة في تشريعات الإسلام وتوجيهاته، وتنظيماته للحياة البشرية.

وهي ثابتة لأنها تقوم على جوانب ثابتة في كيان الإنسان، لا يغير منها شيئا كل التطورات العلمية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والنفسية.

إنها أعمق في الفطرة من كل تطور. وأثبت من كل تغيير..

ولا يجوز أن يخدعنا أنها لا تأخذ هذه الصورة الثابتة في الواقع البشري.. فتفسير ذلك كامن في انحرافات الفطرة لا في تطورها.

والفرق بين الانحراف والتطور يتبين من النتائج التي يؤدي كل منهما إليها.

التطور – الذي يتمشى مع الفطرة – يؤدي إلى نتائج نافعة صالحة. أما الانحراف – الذي يسير ضد اتجاه الفطرة – فيؤدي إلى الأمراض النفسية والاجتماعية. والعصبية والعقلية.. الخ. وإلى الدمار.

وقد قالت لنا شهادة القرن العشرين ما فيه غناء؛ فقد بينت لنا بجلاء ما نشأ عن انحراف الفطرة في الأمور الثابتة التي لا تقبل التطور. وخاصة في علاقات الجنس ومقاييس الأخلاق!

* * *

---

(99) سورة المائدة [32].
(100) سورة المائدة [8].

إلى هنا كنا نتحدث عن الجانب الثابت من الكيان البشري، وعن التشريع الإسلامي الذي يقابله ويغطيه..

والآن ننتقل إلى الجانب المتطور في حياة الإنسان، لنرى كيف يواجهه الإسلام.

إن " صورة " الحياة البشرية تتغير تغيرا واسع المدى في كل حين نتيجة الاحتكاك الدائم بين العقل البشري والكون المادي.. وينشأ عن ذلك تنظيمات جديدة وأحوال.

وقد بينا في الفقرات السابقة أن هذا التغير - الذي نصفه بأنه واسع المدى - **لا يشمل** جوانب معينة من الكيان البشري والحياة البشرية، لأنها ترتكز إلى أسس عميقة في الفطرة غير قابلة للتغير.. إلا بالانحراف الذي يصيبها بأشد الأضرار، ويعرضها للدمار. فالآن نقول إنه يشمل كل الجوانب **الأخرى** في الإنسان.

يشمل التقدم المادي والعلمي وتطور أساليب الإنتاج.

ويشمل " صورة " المجتمع.. هل هو مجتمع رعوي. أو زراعي. أو صناعي. أو ذري.. أو..

ويشمل بالتالي اقتصاديات هذا المجتمع. وطبيعة الروابط والعلاقات بين المالكين وغير المالكين.

كما يشمل الصورة السياسية للمجتمع. أي شكل الحكومة وتنظيماتها.

وهذه الأمور كلها مرتبط بعضها ببعض، وإن لم يكن - كما أثبتنا من قبل - ترابط السببية المباشرة. وإنما ترابط المواكبة والمصاحبة والتأثير المتبادل.

ولكنها كلها متغيرة.. هذا هو الطابع الذي يشملها جميعاً.

العلم يكتشف ويخترع على الدوام. ولم يكف عن هذه المهمة أبداً منذ مولده إلى هذه اللحظة. فهو ينمو نماء دائما - إلا في فترات الانحراف حين يخمل ويعقم ويكف عن التجدد - ويضيف دائماً حصيلة جديدة من المعرفة.

وباختراعاته واكتشافاته يطور الآلات والعدد والأدوات.. أي أساليب الإنتاج. وتلك - كما رأينا من كلام جوليان هكسلي - فطرة. ولكن " الصورة " التي تؤدي إليها هذه الفطرة متغيرة على الدوام.

وحين تتطور أساليب الإنتاج تنشأ نظم اقتصادية جديدة. وصورة جديدة من المجتمع. وصورة جديدة من الحكومة.. ويسير كل ذلك على سنة النمو الفطرية في كيان الإنسان.

ولكن.. لا ينبغي أن ننسى أن إنشاء نظم اقتصادية جديدة لا يتوقف حتما على تغير أساليب الإنتاج كما زعم التفسير المادي للتاريخ. فقد رأينا كيف أنشأ الإسلام نظاماً اقتصادياً متفرداً، غير مسبوق من قبل، وهو في الوقت ذاته غير قائم على أي ضرورة اقتصادية ولا على أي تطور في أساليب الإنتاج! وكذلك أنشأ صورة جديدة للمجتمع، وصورة جديدة للحكومة..

إنما يحدث – في المعتاد – أن تتواكب التطورات كلها وتتصاحب.. وينشأ عنها تغيرات دائمة في صورة الحياة البشرية. وهذا هو الذي نناقشه في هذه الفقرة، لنرى موقف الإسلام من هذه التطورات.

*　　　*　　　*

كما واجه الإسلام الجانب الثابت من الكيان البشري بتشريعات وتوجيهات تناسبه وتتلاقى معه، بحيث ينطبقان انطباقاً كاملا في كل لحظة [فيما عدا حالات الانحراف بطبيعة الحال: حيث تفترق الصورة المطلوبة عن الصورة الواقعة بسبب الانحراف لا بسبب التطور. وينبغي في تلك الحالة إعادة الأمر إلى وضعه الصحيح].. كذلك يواجه الإسلام الجانب المتطور بتشريعات وتوجيهات تناسبه وتتلاقى معه، بحيث ينطبقان انطباقاً كاملا في كل لحظة.. ما عدا حالات الانحراف!

إن عملية النمو العلمي والمادي، والاقتصادي والاجتماعي والسياسي، عملية فطرية. والتغير الدائم فيها فطري وطبيعي. **ولكن ليس معنى هذا أن كل تغير يحدث يكون طبيعياً وملائما للفطرة!** فالفطرة عرضة دائما للانحراف حين يساء توجيهها [أو حين تترك بلا توجيه صالح!] وعندئذ تنمو حقيقة، ولكنها تنمو نمواً منحرفاً. كالطفل الذي ينمو بساق معوجة. إنه ينمو– كما تقتضي الفطرة أن ينمو – ولكن من يقول إن نموه سليم؟!

إنهما أمران معا في ذات الوقت: النمو.. واستقامة النمو على الفطرة. وهذا ما يراعيه الإسلام!

بينا من قبل في فصل " الثابت والمتغير في كيان الإنسان " حقيقة هامة نحتاج هنا إليها حاجة شديدة، هي أنه – حتى في الجانب المتغير من الإنسان – تتغير " الصورة " ولا يتغير " الجوهر ". ومؤدى ذلك أن " التطور " لا يكون سائباً منفلتا من كل رباط، يتجه بحسب هواه، أو بحسب ما تقوده الظروف. إنما ينبغي أن يكون له رباط من الفطرة. رباط يجعل له هدفاً صالحاً راشداً بانياً يتفق مع اتجاه الفطرة السوية. رباط يمنع الخلل والانحراف في أثناء عملية النمو الفطرية.

التقدم العلمي تدفعه الرغبة الفطرية في المعرفة. والعقل البشري يكتشف ويخترع بمقدار ما يوفقه الله ويفتح عليه من طاقة المعرفة. ولكن التطبيق العملي لحقائق العلم المحايدة.. ليس أمراً محايداً! فالتطبيق يمكن أن يتجه إلى الخير، ويمكن أن يتجه إلى الشر. **والفطرة السوية تستخدم العلم في سبيل الخير فقط،** ولا تستخدمه في سبيل الشر. لأن الشر لا يخدمها.

والنمو الاجتماعي والاقتصادي والسياسي نمو فطري. ولكن له وجهين متقابلين. أو وجوهاً شتى تندرج تحت اتجاهين. أحدهما للخير والآخر للشر. والفطرة السوية تنمو في سبيل الخير وتأبى النمو المنحرف في سبيل الشر.

والنمو النفسي كذلك.

كل حركات النمو هذه فطرية، فينبغي أن تحكمها الفطرة السليمة. ومن ثم ينبغي أن يكون هناك " إطار عام " يشمل عملية النمو، ويمنعها من الانحراف. وذلك بالضبط ما يصنعه الإسلام!

* * *

إن الإسلام كلمة الله النهائية للبشرية: " الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً " (101). ولم يكن لمجتمع الجزيرة العربية وحدها. ولا لعهد الرسول وحده صلى الله عليه وسلم. ولا لأي بيئة أو جيل محدد على وجه الأرض.

(101) سورة المائدة [3].

وإنما للبشرية كافة. وفي جميع أعصرها: " وما أرسلناك إلا رحمة **للعالمين** " و " العالمين " لفظ يشمل الزمان والمكان على أقصى اتساع. بلا حدود!

لذلك لم يضع الإسلام – في الأمور المتغيرة – أحكاما تفصيلية.

لقد وضع التشريعات التفصيلية الثابتة في الأمور الثابتة في أعماق الفطرة. التي لا تتغير. أي لا ينبغي أن تتغير. لأن كل تغير فيها هو انحراف ضار بحياة البشرية [راجع شهادة القرن العشرين!]

أما الأمور المتغيرة – ولو أن مبادئ الشريعة العامة تحيط بها وتشملها – فلم ترد فيها أحكام تفصيلية عرضة لأن تتحطم عند أول نمو يحدث في المجتمع.. وهو حادث لا محالة!

لو وضع تشريعات اقتصادية تفصيلية ثابتة للمجتمع الرعوي القبلي، لحطمها النمو الزراعي، ثم النمو الصناعي، وجعلها غير صالحة للاستعمال. ولكان ذلك في الوقت نفسه قيدا يعوق المجتمع عن النمو الفطري الصحيح.

ولو وضع صورة محددة لشكل الحكومة، مفصلة على قد الحكومة " المدينة " مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، أو على قد الجزيرة العربية القريبة العهد بالنظام القبلي، لما صلحت هذه الحكومة لمجتمع الجزيرة العربية ذاته بعد جيل واحد من الزمان، بعد الفتوح والامتداد، والاحتكاك بشتى النظم والحضارات، ونمو الحاجات..

وحاشا لله أن يكون نظامه الدائم عرضة لهذه الاضطرابات..

وإنما كان موقف الإسلام من هذا الأمر، هو موقفه في كل أمر.. المطابقة الكاملة مع الفطرة!

" إطار " ثابت يسمح بكل أنواع النمو الفطري الصحيح. وأسس عامة تحدد الاتجاه وتعين الطريق وتمنع الانحراف. وتسمح بأشكال متعددة تقوم كلها على القواعد الكلية والمبادئ الثابتة، كما تقوم على الخصائص المميزة للنظام الإسلامي، التي تفرقه وتميزه عن الأنظمة التي وضعها البشر لأنفسهم.

وسنرى، بشيء من التفصيل، كيف كان موقف الإسلام من النمو العلمي، والنمو الاقتصادي والاجتماعي والسياسي، والنمو " الحضاري " على وجه الإجمال.

فأما النمو العلمي، فلم يكن القرآن – كما يحلو لبعض ذوي النوايا الطيبة في هذه الأيام أن يتصور! – لم يكن ليحوي " نظريات " علمية، في الطبيعة والكيمياء والفلك والذرة والصواريخ. وليس من شأنه أن يفعل!!

إنما شأنه أن **يوجه** النمو العلمي بما ينفع الفطرة ويلائمها.. وذلك ما حدث بالفعل.

لقد أشار القرآن إلى طاقة المعرفة: " وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا " (102) وأشار إلى وجوب التعلم: " اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، **عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** " (103).

ثم أوجب تدبر آيات الله في الكون والتعرف عليها: " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ **لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** " (104).

وأوجب المشي في الأرض والبحث عن رزق الله فيها: " هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً **فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا** وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ " (105).

وأعلم الإنسان – في ظل هذا التوجيه كله – أن السماوات والأرض – بما تحويان من موجودات وطاقات – مسخرة للإنسان بأمر الله: " وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ " (106). فعليه إذن أن يسعى إلى تحقيق هذا التسخير بالفعل: بالعلم [التعرف على قوانين الكون التي يسيره الله بمقتضاها] والتطبيق [المشي في مناكب الأرض والأكل من رزقه].

ومن تلك النقطة. من هذا التوجيه. انطلق العقل السليم يرتاد الكون.

(102) سورة البقرة [31].
(103) سورة العلق [1 - 5].
(104) سورة البقرة [164].
(105) سورة الملك [15].
(106) سورة الجاثية [13].

العقل الذي كان في جاهلية العرب لا يتجه إلى العلم إطلاقا.. كل همه أن ينظم شعراً جزلا مصقولا رصينا، يضمنه على الأكثر بعض " الحكم " النظرية.. انطلق في عالم الواقع ينشئ أكبر حركة علمية في تاريخ الأرض إلى ما قبل العصر الحديث.. ويكفي أن يكون هو الذي أنشأ المذهب التجريبي الذي تقوم عليه كل فتوحات العصر الحديث!:

يقول " بريفولت " في كتاب " بناء الإنسانية " Making of Humanity:

" لقد كان العلم أهم ما جادت به الحضارة العربية [107] على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج.. إن العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في أسبانيا، لم تنهض في عنفوانها إلا بعد وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام؛ ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوربا الحياة. بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة أشعتها إلى الحياة الأوربية. فإنه **على الرغم من أنه ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة**، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون، وأهم ما تكون، في نشأة تلك الطاقة التي تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة، وفي المصدر القوي لازدهاره: **أي في العلوم الطبيعية، وروح البحث العلمي**.

... وإن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة. بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية [يقصد الإسلامية!] بأكثر من هذا: **إنه يدين لها بوجوده نفسه**. فالعالم القديم – كما رأينا – لم يكن للعلم فيه وجود. وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية، استجلبوها من خارج بلادهم؛ وأخذوها عن سواهم، ولم تتأقلم في يوم من الأيام، فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية. وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات. ولكن أساليب البحث في دأب وأناة، وجميع المعلومات الإيجابية وتركيزها، والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبي.. كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليوناني. أما ما ندعوه " العلم " فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة، من طرق التجربة والملاحظة والمقاييس، ولتطور الرياضيات إلى

---

[107] يقصد الحضارة الإسلامية كما قال فيما بعد. ذلك أن التاريخ لم يعرف للعرب حضارة متميزة إلا بالإسلام. كما أن الحضارة الإسلامية لم تكن قط حضارة للعرب كجنس. إنما كانت نتاج الإسلام ذاته من جميع العناصر المسلمة التي دخلت في الإسلام. وهي تحمل طابع الإسلام لا طابع العرب. والعرب عنصر واحد من العناصر الكثيرة التي صنعت هذه الحضارة.

صورة لم يعرفها اليونان.. وهذه الروح، وتلك المناهج العلمية، أدخلها العرب إلى العالم الأوربي [108] "

ويقول المؤلف نفسه:

" وإن " روجربيكون " درس اللغة العربية والعلم العربي في مدرسة " أكسفورد " على خلفاء معلميه العرب في الأندلس. وليس " لروجربيكون " ولا سميه " فرنسيس بيكون " الذي جاء بعده، الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، **فلم يكن روجربيكون إلا رسولا من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوربا المسيحية.** وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة. والمناقشات التي دارت حول واضعي المنهج التجريبي هي طرف من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية. وقد كان منهج العرب في عصر " بيكون " قد انتشر انتشارا واسعا، وانكب الناس في لهف على تحصيله في ربوع أوربا.

ومن أين استقى " روجربيكون " ما حصله من العلوم؟

من الجامعات الإسلامية في الأندلس. والقسم الخامس من كتابه (Cepus Majus) الذي خصصه للبحث في البصريات، هو في حقيقة الأمر نسخة من كتاب المناظر لابن الهيثم [109] ".

ويقول دريبر الأستاذ بجامعة نيويورك في كتابه " النزاع بين العلم والدين ":

" تحقق علماء المسلمين من أن الأسلوب العقلي النظري لا يؤدي إلى التقدم؛ وأن الأمل في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها. **ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم الأسلوب التجريبي والدستور العملي الحسي.**

وإن نتائج هذه الحركة العملية تظهر جلية في التقدم الباهر الذي نالته الصنائع في عصرهم، وإننا لندهش حين نرى في مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من نتائج العلم في هذا العصر. ومن ذلك أن مذهب النشوء والارتقاء للكائنات العضوية – الذي يعتبر مذهبا حديثا – كان يدرس في مدارسهم. وقد ذهبوا فيه إلى أبعد مما وصلنا إليه.

---

(108) عن كتاب " تجديد الفكر الديني في الإسلام " تأليف محمد إقبال وترجمة عباس محمود ص 149 - 150.

(109) المصدر السابق ص 148.

وذلك بتطبيقه على الجوامد والمعادن [110]. وقد استخدموا علم الكيمياء في الطب، ووصلوا في علم الميكانيكا إلى أنهم عرفوا وحددوا قوانين سقوط الأجسام. وكانوا عارفين كل المعرفة بعلم الحركة. ووصلوا في نظريات الضوء والإبصار إلى أن غيروا الرأي اليوناني القائل بأن الإبصار يحصل بوصول شعاع من البصر إلى الجسم المرئي، وقالوا بالعكس. وكانوا يعرفون في نظريات انعكاس الأشعة وانكسارها. وقد اكتشف " الحسن ابن الهيثم " الشكل المنحني الذي يأخذه الشعاع في سيره من الجو.

وأثبت بذلك أننا نرى القمر والشمس قبل أن يظهرا حقيقة في الأفق، وكذلك نراهما في المغرب بعد أن يغيبا بقليل" [111].

* * *

وهذا يكفي لإثبات طبيعة الحركة العلمية التي نشأت في ظل الإسلام، والتي حوى القرآن " إطارها " التوجيهي، ولم يكن ليحوي تفاصيلها لأنها متغيرة على الدوام.

إنما يهمنا فيها أن نشير إلى أن **الإسلام كان يوجه الحركة العلمية في طريق الخير**، ويعصمها من الانحراف الذي يمارسه العلم في ظل الحضارة الغربية، حيث تستغله الشياطين في إفساد أخلاق الأمم والأفراد، وتدمير مقدساتهم، وحل روابطهم وإشاعة التفاهة في نفوسهم، بتأثير السينما والإذاعة والتليفزيون والصحافة.. ثم يستغل في إنتاج الدمار على نطاق واسع، بينما العالم يهدده الفناء بالجوع، والطاقة الذرية - التي تستخدم للدمار - هي وحدها - في الوقت الحاضر - التي كان يمكن أن تزيد إنتاجية الأرض من الغذاء لسد الأفواه الجائعة المسكينة!

* * *

وفي النمو الاجتماعي والاقتصادي والسياسي كذلك..

إطار عام يسمح بانفساح الصورة. **ولكنه لا يسمح بانحراف الصورة!**

---

[110] راجع الهامشة في ص 28.

[111] عن كتاب الإسلام دين العلم الخالد لفريد وجدي.

أشار القرآن إلى نمو " الأمة " الإسلامية من قبائل متفرقة متناحرة إلى " أُمة " موحدة الهدف مترابطة الكيان:

" وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (112) ".

وأشار إلى مقومات هذه الأمة، وأسس حياتها وخصائص نظامها.

" كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (113) ".

" وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ " (114).

" وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ (115) ".

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ (116) ".

" إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (117) ".

" وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ (118) ".

" وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (119) ".

" وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ (120) ".

---

(112) سورة آل عمران [103].
(113) سورة آل عمران [110].
(114) سورة آل عمران [104].
(115) سورة المائدة [2].
(116) سورة النساء [59].
(117) سورة الحجرات [10].
(118) سورة الشورى [38].
(119) سورة الحشر [7].

" وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ [121] ".

" فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً [122] ".

ثم لم يحدد " صورة " الأمة كيف تكون. تكون مرة مجتمعاً رعوياً. ومرة مجتمعاً زراعياً. ومرة مجتمع مدينة، ومرة مجتمع تجار. أو صناع. ومرة.. ومرة.. لا يتقيد المجتمع في نموه بصورة معينة، ولا يجد عائقاً واحداً يعوقه عن النمو، إنما يجد دائما توجيهات توجهه في عملية النمو وتمنعه من الانحراف.

ثم يشهد التاريخ أن النمو الاجتماعي والحضاري في المجتمع الإسلامي قد بلغ الذروة – في عصره – فلم يأل المسلمون جهداً في الاستفادة بكل التنظيمات الإدارية التي وجدوها عند الأمم المفتوحة. ولا الحصيلة الحضارية التي وجدوها عندهم سواء في مصر أو الشام أو فارس، فيما لا يعارض عقيدتهم وتصورهم الخاص لغايات الحياة الإنسانية. كما اطلعوا على أسس الحضارات الرومانية والإغريقية والهندية، واقتبسوا بحرية كل ما لا يتعارض مع الأصل الذي ابتعثهم الله ليقروه في الأرض، جاعلين عقيدتهم وتصورهم الميزان الذي يقبلون على أساسه ما يقبلون ويرفضون ما يرفضون.

وقد كان المجتمع الإسلامي – رغم كل ما أصابه من تدهور لأسباب مختلفة – قمة عالية أيام الحروب الصليبية نشأ من احتكاك الصليبيين بها كل ما حدث من تقدم فكري واجتماعي وحضاري في الغرب الحديث، بشهادة من مرّت شهادتهم من الكتاب الغربيين.

* * *

أما النمو الاقتصادي فقد وضع القرآن له إطارا ثابتا، ثم تركه ينمو بحرية داخل الإطار، دون أن يضع له صورة معينة، أو يعوقه بقيد واحد عن النمو الصالح الرشيد.

---

(120) سورة المائدة [49].
(121) سورة المائدة [44].
(122) سورة النساء [65].

النظرية العامة للاقتصاد الإسلامي تقوم على أساس أن الله سبحانه استخلف الإنسان - كنوع - في الأرض، وأن المال فيها مال الله، والجماعة الإنسانية مستخلفة فيه، وفق شروط الله الواردة في شريعته، سواء في صورة مبادئ كلية أو تشريعات جزئية - والأولى هي الأكثر - وأن الفرد موظف في هذا المال، تقوم وظيفته على أساس الملكية الفردية لجانب من هذا المال مقابل جهد يبذله، وبشرط حسن التصرف في هذه الملكية - بما يعود على نفسه وعلى الجماعة كلها بالخير، وفي حدود شروط الله التي بدونها لا يتحقق الخير. فإن هو سفه وأساء استخدام حق الملكية قيد حق التصرف، وعاد حق التصرف هذا إلى الجماعة، صاحبة الحق الأول المستمد من خلافتها عن الله في الأرض. وهذا لا يخل بقاعدة الملكية الفردية التي يقوم عليها نظام الإسلام كله - لا النظام الاقتصادي وحده - ولكنه فقط يحيط هذه القاعدة بالقيود التي تكفل حسن التصرف في هذه الملكية، ويحفظ للجماعة حقها المقرر في مال الأفراد بالزكاة وغيرها من التكاليف بقدر حاجة الأمة وبحسبها، مع الإبقاء على ملكية الأفراد، فيما عدا بعض الموارد العامة العامة التي تبقى ملكية عامة:

" وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ " [123].

" وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ **أَمْوَالَكُمُ** الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ **لَكُمْ** قِيَاماً " [124].

ثم يجعل هناك قاعدة عامة لتوزيع المال في الجماعة:

" كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ " [125].

فلا ينبغي أن تحتكره أيدي الأغنياء في أية صورة. يجب أن توزع ملكيته في الأيدي الكثيرة كي تتداوله، وكي تتم دورة المال الطبيعية في أيدي أكبر عدد من الأمة.

وهناك حق المعوزين والمحرومين، تتقاضاه الجماعة حقا مفروضا، وتوزعه على المحتاجين إليه:

" وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ " [126].

---

[123] سورة النور [33].
[124] سورة النساء [5].
[125] سورة الحشر [9].

هو حق الزكاة. ووراءه التكاليف الطارئة التي يؤخذ بحسبها كلما وجدت من أموال الأغنياء.

ثم هناك قواعد لكسب المال والتعامل فيه. فلا يجيء هذا الكسب، ولا يتم هذا التعامل بطريقة فيها مضارة من أي وجه لفرد أو أكثر في الجماعة. ومن ثم يحرم الغصب والنهب والسرقة والغش والاحتكار. كا يحرم الربا وهو أبشع هذه الوسائل جميعاً:

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ [127]" " الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ " [128].

وهناك أمر بالمعاونة " النظيفة ". " وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ " [129].

تلك قواعد عامة. وذلك هو الإطار الذي ينمو فيه الاقتصاد الإسلامي بلا عائق.. إلا العوائق التي تمنع الانحراف.

ولقد نما الاقتصاد الإسلامي في ظل هذه المبادئ العامة نموا مطردا من الوعي إلى الزراعة إلى التجارة إلى الصناعة [البسيطة] إلى تداخل هذه الأنواع جميعاً في وقت واحد. ونما معه الفقه الإسلامي في جوانب " المعاملات " نموا هائلا حتى كون ثروة تفخر بها البشرية. وفي الوقت ذاته حالت تلك المبادئ العامة دون كثير من الانحرافات التي أصابت الاقتصاد الغربي. فحالت دون الإقطاع في صورته الأوربية البشعة التي كانت تستعبد الفلاح للأرض، ولهوى السيد الذي كانت تجتمع في يده في وقت واحد السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية... مما لم يكن له مثيل في الإسلام. وكان قمينا أن يحول دون بشاعات الرأسمالية لو بقي حياً عاملا في الأرض، و لم توجه إليه الضربات القاصمة من كل مكان، و لم يتهاون أهله فيه كما حدث في القرون الأخيرة على وجه التحديد.

---

[126] سورة الذاريات [19].
[127] سورة البقرة [278 - 279].
[128] سورة البقرة [275 - 276].
[129] سورة البقرة [280].

وهنا قد يبدو لبعض الناس أن الإسلام – وهو يحرم الربا – يضع قيوداً على "النمو" الاقتصادي، تمنع التقدم والانطلاق... وقد كانت تلك الشبهة تلذع بعض المسلمين في مبادئ هذا القرن فيسعون إلى الاعتذار عن الإسلام في هذا الأمر! أو يسعون إلى الإفتاء بجواز الربا للضرورة أو جوازه لأنه اليوم شيء آخر غير المنهي عنه في القرآن! وما زالت الشبهة تلذع بعض المسلمين حتى اليوم فيصنعون هذا وذاك!

ولا نحتاج – في هذا العصر خاصة – أن نطيل الحديث في ويلات الرأسمالية، وهي النظام الذي يقوم على الربا أساسا، ويضيف إليه أو ينتهي إلى الاحتكار.

إن بشاعات الرأسمالية الربوية غنية عن البيان. وقد قال فيها أعداؤها – بل أصدقاؤها أنفسهم – ما فيه الكفاية. ولا يطلب عاقل من الإسلام أن يبيح الأداة التي تتسبب في كل هذا الظلم وكل هذا الدمار!

أما كيف يدار الاقتصاد المسلم بغير الربا في ظل التقدم الصناعي فمبحث متخصص لا نتعرض له هنا. وقد ألف فيه بعض العلماء المسلمين. فألف السيد أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان ثلاثة بحوث رئيسية: " أسس الاقتصاد الإسلامي " و " الربا " و " ملكية الأرض في الإسلام ". وألف سيد قطب كتاب " العدالة الاجتماعية في الإسلام ". ونشر غيرهما بحوثا متفرقة عن الموضوع في أولها بحوث الأستاذ عيسى عبده إبراهيم في صحف شتى، وما زال الأمر متسعا لمزيد من البحث.. ولكن الأمر الذي ينبغي أن يستقر في أذهاننا بداءة **أنه لا يمكن** أن يحرم الله شيئاً فيه مصلحة للناس لا تتحقق بغيره! وقد أثبت التطبيق العملي صدق ذلك مرة بعد مرة. وكلما تقدم العلم وتقدمت تجارب البشرية [وانحرافاتها] ظهرت أسباب كانت مجهولة، توجب تحريم ما حرم الله! ثم بعد ذلك على المسلمين أن يستنبطوا النظم والتنظيمات التي تنفع الناس ولا تحل ما حرم الله. لأنه حرمه لسبب. لأنه يريد للناس الخير ولا يريد بهم الضر ويريد بهم اليسر ولا يريد لهم الحرج: " مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ " [130] " وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ " [131].

وكذلك قد يقال إن الإسلام يضع قيوداً على " النمو " الاقتصادي لأنه لا يرحب كثيرا بخروج المرأة للعمل؛ " والتقدم " الصناعي الحديث قد استوجب ذلك.

[130] سورة المائدة [6].
[131] سورة الحج [78].

وقد بينا من قبل أن الإسلام **لا يمنع** خروج المرأة للعمل عند الاقتضاء، وإن كان حقيقة لا يرحب بذلك كثيرا في غير الوظائف النسوية الخاصة.

ولكنا نضيف هنا: أنه تبين لنا أولا مدى الضرر الذي يصيب المرأة من تحويلها إلى رجل يعمل في السوق وفي المصنع... ضرر لا يوازي قط أي زيادة في الإنتاج المادي يمكن أن يحدثها اشتراك المرأة في العمل.

وتبين لنا ثانياً مدى الضرر الأخلاقي الذي أصاب المجتمع الغربي في مقابل تلك الزيادة في الإنتاج. وهو ضرر يوشك أن يدمر الدنيا كلها.. فلا تستفيد حتى بذلك الإنتاج!

ثم.. إن الإنتاج في سبيله أن يتولاه الإنسان الآلي والمخ الإلكتروني والآلة الضخمة السريعة الإنتاج.. فما الحاجة غدا – في الغد القريب – إلى إشراك المرأة في العمل.. إلا شهوة الإشراك؟! وحتى من قبل ذلك، فها نحن أولاء نرى الرجال يتعطلون بالألوف والملايين، وبينما تفتح الأبواب لتشغيل النساء. فهل هي مصلحة الإنتاج التي تحتم أن يتعطل الرجال ويضطلع النساء بالعمل؟ أم إنه أمر آخر تعرفه برتوكولات صهيون؟

والإسلام يبيح النمو الطبيعي الصالح الراشد البنّاء.. ولكنه ليس مسئولا أن يبيح انحرافات البشرية!

* * *

وفي الكيان السياسي وضع الإسلام القواعد العامة، وترك التفصيلات للنمو الدائم الذي يلائم كل مرحلة من مراحل النمو العلمي والحضاري والاجتماعي والاقتصادي.

" إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ " [132].

" وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ " [133].

" وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا " [134].

---

(132) سورة يوسف [40].
(133) سورة المائدة [44].

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ " [135].

" وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ " [136].

" وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ " [137].

هذه القواعد: الحاكمية لله وحده. والحكم بشريعة الله دون سواها. والعدل من الحكام. والطاعة من المحكومين في حدود شريعة الله. والشورى بين المحكومين والحكام.. هي أسس الحكم في الإسلام. أما شكل الحكومة فهو متروك بكليته للأمة المسلمة تقرره في حدود هذه القواعد. فكل حكم بغير شريعة الله فهو حكم غير إسلامي. وكل حكم بغير شورى فهو حكم غير إسلامي. وكل حكم لا عدل فيه فهو حكم ينكره الإسلام.

وربما لم يكن التطبيق الواقعي في عالم السياسية والحكم كاملا إلا في فترة الخلافة الراشدة، التي وضعت القواعد السليمة للحكم: " إذا أحسنت فأعينوني وإذا أخطأت فقوموني " [أبو بكر]. " أطيعوني ما أطعت الله فيكم. فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم " [أبو بكر].. ثم في فترات متقطعة أخرى.

ولكن الفقه الإسلامي على أي حال قد شهد في عصوره المختلفة " نمواً " ضخما في النظرية السياسية ــ استفاد فيه من كل ما جد على المجتمع الإسلامي من أطوار، واستنبط لكل ما جد أحكاما من الإسلام.

والذي يعنينا هنا أن نثبت المرونة الكبيرة التي يتسم بها التشريع الإسلامي في السياسة، مع الحيلولة دون الانحراف [في الأصول الشرعية. أما أسباب الانحراف في التطبيق فليس هنا مجالها. وهي انحراف على أي حال!] والقيمة الكبرى هي أن يضع الإسلام الموازين التي يتبين في مواجهتها كل انحراف عند التطبيق، ويوصم بأنه انحراف!

* * *

[134] سورة الحشر [7].
[135] سورة النساء [59].
[136] سورة النساء [58].
[137] سورة الشورى [38].

ذلك موقف الإسلام من الجانب المتغير في حياة الإنسان.

لا يعوق التقدم؛ بل يدفع إليه. ولكنه يضع المبادئ التي توجه إلى الخير وتمنع الانحراف. فيتمثل فيه الثبات والتطور في وقت واحد. ثبات القواعد وتطور الأشكال...

وقد رفضت أوربا وصاية الدين على التطور العلمي والتطور الاقتصادي والاجتماعي والسياسي.. فماذا كانت النتيجة؟

تقدم العلم حقا تقدما باهراً في ظل النهضة الأوربية اللادينية. ولكن لا لأنها لا دينية!! وإنما لأن الدين الكنسي هناك كان يحارب العلم ويفرض القيود على العقل ليستديم الجهل أطول مدى مستطاع! ولكن هذا التقدم العلمي ذاته مأخوذ - كما مر بنا من شهادة بريفولت ودريبر وغيرهما - من المسلمين، الذين كانوا يضعون العلم - والحياة كلها - تحت وصاية الدين، ويستمدونها من قواعد الدين..

ثم..؟

ثم انطلق العلم - المنفلت من وصاية الدين - بلا ضابط فوقع في غواية الشياطين.. يفسدون به الأخلاق، ويحلون روابط المجتمع، ويشيعون به التفاهة والسطحية والضحالة.. ويدمرون به وجه الأرض.

أما الاقتصاد.. فيكفي الإقطاع والرأسمالية ثم الشيوعية لبيان الفساد الذي حل بالاقتصاد الأوربي حين أبى وصاية الله عليه! فساد يحيل البشر إلى سادة وعبيد، مع اختلاف فقط في صورة السيادة وصورة الاستعباد!

وفي الاجتماع.. تكفي المفاسد الاجتماعية والخلقية التي يعانيها المجتمع الغربي، والتي ردته مجتمعا حيوانياً هابطا لا يفيق من متعة الجسد ولا يشبع. ولا يتعاطف بنوه كما يتعاطف بنو الإنسان. وإنما يعيش الغرب في فردية بغيضة كريهة. فردية انفصالية لا تجمع شتات أمه " تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى " [138]. ويعيش الشرق الشيوعي في جماعية آلية لا تعرف طعم المودة الإنسانية الحقيقية، وإنما تحكمها الدولة بالإكراه، في المزارع الجماعية والمصانع الجماعية التي يسيطر عليها الإرهاب.

---

[138] سورة الحشر [14].

وفي السياسة.. تكفي المظالم التي تملأ وجه الأرض اليوم.. من استعمار واستغلال واستعباد. ومن دكتاتوريات بشعة تستخدم الحديد والنار والتجسس، وأبشع أنواع التعذيب التي يتصورها العقل، لتحتفظ بسلطانها الجبري على الجماهير.. تكفي هذه المظالم، فهي ليست في حاجة إلى بيان.

أما الإسلام – في هذه الأمور كلها – فهو " المحجة البيضاء " كما عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم. المحجة التي تفرق النور عن الظلمة، والصلاح عن الفساد.

المرونة الكاملة التي تسمح بالنمو. والصلابة الكاملة التي تمنع الانحراف.

وهو يستمد مزيته الكبرى في هذا الشأن من مطابقته التامة للفطرة الثابتة الجوهر، المتغيرة الأشكال.

*　　*　　*

ذلك موقف الإسلام من الثابت والمتطور في حياة الإنسان.. موقف لا يصدر إلا عن تدبير إله!

فكل النظم التي صدرت عن تدبير البشر انحرفت ذات اليمين وذات الشمال. ولم تهتد إلى الصواب.. لأنها لم تهتد إلى " الفطرة "...

جهلتها – كما قال ألكسس كاريل – جهلا مطبقا، ثم راحت – بهذا الجهل – تشرع للإنسان!

والإسلام – كلمة الله إلى البشر – يقف موقفا فريداً في كل مفاهيم البشرية وتصوراتها، وتطبيقاتها العملية لهذه المفاهيم والتصورات.

إنه يشمل جوانب الفطرة **جميعها** فلا يركز على جانب ويهمل بقية الجوانب.

ويساير الفطرة في جميع جوانبها، ويعطيها غذاءها الحق. فما كان منها ثابتا، أعطاه التشريع الثابت، وما كان منها متغيراً سمح له بالتغير المطلوب.

وبذلك فهو دين الفطرة..

وهو كذلك دين البشرية كلها في جميع عصورها وجميع " تطوراتها ".

دين يدفع ذاته إلى التطور الصاعد الراشد البنّاء.. ولا يقف من التطور الحق موقف الجمود والرجعية. إنما غيره من النظم المنحرفة، التي تضفي على الانحراف ثوب التطور، هي التي يمكن بحق أن تسمى رجعيات!

الإسلام والرجعيات

كل انحرافات البشرية التي تلبس ثوب التطور.. هي رجعيات جاء الإسلام ليقومها ويصححها!

ولأول وهلة قد تبدو هذه القضية بعيدة عن التصديق!

كيف؟! وهذا " التقدم " كله الذي أحرزه العلم؟ و " النمو " و " التطور " الذي حدث في النفس والمجتمع؟

كيف يكون هذا كله رجعية؟ وكيف يكون الإسلام – السابق في الزمن – قد جاء ليقومها ويصححها؟!

*　　*　　*

من أجل الحكم في تلك القضية الغريبة المظهر، ينبغي أن نضع مقياسا للتقدم والرجعية.

هل هو مقياس الزمن وحده؟ كل " جديد " تقدم، وكل " قديم " رجعية؟!

إن هذا المقياس يصلح حقا لقياس التقدم العلمي. فكل جديد في دنيا العلم يمثل خطوة تقدمية لأنه يبدأ من الخطوة السابقة ويضيف إليها.. وإن لم يضف إليها فإنه يفقد مبرر وجوده.

أما بقية أنواع التحول.. الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، والنفسي والخلقي.. فهي ينطبق عليها المقياس ذاته، فيصبح الزمن وحده هو المقياس؟

نريد أن نرد الأمور إلى مقياسها الصحيح..

هل الثلاجة الكهربائية والطائرة والصاروخ والمخ الإلكتروني هو مقياس التقدم.. أم " الإنسان " هو المقياس؟!

سيقول قائل: أو ليس الإنسان هو الذي صنع الطائرة والصاروخ والمخ الإلكتروني؟

بلى. ولا شك. ولكن: كيف يستخدمها؟ هذا هو المقياس.

يستخدمها ليرتفع بها؟ ليشر بمشاعر " إنسانية " أكثر؟ ليكون شعوره بأخوة البشرية أعمق؟ ليكون شعوره برباط " النفس الواحدة " أشد؟ ليحب أخاه؟ ليكون إنسانا مع عدوه؟ أم ليصبح وحشا ساحقاً ماحقاً يحكمه البغض وتوجهه الأنانية وتعميه وحشية الصراع.. أو تفاهة الصراع؟

أيهما المقياس؟

الآن.. هل اتضحت الفكرة أكثر؟ هل بدا لنا - كما ينبغي أن يبدو - أن التقدم العلمي في ذاته لا يرفع إنسانا ولا يخفضه. إنما الروح التي يستخدم بها الإنسان ثمار العلم هي التي تخفض وترفع، وتقربنا من الحيوان أو تقربنا من الإنسان؟

الآن.. هل اتضح لنا المقياس؟

هل نعتبر حرب الإبادة حضارة؟ والتفرقة العنصرية حضارة؟ والاستعباد حضارة؟ والفوضى الخلقية حضارة؟ والجنون والمرض والانتحار حضارة؟ وتحطم الأسرة والمجتمع حضارة؟ والشقاء الشامل حضارة؟!

أي خير قدمه العلم للبشرية في النهاية، في ظل التوجيه الفاسد والنظرة المرتكسة إلى " الإنسان "؟!

* * *

ولن نلغي العلم بطبيعة الحال، ولن نسقطه من ميزان التقدم..

ولن نلغي النمو الاجتماعي والاقتصادي والسياسي.. والنمو النفسي..

كل واحد منهما له وزن في الميزان..

لكن.. في الكفة الأخرى نضع " الإنسان ".. وموازين الإنسان.

ننظر هل يهدف هذا العلم وهذ التطور الاجتماعي والاقتصادي والسياسي إلى رفع " القيم الإنسانية " أم إلى تحطيمها وإبادتها..؟

وننظر في مجموع الأمر. لا في جزئيات متفرقة.

فالطب تقدم ولا شك. والعلم بمخترعاته وكشوفه قد يسر كثيراً من "الخدمات" وحقق خيراً كثيراً للناس. وكل ذلك ينبغي أن نحسب حسابه ونحن نقوّم هذه الحضارة في الميزان.

لكن مَنْ.. يرجح؟ هذا الخير على كثرته؟ أم ذاك الشر الواغل في الأعماق؟

كيف نهرب من شهادة القرن العشرين؟ كيف نلوي عيوننا عن مواجهة دلالتها؟

ثم. من ذا الذي يقول: إنه إما أن نقبل هذه الشرور كلها، ليتحقق لنا قدر من الخير.. وإما لا خير على الإطلاق؟

مـــن قال إن الخير ضريبته التدمير؟ وضريبته إفساد الأخلاق؟ وضريبته إشقاء البشرية؟!

إن هذه هي الصورة " الغربية " للحضارة.. ولكنها ليست الصورة " البشرية " للتقدم!

والمطلوب أن نبقي كل الخير الذي حققه العلم والتقدم، ونقوّم في ذات الوقت ما أحدثه التوجيه الفاسد من شر.

ذلك شأن " الإنسان " الحق.. وذلك مقياس الرجعية والتقدم!

* * *

المقياس هو " الفطرة "!

المقياس هو الإنسان!

" يجب أن يكون الإنسان مقياساً لكل شيء. ولكن الواقع هو عكس ذلك. فهو غريب في العالم الذي ابتدعه. إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته.. ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة، هو إحدى الكوارث التي عانت منها البشرية.. **إننا قوم تعساء، لأننا ننحط أخلاقياً وعقليا.. إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف والتي ستكون عودها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها** " [ألكسس كاريل].

شهادة واضحة حاسمة لا تحتاج إلى تعليق.

" الإنسان " هو المقياس الذي ينبغي أن نقيس به التقدم والرجعية. فكل نظام يرفع " الإنسان " فهو نظام تقدمي. وكل نظام يرتد بالإنسان إلى الوراء من حيث كيانه الإنساني فهو **رجعي** أيا كانت درجة الحضارة المادية التي يشتمل عليها، وأيا كانت الآلات التي يستخدمها من الدقة والجبروت!

وحقا إن استخدام العدد والآلات والسعي إلى تحسينها مزية إنسانية أصيلة. ولكنها وحدها لا تنشئ الإنسان! ووحدها لا تصلح مقياسا لتقدم الإنسان!

ماذا لو تضخمت يد الإنسان جداً، وأصبحت لها قوة جبارة.. وبقية الجسم كسيح مقعد لا يستطيع أن يتحرك من مكانه؟ ما قيمة اليد القوية الجبارة وهي لا تستطيع أن تمتد بقوتها خطوات؟!

ذلك هو وضع التقدم العلمي والصناعي والحضارة المادية في القرن العشرين! يد جبارة في جسم مقعد كسيح! وفضلا عما في هذا الوضع من اختلال بالنسبة لمجموع " الإنسان "، فإنه – في النهاية – يذهب بالفائدة العملية من هذا التقدم الجبار.

ولكن هذا القول المجمل يحتاج إلى تفصيل.

ما هي مواضع الاختلال في الكيان الإنساني في القرن العشرين؟ ما انحرافاته التي ترجع به إلى الوراء في سلم " الإنسانية " وتجعل حصيلته " رجعية " في نهاية المطاف؟

أو.. من ناحية أخرى: ما خصائص " الإنسان " التي ينبغي أن يحافظ عليها، وركائزه الرئيسية التي دمرتها حضارة القرن العشرين؟

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً " [139] من عجب أن تكون كل القضايا الثابتة هي التي اختلت وانهارت في هذا القرن العشرين!

قضية العقيدة. قضية النفس الواحدة. قضية الجنسين. قضية الإنسانية الواحدة..! تلك بالذات التي حدث فيها الاختلال.. وتلك بالذات التي تنذر اختلالاتها بتدمير البشرية!

* * *

حين انحرف الناس عن العقيدة في القرن العشرين. حين جعلوها وراء ظهورهم. حين نحوها من حياتهم العملية تنحية كاملة، وصارت – في أحسن حالاتها – ظلا باهتا في ضمائر الناس.. هل ارتفعوا في سلم الإنسانية أم انحدروا هابطين؟!

إن العقيدة المدركة الواعية – كما رأينا في بحثنا من قبل، وكما رأينا من كلام جوليان هكسلي نفسه وهو ملحد – [140] ركيزة من ركائز " الإنسان " تميز بها عن الحيوان [141]. فإلغاؤها – أو إهمالها – ارتداد عن خاصية الإنسان بحتة، ورجعة إلى الوراء!

وقد لمسنا بالفعل آثارها في حياة هذا الجيل من البشرية.

فقد أنتجت – أول ما أنتجت – ذلك التمزق في نفس الإنسان. التمزق بين حاجة النفس الفطرية إلى خالقها، وحاجتها إلى الأمن الاجتماعي والسياسي و " الحضاري ".. الذي يأبى الغرب في موجته الملحدة الكافرة اليوم أن يربطه بالعقيدة في الله!

وأنتجت – فيما أنتجت – ذلك القلق النفسي والروحي الذي يفسد أعصاب الناس في الغرب. ففي وسط هذا الصراع المدمر الرهيب الذي يخوضه الناس في في كل لحظة وفي كل جانب من جوانب الحياة: صراع في عالم المادة وصراع في عالم الأفكار وصراع في عالم السياسة وصراع في داخل المجتمع وصراع في داخل النفس المفردة.. في

---

(139) سورة النساء [1].
(140) ص 83 من هذا الكتاب.
(141) انظر كتاب الدراسات.

وسط هذا الصراع المدمر الرهيب يحتاج الإنسان إلى سند. يحتاج إلى قوة ثابتة يرتكن إليها. يحتاج إلى من يمسح على قلبه المتعب وضميره الحيران. يحتاج إلى اليد الحانية التي تمسك به في أزمته وتقوده إلى الطمأنينة والهدوء..

يحتاج إلى الله...

و " الحضارة " الغربية تنهاه – بتوجيهاها وتنظيماها – أن يلجأ إلى الله! تنهاه أن يلجأ إليه في السياسة، أو يلجأ إليه في الاقتصاد. أو يلجأ إليه في تنظيم المجتمع. أو يلجأ إليه في وضع دستور للآداب والأخلاق والسلوك. أو يلجأ إليه في الفن... وإنما يلجأ إليه – إذا شاء بعد هذا كله – في سويعة عابرة في الصلاة في الكنيسة. ثم يعيش بقية يومه وبقية عمره في جو مضاد للعقيدة، واقف لها بالمرصاد!

فيتمزق ويقلق.. ويضطرب ويحتار..

ويهبط في ميزان " الإنسان "..

وليس هذا وحده.. فحين لا يؤمن الناس بالله الإيمان الحق، ولا يؤمنون باليوم الآخر.. فليس في حسهم إذن إلا هذه الحياة الدنيا.. ينتهبون لذائذها في الفرصة المتاحة التي لن تتكرر.. ولن تعود!

ويتكالب الناس على متاع الأرض.. متاع الجنس ومتاع الحس. ومتاع القوة ومتاع السلطان..

وتنقلب حياقم – بدلا من المتعة الزائدة المرجوة – إلى جحيم من العذاب. عذاب القلق الدائم على الفرصة الذاهبة. وعذاب السعار الذي لا يشبع لأنه متلهف على الدوام!

ويهبط الناس في ميزان " الإنسان "..

يهبطون إلى مستوى أدنى حتى من الحيوان. فالحيوان يملك الضوابط الفطرية الغريزية التي تقف به قبل نقطة الهلاك وتصون طاقته عن الدمار..

والإنسان – بلا عقيدة – يرتد أسوأ من ذلك الحيوان. لأنه يصبح بلا ضوابط.. ولا أهداف:

" لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ " [142].

إنها نكسة.. رجعية! ومع ذلك.. فبمقياس الزمن ذاته.. هل هي حقاً " اختراع " جديد في القرن التاسع عشر أو العشرين؟!

كلا! ما أقدمها في التاريخ!

ليست أول وثنية! ليست أول كفر بالله وإلحاد.. ما أقدمها!

ما الدليل على وجود الله؟ كيف يرسل الله الرسل؟ كيف يترل الوحي؟ كيف يبعث الموتى؟ كيف..؟

" وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ **كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ** قَدْ بَيَّنَّا الْآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ " [143]

" وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ " [144]

" أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ " [145]

بل أبلغ من ذلك وأدق! إنك حين تقول للناس اليوم في القرن العشرين إنه ينبغي توحيد الألوهية. فلا يكون إله للعبادة. وإله للعلم. وإله للاقتصاد. وإله للسياسة.. يستنكرون! ويقول القرآن حكاية لقول الكفار القدماء:

" أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ " [146].

وهذه **الرجعية** التي يمارسها القرن العشرون في عالم العقيدة، هي ذاتها التي جاء الإسلام ليصححها ويقومها، ويرد البشرية فيها إلى الصواب.. وما زال موقفه منها هو ذات الموقف في القرن العشرين!

---

(142) سورة الأعراف [179].
(143) سورة البقرة [118].
(144) سورة الجاثية [24].
(145) سورة الإسراء [49].
(146) سورة ص [5].

وقضية الجنسين.. بما فيها " الأخلاق "..

لقد تحدثنا عنها بما فيه الكفاية.. ولا نحتاج إلى حديث جديد. لا عن طبيعتها ولا عن آثارها في حياة البشرية..

فهذا الشقاء البالغ الذي أحدثته في نفوس الشباب من الجنسين.. هذا الشرود الخطر الذي لا يجعل أحداً يستقر.. هذا التدمير في الأسرة والمجتمع والنفوس.. وهذه الحيوانية التي يأنف منها الحيوان.. وهذا السعار المجنون الذي لا يشبع..

إنها ردة بمقياس " الإنسان ".. فما خلق الله الإنسان ليهبط هذا الهبوط كله، ويشرد ويقلق ويحل به الدمار، وما كان " التقدم " ليصيب الناس بكل هذا الشر، الذي رأينا أمثلة بارزة منه في شهادة القرن العشرين.. إنما الشر ينتج من الانحراف. من الابتعاد عن الفطرة. من عدم ملاءمة هذا النظام " للإنسان "..

ومع ذلك.. فبمقياس الزمن ذاته.. هل هو تقدم أم رجعية؟!

لقد قال القرن العشرون إنه " يتطور " في مسائل الأخلاق والجنس. ويُحدث جديداً لم تعرفه البشرية من قبل. ثم قالت شهادة التاريخ إنه أمر قديم جداً موغل في التاريخ.. عرفته اليونان القديمة وروما القديمة والهند القديمة وفارس القديمة..

عرفته على نفس الصورة.. أو في صور مختلفة.. لا فرق! لا فرق من الداخل في نفس " الإنسان ". ولا فرق من الخارج في واقع البشرية.. انحراف لا بد أن يؤدي إلى نتائجه المحتومة لأنه يخالف الفطرة.. وهي الحقيقة الحتمية الوحيدة في تاريخ الإنسان.. عنها تتفرع كل الحتميات!

إنه ذات **الرجعية** التي جاء الإسلام ليصححها ويقومها، ويرد البشرية فيها إلـــى الصواب.

إنها الجاهلية التي كانت تتبرج فيها المرأة وتقعد لفتنة الرجل وإغرائه، ويشغل فيها الرجل بتلك الفتنة والإغراء، سواء في الجزيرة العربية أو في خارجها. وجاء الإسلام ليرفع الناس من بهيميتها، ويقر في ضمائر الناس قيما عليا ترفع علاقة الجنس عن أن تكون بهيمية جسد مسعور. يرفعها إلى السكن والمودة والرحمة: " وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ". ويرفعها إلـــى " التنظيم " الذي يليق بالإنسان.

وهذا الذي يصنعه القرن العشرون، سواء بمقياس " الزمن " أو بمقياس " الإنسان " لا يزيد على أن **رجعية** هابطة، يصححها الإسلام!

*　　*　　*

وقضية النفس الواحدة. وقضية الإنسانية الواحدة..

إن القرن العشرين ينحرف فيها انحرافات شتى. من أبرزها: انحراف الفردية الطاغية التي تطغى على المجتمع، وانحراف الجماعية الطاغية التي تطغى على الفرد، وانحراف العدوان المستمر من بني الإنسان على " إخوتهم " في البشرية.

انحراف الفردية الطاغية يمثله اليوم النظام الرأسمالي الذي يقول عنه الغرب إنه " تطور "! ويمثله الدكتاتوريون الطغاة في كل الأرض.. فهل هو " تطور " لا مثيل له من قبل؟

من حيث " الصورة " نعم.. أما من حيث الجوهر؟

إن " رأس المال " في صورته الطاغية تطور في نوع الملكية وتطور في صورة الاستغلال. لكن طغيان المالك واستغلاله لمن لا يملك.. هل هو جديد حقا على البشرية؟! أو ليست هي ذات " الدوافع " في النفس البشرية المنحرفة، وتؤدي إلى ذات الظلم؟ هل كان الغني في الجزيرة العربية.. أو في الدولة الرومانية أو الفارسية شيئاً آخر في معدنه غير الرأسمالي الحديث الذي يطغى بسلطان رأس المال؟

أو ليس هو الانحراف ذاته الذي جاء الإسلام لتصحيحه؟ جاء ليأخذ السلطان الطاغي من هذا الفرد، **بسلبه حق التشريع** الذي يستعبد به الناس. ورد التشريع إلى الله الذي لا يحابي أحداً من البشر. فلم يعد الحاكم يشرع لنفسه ولا لطبقته كما يحدث في العالم الرأسمالي.. وفي كل مكان في الأرض لا يقوم على هدى الإسلام..

فالفردية الرأسمالية الطاغية – رغم صورتها الظاهرية الجديدة – رجعية كانت موجودة قبل الإسلام في صورة من الصور، وجاء الإسلام ليصححها ويقوّمها. وما زال وضعه منها اليوم هو وضعه منها قبل مئات السنين!

أما فردية الدكتاتور الطاغية – التي عرف هذا القرن العشرون نماذج طاغية منها – فقد عرفتها البشرية كثيراً قبل الإسلام. وجاء الإسلام ليرفع هذا الطغيان عن كاهل البشرية بأن يجعل العبودية واحدة **لله وحده**، ولا عبودية لأحد من البشر على الإطلاق. ومن ثم عاد الطغاة المقدسون بشراً عاديين بلا قداسة. وصار الحكام أشخاصاً عاديين لا سلطان لهم إلا تنفيذ شريعة الله. فأما إن اعوجوا فلا طاعة لهم على الناس. وإنما التقويم أشد التقويم: قال سلمان الفارسي لعمر ابن الخطاب، أعدل حاكم في تاريخ الأرض: " والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف " فقال عمر: الحمد لله الذي جعل في رعية عمر من يقوم عمر بسيفه!

ذلك موقف الإسلام من الطغيان من قبل.. وهو موقفه منه حتى اليوم. الطغيان في أية صورة من صوره **رجعية** ترجع بالبشرية إلى ما قبل الرشد.. الذي يحدده في تاريخ البشرية مولد الإسلام. وقد جاء الإسلام ليصحح وضع البشرية من هذا الطغيان..

أما الطغيان الجماعي الذي تمثله اليوم الشيوعية – آخر " تطور " في عالم الاقتصاد والاجتماع – فهو صورة جديدة. نعم. أما الجوهر؟

هذا الطغيان الذي يذيب كيان الفرد. ويجعله مجرد واحد من القطيع.. يتبعه أن يسير.. لا رأي له في تقويمه، ولا الإشراف عليه، ولا له كيان متميز يحس بذاته في وقت من الأوقات.. هل يختلف من حيث الجوهر عن طغيان " القبيلة " قبل الإسلام، ذلك الطغيان الذي أنطق الشاعر الجاهلي بهذا البيت:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت.. غويت وإن ترشد غزية أرشد؟!

ثم جاء الإسلام.. جاء ليرد " للفرد الإنساني " كيانه إزاء طغيان المجموع. بأن جعله – وهو الفرد – قوة هائلة حين يتصل بالله، ويعبده حق عبادته، ويستلهم هداه. قوة توجه المجتمع إلى الصلاح وتصده عن الفساد. " وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ "[147] وتوجه الحاكم إذا اعوج، وتُشاوَر في شأن الحكم وسياسة المجتمع.. ومن ثم يرفع عنها العبودية للمجموع.

---

[147] سورة آل عمران [104].

وهذا الطغيان الجماعي الجديد الذي تمارسه الدول الجماعية، لا يزيد على أن يكون رجعية من تلك الرجعيات التي جاء الإسلام ليصححها ويقومها. وما زال موقفه منها اليوم كموقفه منها يوم جاء!

إن الإسلام ينصب الميزان الحق بين الفرد والمجتمع. لا هذا يطغى ولا ذاك. ويستمد ميزانه من الحقيقة الثابتة: " خلقكم من نفس واحدة "..

وبذلك يقوّم الرجعيات.

* * *

أما العدوان المستمر الذي يمارسه القرن العشرون.. عدوان البشر على البشر.. في الحرب وفي السلم. عدوان أمم على أمم. وأمم على أفراد. وأفراد على أفراد.. التفرقة العنصرية. والاستعمار والاستعباد. والتعذيب الوحشي الذي يمارسه الطغاة ليسندوا حكمهم ضد ثورة الجماهير. ما اسمه؟ ما اسمه في ميزان " الإنسان "؟ تقدم أم رجعية؟ هل فيه جديد إلا الزيادة في الوحشية والضراوة في القتل والتعذيب؟

ولقد واجه الإسلام يوم جاء به صنوفاً مختلفة من هذا العدوان. فجاء ليصححها ويقومها. بتهذيب الضمير البشري من ناحية، ووضع التشريعات التي تمنع العدوان من ناحية أخرى. نظف النفس من " الغل " الأحمق البشع الذي يدفع إنساناً إلى قتل أخيه الإنسان أو تعذيبه أو العدوان عليه. وجعل الحرب الوحيدة التي يبيحها هي الحرب لله. لإعلاء كلمة الله لا كلمة بشر من الناس. وبشروط " إنسانية " تمنع القتل الوحشي والتمثيل والتعذيب.

إن ما يمارسه " التقدم " العصري في القرن العشرين، هو الرجعية ذاتها التي جاء الإسلام ليصححها ويقومها.. وما زال موقفه منها اليوم كموقفه منها يوم جاء!

وهكذا.. كلما تتبعنا شيئاً من " تطورات " الغرب وجدنا أنها ليست تطوراً في الحقيقة. وإنما هي انحراف ورجعية. انحراف بمقياس " الإنسان " ورجعية بمقياس الزمان.

إنها نكسة حيوانية إلى الوراء..

وموقف الإسلام منها هو موقفه من الرجعيات جميعاً: موقف التقويم والتصحيح.. موقف القوة التقدمية الهادية التي تشير للناس إلى الطريق الصحيح.

وهكذا كان ينبغي أن يكون موقفنا نحن من الغرب..

ولكن.. أين نحن؟!

نحن والغرب

حين تكون المقدمات كلها صحيحة، فينبغي أن تؤدي إلى نتيجة صحيحة..

وما دام الإسلام هو القوة التقدمية الهادية المرشدة إلى الطريق الصحيح.. وما دامت الحضارة الغربية تشتمل على كل هذا القدر من الانحراف والردة إلى عالم الحيوان.. فقد كان ينبغي أن نكون نحن – المسلمين – في مقعد القوة والتمكن والتقدم والحضارة والسلطان، والنظافة الكاملة في التعامل والأخلاق، والترابط في المجتمع، ويكون الغرب في مكان الضعف والذلة والهوان.. ولكن الأمر الواقع هو العكس. فالغرب ليس قوياً فقط، وليس " متحضراً " فحسب، بل إنه في معاملاته الفردية نظيف نظافة ملحوظة، مستقيم استقامة واضحة.. قلما يخدع الإنسان منهم غيره، أو يغشه، أو يحاوره أو يداوره. أو يكذب عليه في مجال التعامل اليومي، وفوق ذلك يخلص في عمله ويتقنه ويضع فيه كل جهده.. بينما نحن – المسلمين! – نغش ونخدع، ونحاور ونداور، ونكذب وننافق، ولا نخلص في عملنا ولا نتقنه ولا نضع جهدنا الحقيقي فيه.

دين بلا نظافة.. ونظافة بلا دين!

تلك هي الصورة التي تربك أفهام الأجيال الناشئة في العالم الإسلامي فتصرفها عن الإسلام!

وهي لا تنصرف عنه تلقائياً.. وإنما بذل جهد جهيد خلال القرن الماضي كله وما يزال يبذل في هذا القرن للوصول إلى هذه النتيجة..

جهد جهيد بذله المبشرون والمستشرقون.. ثم تلقفه منهم " تلاميذهم " المسلمون (!) في الشرق الإسلامي، فأخذوا يرددون الأسطوانة ذاتها، ولا يملون من ترديدها ليصلوا في أذهان الأجيال الناشئة إلى الربط بين هذه " الحقائق " الظاهرية.. لتصل إلى النتيجة المطلوبة..

المبشرون بادئ ذي بدء كانوا يقولون إن الإسلام رجعي متأخر.. بدليل التأخر والرجعية المخيمة على أهله. والمسيحية تقدمية متحضرة.. بدليل الحضارة والتقدم الموجود في الغرب المسيحي.

والمستشرقون على آثارهم [وهم بقية منهم لبسوا مسوح البحث " العلمي " ليخفوا وراءها مسوح التبشير] قالوا إن سر التأخر والرجعية كامن في الإسلام ذاته. فهو – بذاته – الذي قاد أهله إلى الانحطاط والتأخر، لأنه جامد لا يتطور ولا يسمح بالتطور! [ولعلهم يقولون أيضا إنه يدعو إلى الجهل وعدم الأخذ بأسباب القوة!!]

ثم جاء تلاميذهم من " المسلمين ".. من " قادة " الفكر والصحافة والأدب والسياسة يقولون: هلم ننبذ تعاليم هذا الدين الرجعي الجامد المتأخر.. لكي نتحضر. لكي نصبح مثل أوربا لكي ننال العلم والقوة والتقدم والسلطان.

والتقت تلك الإيحاءات السامة كلها في نفوس الأجيال الناشئة في العالم الإسلامي، لتؤدي إلى نتيجة معينة: نحن متأخرون لأننا مسلمون وأوربا متحضرة لأنها ليست مسلمة!

ثم دار الزمن دورة واختفت من الأفق أقوال المبشرين المباشرة.. فقد احتجبوا عن العمل المباشر بعد أن اطمأنوا إلى قيام تلاميذهم " المسلمين " بالدعوة بدلا منهم، واطمأنوا إلى سياسة الدولة التعليمية التي أوحوا بوضعها عن طريق الاستعمار الذي كان بيده مقاليد الحكم والتوجيه.. سياسة لا تعلم الناشئة شيئاً عن حقيقة الإسلام، وإنما تعلمهم بدلا منه أوربا وحضارتها وتفوقها الساحق.. وتعلمهم كذلك شبهات حول الإسلام يتسرب إلى أفهامهم تأثيرها المسموم بوعي أو بغير وعي. واطمأنوا كذلك إلى دور المدارس الأجنبية وما تحدثه من آثار سامة في تحطيم عقائد المسلمين، وليّ أعناقهم إلى أوربا و " الحضارة " الأوربية.. واطمأنوا أخيراً إلى تكبير تلاميذهم وتضخيمهم حتى يصبحوا هم قادة الفكر والتوجيه ويصبح في أيديهم من السلطان ما يكفي لتثبيت ذلك التوجيه..

واختفت كذلك من الأفق حملة المستشرقين المباشرة على الإسلام، التي كانت على أشدها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، إذ ظهر للمستشرقين بالتجربة العملية أنها أدت إلى عكس الغرض المطلوب، إذ أيقظت المسلمين من سباتهم، ووجهت مشاعرهم وعقولهم وأقلامهم إلى الدفاع عن الإسلام. فظهرت عشرات من الكتب أو مئات تدافع عن الإسلام. وكان في هذا خطر عظيم على الهدف المنشود من وراء حركة الاستشراق. خطر صرح به المستشرق المعاصر " ولفرد كانتول سميث " في كتابه " الإسلام في التاريخ المعاصر Islam in Modern History " حيث يقول في أكثر من مكان في كتابه: إن الحركة المتحررة التي قادها الكتاب المتحررون، والتي اتجهت إلى نقد الدين، كانت كفيلة بأن تؤتي ثماراً طيبة. لولا أن حركة " الدفاع " عن الإسلام قد حالت دون هذه الثمار!!

لذلك اتجه المستشرقون إلى وسيلة أخبث، تنوّم المشاعر للسموم بدلا من أن توقظها للخطر الماثل، وهي البدء بتمجيد الإسلام وتعظيمه، وإعطائه حقه المنصف، حتى إذا استرخت أعصاب القارئ المسلم على المديح، واطمأنت نفسه إلى " نزاهة القصد والضمير العلمي! " في هذا المستشرق أو ذاك، دس له السم في العسل، ووضع في خلال المديح والتمجيد ما يشاء من التشويه والتشكيك، وهو مطمئن إلى مفعوله الأكيد! ثم.. الإيحاء - بل التصريح - بأن الإسلام كان عظيماً ونافعاً وتقدمياً أيام زمان! أما اليوم فهو عقبة في سبيل التقدم، ولا مجال لهذا التقدم إلا بالأخذ بوسائل الغرب في كل شيء [انظر كل كتب المستشرقين المعاصرين! وبصفة خاصة كتاب " جب " " الاتجاهات الحديثة في الإسلامModern Trends in Islam " وكتاب " جرونيباوم " " الإسلام... " وكتاب سميث المشار إليه " Islam in Modern History "].

اختفت الحملة الأولى والثانية وظهرت في الأفق دعوة جديدة، هي التي ما تزال قائمة حتى اليوم، على يد أولئك " التلاميذ " المخلصين من " المسلمين! ".

إن أوربا اليوم متقدمة.. وهي ليست متدينة!

لقد طرحت الدين جانباً فتقدمت وتحضرت ووصلت إلى القوة والسلطان!

ونحن متدينون (!).

وفي الوقت ذاته متأخرون!

فينبغي أن نسلك الطريق القويم.. ننبذ ديننا - كما فعلت أوربا - فنتقدم ونتحضر ونصل إلى القوة والسلطان! وليس من الضروري أن نكفر ونلحد! إنما يجب أن نسارع إلى فصل الدين عن كل ما له علاقة بواقع المجتمع وواقع الحياة!

وتلك هي خلاصة السموم كلها التي وضعها التبشير والاستشراق والاستعمار!!

* * *

ولكن.. بغض النظر عن هذه القصة الطويلة التي استغرقت قرنين من الزمان، فإن هناك واقعاً ملموساً ينبغي تبين أسبابه: واقع القوة والتمكن و " النظافة " الحسية والمعنوية في الغرب في المعاملات اليومية [بصرف النظر عن شئون الجنس!] ووقائع الضعف

والتخلف و " القذارة " الحسية والمعنوية في الشرق " الإسلامي " [بالإضافة إلى انتشار الفساد الخلقي في شئون الجنس!!]

هذا واقع ينبغي تبين أسبابه، لتتضح القضية في أذهاننا على حقيقتها، وتتضح الصلة بين المقدمات التي قدمناها كلها وبين الواقع.. وإلا فقدت دلالتها الحقيقية وأصبحت غير ذات موضوع!

* * *

هذا الواقع.. حقيقةٌ مضللة!

وظاهر هذه الحقيقة يقول: هناك دين بلا نظافة [في الشرق] ونظافة بلا دين [في الغرب].

وباطن الحقيقة ليس كذلك!

والمرجع هو التاريخ...

إن أوربا اليوم ليست متدينة.. بمعنى أن الدين لا يحكم الحياة. لا يحكم واقع المجتمع، ولا يحكم الاقتصاد والسياسة، ولا يحكم التعليم، ولا يحكم التوجيه الفكري للناس. وإن كان – فيما عدا هذا – قد يسيطر على مشاعر الناس لحظات في داخل الكنيسة، أو الاحتفال بقديس من القديسين أو.. في التأثر ببعض الأساطير!!

ولكنها دون شك لم تكن كذلك قبل قرون..

يومئذ كانت العقيدة في النفوس أرسخ، وتوجيهها للحياة أشد..

وربما **لم تكن** أوربا في يوم من الأيام مسيحية بكل معنى الكلمة. فقد ظلت في أعماق الضمير الأوربي – تحت القشرة المسيحية – رواسب عميقة من آثار الفكر اليوناني والحضارة الرومانية الوثنيين، يوجهان جوانب من الحياة الأوربية بوعي أو بغير وعي.. ولكن هذا لا ينفي أن العقيدة المسيحية كانت هي الغالبة في القرون الوسطى.

ثم ضاق الناس بكنيستهم لأسباب عدة:

كانت الكنيسة قوة طاغية غاشمة تفرض على الناس الإتاوات والعشور وترهقهم من أمرهم عسراً.

وكانت تفرض عليهم الخضوع المذل لرجال الدين.

وتفرض عليهم أفكاراً " علمية " مزيفة، باسم أنها كلمة السماء. فإذا أثبت العلم التجريبي والنظري كذبها راحت الكنيسة تحرق العلماء وتعذبهم كما فعلت بكوبرنيكوس وجاليليو وجوردانو برونو لأنهم لم يوافقوا على نظريتها في شكل الأرض ومركزها من الكون.

إلى جانب ذلك مهزلة صكوك الغفران التي تحول الدين إلى سخرية لاهية ضخمة، وتترع عنه كثيراً من جديته وقداسته.. وكذلك الفسد الخلقي الذريع الذي كان يمارسه " رجال الدين! " متسترين وراء مسوح الرهبان، مما يعف عنه الفرد العادي غير المتمسك بأهداب الدين!

كل ذلك أحدث انفصاماً بين الدين وحياة الناس.. وعزل الدين من الواقع الحي إلى داخل الوجدان.

ثم حدث حادث ضخم في الحياة الأوربية ترتبت عليه آثار في غاية الخطورة. وهو الحروب الصليبية.

ففي تلك الحروب التي انهزم فيها الأوربيون – المسيحيون – في كل حرب تقريبا، وفي النهاية الحاسمة كذلك – تيقظ أولئك الغربيون إلى أمر حاسم: لا بد أن يكون في حياتهم أخطاء واختلالات أدت بهم إلى الهزيمة المنكرة، ولا بد أن يكون في حياة المسلمين من أسباب السلامة والقوة ما مكنهم من الانتصار.

ومن هذه اليقظة تولدت " النهضة " الأوربية.. في كل مجال.

نهضة علمية، واجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وفكرية، وروحية.. الخ.

" لقد كان العلم أهم ما جاءت به الحضارة العربية [148] على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج.. إن العبقرية التي ولدتها ثقافة العرب في أسبانيا، لم تنهض

---

[148] راجع الهامشة ص 178 من هذا الكتاب: " يقصد الحضارة الإسلامية.. الخ ".

في عنفوانها إلا بعد وقت طويل على اختفاء تلك الحضارة وراء سحب الظلام. **ولم يكن العلم وحده هو الذي أعاد إلى أوربا الحياة**. بل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت باكورة **أشعتها إلى الحياة الأوربية**. فإنه على الرغم من أنه **ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة**، فإن هذه المؤثرات توجد أوضح ما تكون، وأهم ما تكون، في نشأة تلك الطاقة التي تكون ما للعالم الحديث من قوة متميزة ثابتة، وفي المصدر القوي لازدهاره: أي في العلوم الطبيعية، وروح البحث العلمي ". [بريفولت في كتاب " بناء الإنسانية Making of Humanity "].

وعلى الرغم من اهتمام الرجل بالعلوم، وروح البحث العلمي – وما لهذا من دلالة في النهضة الأوربية المعاصرة – فإنه لم يغفل الحقيقة الأوسع مدى وهي أنه " ليس ثمة ناحية واحدة من نواحي الازدهار الأوربي إلا ويمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية **بصورة قاطعة** ".

وليس هنا مجال التفصيل في هذا الشأن.. فذلك تتولاه بحوث التاريخ.

ولكنا نقول في إيجاز شديد إن الحروب الصليبية هي التي وجهت أوربا إلى إنشاء نظام " الأمة " بعد أن كانت إقطاعيات يحكم كلا منها إقطاعي تتمثل في شخصه السلطة التشريعية والقضائية والتنفيذية، ويستعبد الناس في الأرض.. وقد وجد الصليبيون في العالم الإسلامي " أمة " تحكمها حكومة مركزية موحدة ويسري فيها **قانون واحد** يطبق على الجميع بالسوية.. فنقلوا هذا النظام إلى بلادهم فصارت أمما ودولا بعد أن كانت إقطاعيات. وتحطم النظام الإقطاعي وتحرر عبيد الأرض ليصيروا أحراراً كالمسلمين.

والحروب الصليبية وما تلاها من الاحتكاك بالفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية هي التي أدت إلى الثورة الدينية على الكنيسة، التي قام بها مارتن لوثر وكالفن في أوربا.

وهي كذلك التي أدت إلى الحركات التحريرية الكبرى ومن بينها الماجنا كارتا وإعلان حقوق الإنسان.

وكانت – إلى جانب ذلك – ذات أثر كبير **في الأخلاق الأوربية**. فقد أخذ الصليبيون – المنهزمون – عن المسلمين – الظافرين – كثيراً من أخلاقهم الشخصية من صدق وأمانة وإخلاص وتماسك وترابط وتحاب ومودة وتعفف عن الدنايا.. وقد كانوا – في أثناء إقامتهم مع المسلمين في الشام – يرون كيف كان التاجر المسلم إذا جاء وقت

الصلاة يترك متجره – **مفتوحاً** – ويذهب إلى المسجد يؤدي فريضته ثم يعود فلا يسرقها سارق! ويرون كيف يحترم الصغير الكبير، وكيف يتفشى " السلام " بين الناس سواء بالتحية بالفم أو في واقع المجتمع.. كما كانوا يرون دقة أصحاب الصنايع وإتقانهم أعمالهم والإخلاص فيها، وكيف كانت " ذمة " التاجر المسلم رأس ماله الأول، يعد ويفي ويضبط الميعاد!

بهذه الأمور كلها تأثرت الحياة الأوربية إلى جانب الحركة العلمية الكبرى التي نشأت من انتقال المذهب التجريبي من مدارس الأندلس ومدارس الشرق إلى الغرب الأوربي...

وخلاصة هذا الأمر **أن الأخلاق الأوربية ذات أصل ديني مسيحي وإسلامي على السواء!**

... ولقد وقعت الفجوة بين الدين والحياة في أوربا.. للأسباب التي ذكرناها.

وكانت جفوة تدريجية بطيئة استغرقت بضعة قرون حتى وصلت ذروتها في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

وفي أثناء هذه الجفوة تنكر الناس للدين، وفصلوه عن كل القيم النافعة في الحياة!

فصلوه عن العلم.. فنشأت حركة إحياء العلوم على أساس لا ديني.. بل على أسس مناهضة للدين.

وفصلوه عن المجتمع.. فجاء النمو الاجتماعي الحديث على أساس لا ديني (secular) إن لم يكن على أسس معادية للدين.

وفصلوه عن الأخلاق!

قالوا: إن الأخلاق جميلة نعم.. ولكن ليس من الضروري أن نأخذها من تعاليم الدين فلنجعلها قائمة بذاتها، تستمد من " الواقع " أو من " العقل " أو من " الضمير الاجتماعي ". أو من أي معين إلا الدين! [ولا يدخل في هذا الشأن الأخلاق الجنسية.. فهذه قضوا عليها نهائياً بتوجيه الشياطين!].

وهكذا بقيت لأوربا أخلاق.. لكن بغير عنوان الدين!

وقد كانت الجفوة من الشدة والعنف بحيث لم تفصل فقط بين الدين والأخلاق.. بل قد نفّرت الناس تنفيراً من أن يربطوا أي ربط بين الدين والأخلاق.. بل إلى إنكار وجود رابط بينهما على الإطلاق.. بل إلى الإصرار على رفض الأخلاق إن كانت تلبس ثوب الدين، وعدم قبولها إلا أن كانت مفصولة عن الدين واقفة له بالمرصاد!

نعم، يجب أن تكون لنا أخلاق.. ولكن حذار حذار من ربطها بالدين. وإلا تركناها لكم بأجمعها وصرنا لا أخلاقيين! كما أصبحنا من قبل لا دينيين!

وزيادة في التحذير والتنفير تنشأ " مذاهب " كالوجودية تناقش " الأخلاق " من حيث المبدأ، وتقول: لا أخلاق! فما أراه " أنا " خيراً فهو خير.. وما أراه شراً فهو شر!

* * *

ولكن هذه مرحلة في " التطور "!

والذين يظنون أنها يمكن أن تقوم إلى الأبد هم الذين ينظرون إلى رقعة صغيرة من التاريخ! الذين ينظرون إلى عقرب الساعات في الساعة بضع دقائق، ثم يقولون إنه لا يتحرك من مكانه ولا يريم!

لقد بقيت الأخلاق الأوربية – النابعة من المعين الديني – بقيت فترة من الزمن وهي منفصلة عن معينها الأصلي، تسير بقوة الدفع الذاتية، بغير عنوان الدين.

ظلت أوربا فترة من الزمن " نظيفة " الأخلاق، تتعامل على استقامة.. لا يخدعك الغربي ولا يغشك في المعاملات اليومية الفردية. لا يقول لك كلاما ويقصد كلاماً آخر. لا يقدم لك البضاعة المزورة. لا يعطيك الوعد ويخلفه... **إلا في السياسة!**

وقال الناس – هنا في الشرق الإسلامي –: لا تحتجوا على الغرب بالسياسة.. فالسياسة خدعة! ولكن انظروا إلى التعامل الشخصي. إنها بالضبط الأخلاق التي تنسبونها للإسلام! ولكنها هناك واقع عملي. يربى عليه الطفل فيتشربه، ويربى عليه المجتمع فيصونه! إنها ليست نظريات كالتي تقدمونها باسم الإسلام! ليست مواعظ! إنها حقائق تربوية ضخمة. يبذل فيها جهد دائب لتربية الطفل عليها منذ مولده. يربيه عليها والداه في المترل، والمدرسون في المدرسة، والواقع الخارجي في المجتمع.. فتتأصل.

الوالدان بذاتهما قدوة.. لا تكذب الأم أمام الطفل ولا الأب فلا يشاهد الطفل الكذب أمام عينيه. فيتعود الصدق من الواقع الموجود في الأسرة. ثم يذهب إلى المدرسة فلا تكذب عليه المدرسة ولا المدرس. ويخرج للمجتمع فيجد الصدق حقيقة.. فينشأ صادقا لا يكذب.

والأمانة كذلك. لا تغش الأم ولا الأب. ولا المدرسة ولا المدرس. ولا الناس في المجتمع. فتصبح الأمانة في نفس الطفل حقيقة.. حقيقة ذات رصيد من الواقع.

وكذلك كل آداب السلوك..

وبهذه الصورة تنشأ كل " الفضائل " التي نفتقدها في الشرق " الإسلامي ". إنها هناك حقيقة ولدينا نحن خواء ومواعظ دينية!

وهم هنالك يصنعونها لا باسم الدين.. وتفلح! ونحن هنا نعظ إليها باسم الدين.. فلا تنجح!

حقا.. هذا هو الوجه الظاهر من القضية..

ولكن هذه كما قلت مرحلة من مراحل " التطور "!.. ولها بعد نتائجها.. الحتمية!

لقد انفصلت الأخلاق في الغرب عن معينها الأصلي. معين الدين. فكيف صارت؟

قامت السياسة بادئ ذي بدء على غير أساس أخلاقي!

في الداخل.. صارت " الطبقة " التي تحكم تشرع لصالحها هي على حساب بقية الطبقات. وظن " علماء " السياسة والاقتصاد هناك أن هذه حتمية " اقتصادية "! وليست حتمية اقتصادية في الواقع. ولكنها تصبح حتمية حين تنفصل السياسة عن مبادئ الدين.. فتصبح السياسة بلا أخلاق! وحين كان المسلمون مسلمين لم تكن هناك طبقة حاكمة تشرع لصالحها. وإنما كان الحكام ينفذون مبادئ الدين التي تقضي بالعدالة بين الجميع!

وفي الخارج.. كانت السياسة الغربية كلها خداعا واحتيالا وغشا ونصبا وسرقة وغصباً وامتصاصاً للدماء! وظن " علماء " السياسة والاقتصاد هناك أن هذه أيضاً حتمية

اقتصادية! وإنما هي نتيجة حتمية لانفصال السياسة عن مبادئ الدين! وحين كان المسلمون مسلمين كانت " السياسة " الخارجية هي الصدق والأمانة في السلم وفي الحرب سواء. ومحافظة المسلمين على عهودهم ومواثيقهم مضرب المثل في التاريخ! يقول " ت. و. أرنولد في كتابه " الدعوة إلى الإسلام " [ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرين، ص 58 من الترجمة العربية]: " كذلك حدث أن سجل في المعاهدة التي أبرمها أبو عبيدة مع بعض أهالي المدن المجاورة للحيرة: فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا " ثم قال: ".. فلما علم أبو عبيدة قائد العرب بذلك (أي بتجهيز هرقل لمحاربته) كتب إلى عمال المدن المفتوحة في الشام يأمرهم بأن يردوا عليهم ما جبى من الجزية من هذه المدن، وكتب إلى الناس يقول: إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع. وإنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم، وإنا لا نقدر على ذلك. وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم. ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا إن نصرنا الله عليهم ". وهذا هو الإسلام!

ثم انفصل السلوك الجنسي عن الأخلاق! وقال الناس هنا وهناك إن هذا "تطور"!

وقد بينا في كل الفصول السابقة أنه ليس " تطورا " وإنما هو انحلال. ولا نحتاج أن نعيد هنا ما قلناه من قبل من آثار الهبوط الجنسي والإباحية الحيوانية في المجتمع الغربي.. فيكفينا في هذا شهادة القرن العشرين، التي أدلى بها الغربيون أنفسهم، وشكوا فيها من انحطاط تلك " الأخلاق ". إنما يعنينا أن نبرز حركة " التطور " المستمرة، الناشئة من انفصال الأخلاق في الغرب عن معينها الأصلي.. معين الدين. وكيف يشمل الفساد جزءاً منها بعد جزء.. لسبب واحد.. هو أنها انفصلت عن ذلك المعين!

إن الذي يزيغ أبصار الناس هنا وهناك.. أن هذا الفساد الخلقي في شئون الجنس – الذي نشأ من ابتعاد المفاهيم الخلقية عن مفاهيم الدين – **قد وقف عند هذا الحد**، ولم يسر إلى بقية شئون الأخلاق! فماذا علينا إذن – ما دام هذا – ولنسمه الفساد – تطوراً " حتمياً! "، ماذا علينا أن نبيح هذا الفساد الذي لن نستطيع أن نقوِّمه أو نقف في وجهه، ما دامت بقية الكيان الخلقي ما زالت سليمة، والتعامل مستقيما ونظيفاً لم يمسسه السوء؟!

إن الشاب والفتاة في الغرب منحلان خلقيا في شأن الجنس [بمقاييسنا نحن!] ولكنهما ما زالا نظيفي التعامل. لا غش. ولا كذب ولا خداع. واستقامة في الخلق والضمير. وإخلاص في العمل وإتقان.. فماذا نخسر لو جاريناهم وماذا نكسب من دعوى الرجوع إلى الدين؟!

حتى في هذا.. نعود إلى شهادة القرن العشرين!

أين هي " الأخلاق " في الجيل الناشئ في الغرب اليوم؟!

عصابات الخطف والنهب والسرقة والإجرام.. وعصابات الحشيش والأفيون. هل هذه هي الأخلاق؟!

عصابات تيسير الطلاق، التي توقع الأزواج أو الزوجات في جريمة الزنا، ثم تضبطهم متلبسين، لتيسر على الطرف الآخر أن يطلب الطلاق ويقدم الأسباب. والتي يقوم بها أطباء ومحامون.. هل هذه هي الأخلاق؟!

بيـــع أسرار الدولة العسكرية لأعدائها مقابل تلبيـــة الشذوذ الجنسي.. هل هذه هي الأخلاق؟!

إنها ليست " حالات فردية " مما يوجد في كل مجتمع ولا يلفت إليه الأنظار! إنها **ظاهرة اجتماعية** تجتمع لها المؤتمرات لتدرسها وتحققها. وتنبه إلى خطورتها!

ثم.. **هي آخذة في الازدياد!**

حتى الأخلاق " البسيطة " جداً.. التي كانت مضرب الأمثال في الغرب: " الأمانة " في الترام والأتوبيس وعدم " التزويغ " من دفع أجرة الركوب! حتى هذه! صار الجيل الناشئ في أوربا يهرب منها ويخالفها!

قالوا.. هذا أثر الحرب!

وربما كان كذلك! وحقاً إن هذه ليست - بعد - الصورة **الغالبة** للمجتمع الغربي! ولكنها في طريقها إلى الازدياد.. ومن هنا خطورتها. ومن هنا دلالتها.

كلا! ليست الحرب!

لقد خاض العالم الإسلامي حروبا جمة.. ولقد عاش نصف القرن الأول في حرب دائمة لا تفتر! ومع ذلك فقد كان نصف القرن هذا بالذات هو الفترة التي ترسخت فيها أخلاق الإسلام، وانتشرت في كل مكان وطئته جنود الإسلام!

ليست الحرب! إنما هو الابتعاد عن الدين! هو فصل الأخلاق عن معينها **الأصلي الذي لا معين سواه!**

لقد خُدع الناس في الغرب خديعة ماكرة حين ظنوا أهم يستطيعون أن يظلوا بعيداً عن الدين، ثم يظلوا ناجحين، ويظلوا على خلق قويم!

إنها مرحلة من مراحل " التطور ".. لا تثبت! كيف يثبت الناس على المتزلق؟!

لقد بدأ الفساد بالسياسة. ثم شئون الجنس. ثم بقية " الأخلاق ".

ومظاهر القوة والتماسك والصعود والتقدم التي تزيغ أبصار الناس في الشرق وفي الغرب، فيحسبون أنهم يستطيعون أن يبتعدوا عن قانون الله **في أي شيء** ثم يظلوا ناجحين.. هذه المظاهر خداعة ماكرة! ولنسأل كنيدي.. ولنسأل خروشوف!

إنهما يخشيان نتيجة الانحلال الحالي على مستقبل أمريكا وروسيا! وهما ليسا طفلين صغيرين.. وليسا هازلين.. إنما هما جادان أشد الجد.. يبصران ما لا يبصره هنا الكتاب المزيفون.. التقدميون التطوريون.

إن الغرب يملك قوة حقيقية جبارة وهائلة.. لأنه ما زال يملك رصيداً من " الأخلاق " التي كانت في أصلها مستمدة من الدين.. ولكنه - حين فصلها عن معين الدين - بدأ يهبط.. في كل مجال. ووصل الهبوط إلى الحد المنذر بالخطر.. الذي أطلق الصيحة على لسان كنيدي وخروشوف.

ولن ينهار الغرب غداً.. في أيام أو سنوات!

لا تقاس أعمار الأمم بالأيام والسنوات! وإنما تقاس بالأجيال!

ولكن يتضح الخط الصاعد والخط الهابط من خلال الأجيال!

وشهادة القرن العشرين تقدم لنا الجواب! إنها تقول في أوضح صورة: هذا الجيل في طريقه للانحدار!

كلا.. لا نظافة بلا دين!! إنما هي مرحلة من مراحل الانزلاق.. لم تصل بعد إلى القذارة الكاملة، لأن الأمم تتزلق في بطء شديد.. في أجيال.. وقد بدأ الغرب في الهبوط على المتزلق.. وشهد بذلك الناس هناك!

* * *

أما نحن.. فلسنا مسلمين!

كل دعوى بأننا مسلمون.. باطلة!

مسلمون بأسمائنا؟! مسلمون بسكنانا في الأرض التي " كان " يسكنها المسلمون؟!

أين نحن من الإسلام؟! ماذا فينا يحكمه الإسلام؟!

الإسلام لا يحكم واقع حياتنا كله.. ولا سلوكنا الفردي.. فكيف نكون مسلمين؟!

ولقد كتبت كتابا كاملا سميته " هل نحن مسلمون؟ " بينت فيه كيف بعدنا عن الإسلام وجافيناه. وما أحتاج أن أعيده هنا في هذا الكتاب!

ولكني فقط أقول هذه البديهية التي يستطيع أن يراجعها كل إنسان في نفسه: ماذا فينا يحكمه الإسلام؟!

إن تلك البقية الباقية من العقيدة الإسلامية في صورة " عبادات ". في صورة صوم وصلاة ومسابح، و " حج مبرور ".. كلا! ليست إسلاما!

" لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ " [149]، " فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً " [150].

الإسلام هو أن نكون مسلمين **في كل لحظة وكل عمل**. كل شئون المجتمع. كل شئون الحياة. كل التعامل الفردي. كل السلوك الشخصي.. وإلا فلسنا بمسلمين.

---

[149] سورة البقرة [177]
[150] سورة النساء [65]

ونحن ضعاف متخلفون.. كذابون منافقون.. مخادعون غشاشون.. لأننا غير مسلمين.

ويوم كنا مسلمين.. لم يكن شيء من ذلك كله في واقعنا ولا في أخلاقنا!

و لم تكن " الأخلاق " يومئذ وعظا باسم الدين! إنما كانت تربية كاملة في ظل الدين. تربية ينشأ عليها الطفل منذ مولده، ويجد قدوتها في والديه، ورصيدها الواقعي في المجتمع.

ولكننا انحرفنا عن الإسلام في المدى الطويل..!

وما بي هنا أن أدافع عن الإسلام أو أدافع عن الغرب! إن حرباً واحدة أو حربين متلاحقتين أفسدتا من المجتمع الغربي ما أفسدتاه في كل مجال.. حتى الأخلاق الفردية التي كان يفاخر بها الغرب! والعالم الإسلامي قد لاقى صنوفا من الويلات: اليهود والتتار والصليبيين والمستعمرين والمبشرين والمستشرقين، وتلاميذ المبشرين والمستشرقين. والحكام الطغاة من الداخل، والأعداء من الخارج.. وظل متماسكا ألف سنة.. حتى أخذ في الانهيار بعد كل هذه الويلات!

والموجود عندنا اليوم على أي حال ليس دينا بلا نظافة.. وإنما هو لا دين! فقد انحرفنا عن كل مفاهيم الدين، وكل مقومات الدين!

ومع ذلك.. فهناك فرق رئيسي بين انحرافنا وانحراف الغرب!

انحرافنا وانحرَافهمْ

لقد انحرف الغرب.. وانحرفنا! وطال علينا الأمد في الانحراف.. عدة أجيال!

وحالنا ولا شك أسوأ من الغرب.. فهم على الأقل ما يزالون يستمسكون بعدة فضائل – وإن كانت في طريقها إلى التفكك والانحلال بعد الحرب الثانية على الخصوص.. ولكنها لم تتفكك بعد على تمامها. ما زالوا يستمسكون ببعض الفضائل الفردية في التعامل: من استقامة وصدق وبعد عن الغش والنصب والاحتيال. وبعض الفضائل الجماعية في " التنظيمات " المختلفة التي يقوم عليها المجتمع الغربي.. وفي " العمل " بصفة خاصة، فالعامل أو الموظف يعمل ثماني ساعات متوالية (مع فترات من الراحة القصيرة تبلغ في مجموعها ساعة أو أكثر) بجد كامل وإخلاص، لا يتحدث، ولا يقص القصص، ولا يتشاغل عن عمله في صورة من الصور. ومن أجل ذلك كله يملك الغرب القوة " المادية " والقوة العلمية والقوة التنظيمية التي يملكها اليوم..

ونحن لم تعد لدينا فضائل...

لا فضائلنا نحن الإسلامية الأصيلة.. ولا فضائل الغرب الذي نقلده اليوم كالقرود تارة وكالعبيد تارة!

لا نحن في تعاملنا الفردي نصدق أو نخلص أو يستقيم لنا وعد أو نية.. ولا تنظيماتنا تتماسك إلا بمقدار ما تخشى السلطة القائمة عليها، وسرعان ما تتراخى اليد الممسكة بالسلطة، وسرعان ما تتفكك التنظيمات! وحالنا في " العمل " و " الإنتاج " هو حالنا في التنظيمات والتعامل الفردي: لا صدق ولا إخلاص، ولا صبر على عملية الإنتاج. ومن أجل ذلك نتخلف في عملية السباق الجبار الذي يصطرع فيه العالم الحديث..

ومع ذلك.. فانحرافهم أخطر من انحرافنا وأمعن في الضلال!

* * *

وللوهلة الأولى لن نصدق هذه الحقيقة!

فقد ربّانا الاستعمار الصليبي في الجيل الماضي على أن أوربا عملاق ضخم لا ينهار ولا يقهر.. ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فكل ما يفعله صواب، وكل ما يأتي من عنده فضيلة.. ومن أجل ذلك انسقنا في التقليد.. كالقرود والعبيد.. فقلدناهم في الانحلال الخلقي والتفاهات " والتقاليع! ".. في " موضات " الأزياء وموضات الأفكار سواء.. ولم نقلدهم في الصبر على العمل والصبر على التنظيم، لأن " العبيد " لا يقلدون " السادة " فيما يحتاج إلى الهمة والجهد، إنما يقلدون في مظاهر الأشياء.. التي تنساب العبيد!

ثم ولد جيل جديد ظللنا نقول له إننا تحررنا من سيطرة الاستعمار، وصرنا " سادة ".. ولمس هذا الجيل بالفعل بعض مظاهر القوة وبعض مظاهر السيادة.. ولكنه رأى بعينيه أننا نأخذ وسائل الحياة الغربية كلها دون تمييز، ونتخلى عن مكوناتنا كلها دون تمييز.. نتخلى عن مقدساتنا لنصبح تطوريين.. أي أننا في الحقيقة نستعبد أنفسنا للغرب، حتى ونحن نصطرع معه على السيادة؛ وندخل في نطاق تأثيره حتى ونحن نحاول التحرر منه..! وفي النهاية لا ننال الغرض الحقيقي على تمامه: وهو احتذاء الغرب في القوة المادية والقوة العلمية والتنظيم.. لأننا مشغولون في عملية تحطيم الدين والأخلاق والتقاليد، وشبابنا مستنفد الطاقة في السينما والتلفزيون، وأقاصيص الجنس المحموم!

لذلك لن يصدق هذا الجيل أو ذاك لأول وهلة هذه الحقيقة: أن انحراف الغرب أخطر من انحرافنا، رغم أننا الضعفاء وهم الأقوياء!

* * *

حياتنا وحياة الغرب قائمتان على أسس منحرفة.

لكن الفرق بين انحرافنا وانحرافهم، أنهم لا يملكون أساسا للتقويم، ونحن نملك هذا الأساس!

نحن نملك الأساس السليم للقوة والتقدم والحضارة " الإنسانية " الحقيقية والرفعة والصعود.. وعيبنا أننا لا ننشئ حياتنا وحضارتنا على ذلك الأساس السليم.. وذلك سر تخلفنا، وسر ما فينا من ضعف وانحراف.

أما الغرب فلا يملك أساس التقويم.. عيبه ناشئ من حضارته ذاتها.. فكلما سار فيها شوطا، على خطوطها المنحرفة، زاد في الانحراف. بل كلما زاد في القوة – على خطوطها المنحرفة – زاد في الهبوط!

" إننا قوم تعساء، لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا. إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من من عودة غيرها إليها، **ولكنها لا تدرك ذلك** ". [ألكسيس كاريل].

إن الحضارة الغربية ذاتها هي المنحرفة.. والناس هناك لا يفسدون لأنهم ينحرفون عن الخطوط الأصلية للحضارة الغربية، ولكن لأنهم - على وجه الدقة - يسيرون على خطوط تلك الحضارة، ويتبعونها بصدق وإخلاص!

نحن المسلمين انحرفنا عن الإسلام.. ففسدنا وضعفنا وتخلفنا.. أما الغربيون فلم ينحرفوا عن وحي حضارتهم. لقد اتبعوها صادقين، فكانت هي السبب في انحرافهم، وانحدارهم - كما يقول " كاريل " - إلى البربرية والهمجية والضياع.

الانحراف الغربي الأكبر، أنه لا يدرك ما في حضارته من انحراف!

* * *

تقوم الحضارة الغربية الحالية على أسسها الإغريقية الرومانية القديمة، بنفس الأهداف ونفس الروح..

الحضارة الإغريقية مدها " بالأفكار ".. التجريدية بصفة خاصة.

والحضارة الرومانية مدها " بالتنظيم "، والبحث عن الفائدة العملية، والبحث عن المتاع.

ولقد أخذت عن العالم الإسلامي " المذهب التجريبي " في العلم، الذي قامت عليه كل الحركة العلمية الحديثة، كما أخذت عنه كثيراً من الأفكار والاتجاهات.. ولكنها مزجت ذلك كله بالروح الإغريقية الرومانية الوثنية، لأنها قامت - بادئ ذي بدء - على عداء مع الكنيسة ونفور من الدين..

لذلك انحرفت.. بادئ ذي بدء!

وظل الانحراف يزداد!

لقد فصمت هذه الحضارة – ابتداء – ما بين السماء والأرض من روابط، ففصمت – مقابلها – جانبين ممتزجين في كيان الإنسان، فجعلت كلا منهما على حدة، ثم كبتت أحد الجوانب بكل وسائل الكبت، ونمت الآخر بكل وسائل التنمية!

تلك هي الخطيئة الأولى في هذه الحضارة، التي تلتها الخطايا الأخرى متتابعات.

إن النفس البشرية وحدة. والسماء والأرض وحدة. وفصل السماء عن الأرض في الحس البشري، وما يقابله من فصل الجانب الروحي عن الجانب المادي من الإنسان، لا بد أن تترتب عليه نتائجه " الحتمية ". فكلا الجانبين المعزولين، سواء الذي كبت منذ البدء، والذي نمى أكثر من طاقته.. لا بد في النهاية أن يذبلا معاً.. لأنهما منفصلان! وذلك مغزى الكلمة الصادقة التي يقولها ألكسس كاريل، ويؤكدها في كتابه بشتى أنواع التوكيد " العلمي " القائم على الدراسة والمشاهدات.

فصمت الحضارة الغربية ما بين الإنسان والله. فماذا كانت النتيجة؟

تقدم العلم. ونظمت الحياة على الأرض أرقى أنواع التنظيم.. وخيل للناس هناك أن هذا التقدم والرقي هو حصيلة ذلك الفصام [151]!

ذلك وهم أنشأته الظروف والملابسات هناك!

فالتقدم العلمي ليس عدوا للدين. وكذلك تنظيم الحياة على الأرض!

قد يكون هذا وذاك عدوا للمفهوم الكنسي للدين أو لرجال الدين والكنيسة. ولكنه ليس عدواً " للدين " ذاته. ليس عدواً لدين الله. فدين الله لا يمكن أن يقف في سبيل البشر، وهو الذي نزل لإصلاح البشرية.

والدليل هو الإسلام!

فالحركة العلمية الكبرى التي نشأ عنها المذهب التجريبي.. أو العلم الحديث في أوربا، قد نشأت في ظل الإسلام، بل نشأت من وحي الإسلام وتوجيه الإسلام!

---

[151] اقرأ فصل " الفصام النكد " في كتاب " المستقبل لهذا الدين ".

فالعرب – من قبل – لم يكونوا أهل علم. والعلوم اليونانية التي أخذ المسلمون عنها وتتلمذوا عليها بادئ الأمر لم تكن في ذاتها تنحو نحو التجريب، كما قال بريفولت ودريير [152]، ولم تكن – بذاتها – تحدث تلك النهضة. إنما التوجيه الإسلامي هو الذي حولها من التأمل إلى التجريب.. ومن ثم تقدمت تقدما كبيرا بحساب ذلك الزمان.

و " التنظيم " بكل أنواعه أخذ المسلمون أشكاله وأجهزته من الحضارات السابقة في ظل المبادئ الإسلامية الثابتة، ومزجوه بروح الإسلام وأضافوا إليه، فلم تقم العداوة بينه وبين الدين. بل كان الخليفة الراشد عمر بن الخطاب هو الذي سارع – بروحه المسلم المتمكن في الإسلام – إلى " تدوين الدواوين ".

فالوهم الباطل الذي خيل للغرب أن التقدم العلمي والتنظيم الحضاري هما حصيلة الفصل بين الدين والحياة العملية.. وَهْمٌ أنشأته ملابسات خاصة هناك، وليس حقيقة بشرية!

ولكنه كان أخطر ما جنت به الحضارة الغربية على أجيال البشرية!

لقد أنشأ مسخا مشوها في مكان " الإنسان "!

مسخا نمت فيه الجوانب الفكرية والجوانب المادية إلى أقصى حد.. وضمرت فيه الجوانب الروحية إلى أقصى حد.. فصار كريها منفراً مخيفا.. ينذر بالضياع والدمار!

هذا المسخ المشوه قد أغلق على نفسه نوافذ المعرفة كلها إلا ما يدخل من نافذة " الذهن " ونافذة " الحس ". وألغى ما يدخل من نافذة " الروح ".

والإنسان – إذا شبهناه مؤقتا بمعمل هائل دقيق التركيب – لا بد أن تدخل الأضواء إلى ظلماته من جميع النوافذ في آن واحد.. ليستطيع أن يقوم " بالتمثيل الضوئي " الخاص به على طريقة الإنسان! وكل خلل يصيب جهازا من أجهزته، أو كل نقص يصيب " الضوء " النافذ إلى ظلماته، يجعل الحصيلة النهائية ناقصة، وقد يجعلها تنتج مركبات خطرة.. سامة.. مدمرة لكيان الإنسان!

---

[152] راجع ص 177 - 179.

وهذا المسخ المشوه الذي لا يؤمن إلا بما تدركه الحواس ويدركه الذهن. يصاب - أول ما يصاب - بالعمى النوعي. فلا يبصر أمامه إلا جانبا من الشاشة. جانباً من الحياة. وبقية الشاشة في نظره مظلم.. أو لا وجود له على الإطلاق.

وتأثير ذلك في إدراكه وفي سلوكه خطر وشديد الخطورة!

فهو يدرك الأشياء ناقصة، وتتكون في حسه الصورة مشوهة.. ثم يسير في حياته على هدى هذه الصورة المشوهة، فإذا كل خطوة اضطراب.

ولا نحتاج هنا أن نعيد كل شهادة القرن العشرين.. وإنما نحتاج أن نشخصها لنعرف علاجها.

فحين تعمى روح الإنسان عن حقيقة الحياة والكون، ولا نرى منها إلا الجانب الظاهر للحس.. يختل التوازن في داخل كيان الإنسان كما يختل مسار الكوكب لو حجبت عنه فجأة بعض عناصر الجاذبية وترك لبعضها الآخر! وقد اختل بالفعل توازن الإنسان في هذا العصر، فجذبته الأرض بكل عنفها، حين انقطع عن جاذبية السماء!

نشاط الروح.. في اتصالها بخالقها، واستمدادها النور منه، والاتصال بروح الكون اتصال المحبة والتفاهم والتعاون، والاتصال بروح البشرية على إخاء. هذا النشاط لم يودعه الخالق كيان الإنسان اعتباطا، تعالى الله عن العبث وعدم القصد: " وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ " [153] " أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً "؟! [154]. وإنما أودعه كيان الإنسان ليعادل به جواذب الأرض وهواتفها، وهي عنيفة شديدة تحتاج دائماً إلى ما يوازنها ويعادلها.

فلما حدث " الفصام النكد " في الغرب بين الإنسان والله. بين الدين والحياة.. انكفأ الإنسان على وجهه يهيم في الأرض.. باحثا عن اللذة والمتعة والقوة.. بلا هدى يعصمه من السعار.

والسعار المحموم الذي يغشى المدنية الغربية اليوم هو النتيجة الحتمية لذلك الفصام.

---

[153] سورة الدخان [38].
[154] سورة المؤمنون [115].

إنه ليس انحرافا عن أصول الحضارة الغربية.. إنما هو الحضارة الغربية ذاتها في ذروة اللمعان! إنه لا يمكن أن يُتقى.. ما دام الأساس ذلك الأساس!

و " الطيبون " الذين يظنون أنهم يستطيعون أن يأخذوا الحضارة الغربية – على أصولها الغربية – ثم يحولوا دون انحرافاتها..أو يمتنعوا عن أضرارها.. هم " طيبون " جداً.. مضّللون جداً.. لأنهم يتخيلون شيئاً لا يمكن أن يحدث.. شيئاً ضد طبائع الأشياء!

هذا السعار المحموم الذي يتجلى في " الإغراق " في كل شيء.. الإغراق في المادية. الإغراق في الآلية. الإغراق في وحشية الصراع. الإغراق في متاع الجنس. الإغراق في البحث عن السلطان.. إنه ليس شيئاً عارضاً نشأ عن مخالفة الناس في الغرب لأصول الحضارة الغربية، إنما هو شيء في صميم تلك الحضارة، ونتيجة حتمية من نتائجها.

نتيجة حتمية لطمس الجانب الروحي في الإنسان!

ولقد سخر الغرب كله بحقيقة الروح.. سخر منها التفسير المادي للتاريخ [وهو ليس ملكا للشيوعية وحدها في الحقيقة، فقد رأينا أن الغرب الرأسمالي محكوم بمفاهيمه [155]] وسخر منها التفسير الجنسي للسلوك البشري. وسخر منها التفسير الجمعي للإنسان [دركايم] وسخر منها طائفة كبيرة من الكتاب والعلماء والصحفيين والفنانين.. أو في القليل تجاهلوها فلم يجعلوها في الحساب!

وكانت النتيجة الحتمية هي ذلك الانحراف المجنون.

حين لا يؤمن الإنسان بالله واليوم الآخر.. أو لا يؤمن بهما إيمانا جاداً يحكم السلوك والمشاعر والحياة العملية.. فالنتيجة الحتمية هي أن يرى هذا العالم وحده.. عالم الأرض.. وأن يعبد *** القوى الأرضية: يعبد الدولة. أو يعبد المجتمع. أو يعبد المادة. أو يعبد ذاته. أو يعبد الشيطان!

ثم.. يتكالب على متاع الأرض كله.

يتكالب على الفرصة الوحيدة المتاحة للمتاع..

[155] راجع شهادة ول ديورانت الأمريكي في فصل شهادة القرن العشرين.

ومن هنا لا يكون شيء من التكالب الذي يدمر البشرية اليوم أمراً عارضاً في الحضارة الأوربية يرجى له الصلاح. إنما هو شيء في صميمها، ونتيجة حتمية من نتائجها!

تكالب الفرد الرأسمالي في الغرب على تركيز المال في يده، وتركيز السلطة الناشئة من المال.. وما يتبع ذلك من استغلال بشع، وامتصاص دماء، واستعمار وطغيان.. إنه ليس خللا " اقتصاديا " في الحضارة الغربية. إنه نتيجة " التفرغ " لهذه الأرض.. والانصراف عن هدى الله.

وتكالب الدولة الشيوعية على تركيز المال في يدها وتركيز السلطة الناشئة من المال.. وما يتبع ذلك من استعباد الدولة للناس، وإذلالهم، ونزع آدميتهم، وتحويلهم إلى آلات.. ليس مجرد اختلال " اقتصادي " مقابل لاختلال الرأسمالية. إنه مثلها تماما، اختلال في تصور الكون والحياة وتصور الإنسان.. اختلال نشأ من التفرغ لهذه الأرض.. والانصراف عن هدى الله.

وتكالب الشرق والغرب على القوة، بالصورة التي تنذر بالتدمير.. ليس اختلالا " سياسياً " عارضاً.. وإنما هو اختلال أصيل في النظرة إلى " القيم " التي تحكم الحياة.

والتكالب الجنسي.. لا يحتاج إلى تعليق! [156]

كلها اختلالات!

اختلالات لها ظروف محلية في أوربا.. ولكنها نشأت بادئ ذي بدء من ذلك الفصام النكد بين الدين والحياة.

هذا الفصام هو الذي أتاح للتوجيه اليهودي أن يدخل المعركة لتدمير المسيحية، وتدمير " الأمميين " بصفة عامة.

وهذا الفصام هو الذي أقام الانقلاب الصناعي في صورته المادية الخالصة التي لا تراعي قواعد الأخلاق ولا قواعد " الإنسانية ".

---

[156] اقرأ فصل " تخبط واضطراب " من كتاب " الإسلام ومشكلات الحضارة "

وهذا الفصام هو الذي أخرج المرأة من وظيفتها الفطرية الأولى إلى المصنع والمتجر والطريق.. وأخرجها للإغراء والغواية.. لتحطيم ما بقي في الحياة من علوية ورفعة.. والهبوط بها إلى حمأة الجنس المسعور.

وهذا الفصام هو الذي سخر العلم في طريق الشر [إلى جانب ما يؤديه من خدمات للبشرية] فأفسد الأمم والأفراد.

وهذا الفصام هو الذي جعل صورة " الإنسان " مشوهة ممسوخة.. فقامت نظم التربية ونظم السياسة ونظم الاقتصاد ونظم المجتمع والفنون تغذي هذه الصورة الممسوخة وتمد لها في التشويه!

وفي اختصار هو الذي أنشأ كل ما في الغرب من الفساد!

* * *

وهو فساد خطر لأنه لا يملك السبيل إلى التوقف أو العلاج!

لا يملك مقياس الحكم الصحيح على الأشياء..

لو كانت للحضارة الغربية مقاييس " إنسانية " صالحة، انحرف الناس عنها، لكان هناك الأمل في عودة الناس إلى المقاييس " الصحيحة "، ورجوعهم عن الفساد.

ولكن ما هي المقاييس " الصحيحة " لهذه لحضارة؟!

لقد " قالت " هذه الحضارة كلاما كثيراً عن " حقوق الإنسان " و " الحرية والإخاء والمساواة " و " الكرامة الإنسانية " و " الرفعة الإنسانية " و " العظمة الإنسانية " و.. و.. و..

ثم عملت هذه الحضارة – مخلصة – على خطوطها الأصيلة – لتحقيق هذا الكلام!

عملت – مخلصة – وهي ترى " الإنسان " في الحقيقة في صورة " الحيوان "! وهي تفصل الإنسان عن الله. وتفصل الحياة عن الدين. وتفصل المادة عن الروح، وتفصل الدنيا عن الآخرة!

وكانت النتيجة أن عملها أوصلها إلى غايتها المحتومة!

فانقلبت حقوق الإنسان، والحرية والإخاء والمساواة، والكرامة الإنسانية، والرفعة الإنسانية، والعظمة الإنسانية،.. إلخ.. إلخ إلى هذه الصورة البشعة التي لمسنا جانباً منها في شهادة القرن العشرين، ولمسنا جانباً منها في هيروشيما ونجازاكي، وجانباً منها في التفرقة العنصرية في أمريكا وأفريقيا.. وجانباً منها في كل مجال وفي كل مكان!

لم ينحرف الناس عن " أصول " الحضارة الغربية! إنما اتبعوها فأوصلتهم إلى البوار!

و " الطيبون " الذين يرون الوجه اللامع من الحضارة الغربية، والبقية الباقية من الفضائل الموجودة في الغرب، عليهم أن يروا كذلك الوجه الأسود الكالح لهذه الحضارة، ثم يتذكروا شهادة كاريل:

" إننا قوم تعساء، لأننا ننحط أخلاقياً وعقلياً. إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم، هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها ".

إنها نهاية الخط.. خط الانحراف.

ولكنه انحراف أصيل في هذه الحضارة لم يطرأ عليها من خارجها. لم يطرأ من انحراف الناس في تصور مفاهيمها أو تمثل حقائقها. وإنما نشأ من طبيعة قيامها منذ أول لحظة على أساس معادٍ للدين، شارد من الله.

ونحن – كما أسلفنا – أسوأ من الغرب في وضعه الراهن..

نحن أضعف منه قوة وعلماً وتنظيما.. وكذلك نحن فاسدو الأخلاق.

أخلاقنا هي الغش والنفاق والكذب والخديعة.. وهي النفور من المسئولية وعدم الصبر على التنظيم وعدم الجد في الإنتاج.

وأخلاقنا في شئون الجنس لم تعد في شيء أنظف من الغرب! والبركة في التوجيه المستمر من الصحافة والإذاعة والسينما والتليفزيون وكتاب القصة " الفنانين " "الموهوبين" " المبدعين "!

ولكننا مع ذلك نملك السبيل إلى التقويم، بصرف النظر - مؤقتا - عن اتجاهنا أو عدم اتجاهنا إلى السبيل!

نحن نملك الإسلام..

نملك أكبر قوة إصلاحية على وجه ارض..

وانحرافاتنا كلها هي الانحراف عن الإسلام..

وطريقنا للقوة والصعود والتمكن والتقدم والحضارة والإنسانية. بل طريقنا لإنقاذ البشرية كلها.. هو الرجوع إلى الإسلام.

أما الغرب.. فلا طريق أمامه - على خطوطه الحالية - إلا طريق الضياع والدمار..

فأي الطريقين هو الذي يكتب مستقبل البشرية؟!

مستقبل البشرية

حين أطلق الفيلسوف المعاصر " برتراند راسل " نبوءته الصادقة سنة 1950: "لقد انتهى العصر الذي يسود فيه الرجل الأبيض. وبقاء تلك السيادة إلى الأبد ليس قانوناً من قوانين الطبيعة. وأعتقد أن الرجل الأبيض لن يلقى أياما رضية كتلك التي لقيها خلال أربعة قرون.. " حين أطلق نبوءته الصادقة هذه لم يكن يشير إلى ملابسات " سياسية " معينة تنهي دور الرجل الأبيض في تاريخ الحضارة البشرية.. فالسياسة في الحقيقة إن هي إلا المظهر الخارجي لحقيقة الأوضاع الداخلية للأمم: الأوضاع الفكرية والروحية والنفسية والاجتماعية والعلمية والمادية.. سواء! وإنما كان الرجل - الفيلسوف - يدلي - على طريقته الفلسفية - بنصيبه في شهادة القرن العشرين!

انتهت سيادة الرجل الأبيض، لأن حضارته قد وصلت إلى غايتها - على خطوطها المنحرفة - فأخذت في الانهيار.. تلك شهادة القرن العشرين من جميع جوانبها، ومن بينها نبوءة ذلك الفيلسوف.

وليس أمام الرجل الأبيض طريق - من حضارته الحالية - ينقذ به نفسه، وينقذ البشرية التي يتولى اليوم قيادتها، ويتولى كذلك هلاكها [157]!

فطريقه الذاتي المملوء بالحفر المدمرة.. وهو منطلق بأقصى ما وسعه من طاقة في هذا الطريق.. طريق الشيطان!

* * *

ومع ذلك فلسنا متشائمين بمستقبل البشرية!

ولسنا نبني تفاؤلنا - بطريقة صبيانية - على التقدم العلمي الجبار الذي سييسر الحياة في المستقبل، وسيصنع الأعاجيب! ولا على دعاوى " الإنسان " في السيادة على البيئة والتحكم في الظروف والتحرر من العجز والتحرر من القيود.. إلى آخر هذه الدعاوى الفارغة التي يرددها كتاب الغرب المفتونون وتلاميذهم في الشرق، الذين يحسبون أنفسهم من " الرواد " حين يلوكون هذه الأقاويل.. فقد رأينا من شهادة ألكسيس كاريل

[157] اقرأ فصل " انتهى دور الرجل الأبيض " في كتاب " المستقبل لهذا الدين ".

أن التقدم العلمي ذاته – على خطوطه الحالية – هو الذي سيسرع بالناس إلى العودة للبربرية والهمجية، وأن تحكم الإنسان في البيئة وسيادته عليها – بتصوراته الحالية – هو ذاته الذي يجعله ينشئ حضارة لا تلائمه، وتؤدي به إلى الدمار!

وإنما نبني تفاؤلنا على الواقع السيئ الذي تعيشه البشرية اليوم في ظل الحضارة الغربية! والذي يأخذ طريقه إلى الازدياد!

فهذا الواقع السيئ هو الذي سيهدي البشرية إلى الصواب!

* * *

لم يعد لدى حضارة الغرب رصيد طيب تعطيه..!

إن التقدم العلمي هو الرصيد الوحيد الذي سيسلمه الغرب للبشرية.. وهو من الأصل رصيد البشرية كلها على مدار الأجيال.. بدأه المصريون القدماء والإغريق والهنود.. وأخذه المسلمون منهم وأضافوا إليه.. وسلموه لأوربا ففتحت فيه فتوحاً واسعة.. وستسلمه أوربا غداً لمن يحمل الراية في المستقبل.. دورة دائمة تتداولها الأجيال.

ولكن الغرب – فيما عدا هذا – لا يملك الكثير!

هناك فضائل نفسيه واجتماعية وتنظيمية ما زال يحملها الغرب ولا شك.. هي التي تحفظ كيانه إلى هذه اللحظة أمام هذا السيل الجارف من المدمرات.. في الفوضى الجنسية والخلقية، والإلحاد، وتفكيك روابط الأسرة والمجتمع، الانفلات من كل القيم وكل المعنويات.

ولكن هذه الفضائل هي التي تتضاءل يوماً بعد يوم.. كل حرب وكل أزمة تنقص منها وتزلزلها.. لأنها فقدت معينها الأول الذي يصونها ويجددها على الدوام: معين الدين.. الصلة الحقة بالله.

وشهادة القرن العشرين.. والشباب المهدد بالضياع.. وصيحة كنيدي وخرشوف.. وبرتراند راسل.. وغير هؤلاء وهؤلاء.. كلها تشير إلى أن هذه الفضائل في طريقها إلى التضاؤل. والانهيار!

" سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً " [158].

* * *

وإذن فلن يكون الخلاص على يد الحضارة الغربية، ولا حضارة من نوع الحضارة الغربية!

البشرية في حاجة إلى تحول جذري في مجالاتها جميعاً.. في حاجة إلى بناء جديد.

وهناك خطوط ستظل بلا شك دون تغيير أو حاجة إلى التغيير.. فالعلم يسير على خط صاعد وسيظل كذلك. ولا خوف عليه – حين تتغير نظم البشرية ومناهجها – أن يتوقف أو يضيع! وتاريخ البشرية كله يومئ إلى أنه لم يتوقف قط. وإنما تتسلمه أمة من أمة لتزيد عليه وتنميه. وفي التاريخ الحديث شواهد على ذلك. فقد كانت روسيا حين بدأت ثورتها تكاد تكون أمية في دنيا العلم.. ثم إذا هي تسبق الغرب – الذي تتلمذت عليه – في أبحاث الذرة وأبحاث الفضاء! والصين بدأت من تحت الصفر! واستعارت من روسيا كل شيء.. العدد والأدوات والفنيين والأموال.. ثم.. إذا هي خطر ماثل، يلجئ روسيا ذاتها إلى محاولة التفاهم مع الغرب للوقوف أمام الخطر الأصفر...

لا ارتباط إذن بين التقدم العلمي وبين الحضارة الغربية الحالية.. ولن يقف العلم أو ينهار إذا انهارت في القريب أو البعيد حضارة الرجل الأبيض!

و " التنظيم " العلمي للحياة لا يتوقف هو الآخر.. إنما يحتاج إلى تعديل " الآلية " المسيطرة عليه، والتي تأخذ اليوم برقاب الغرب، وتقتل منه الروح، و " فردية " الإنسان[159].

وفيما عدا هذا ينبغي أن يشمل البشرية تغيير جذري يغير كل طريق البشرية!

* * *

---

[158] سورة الأحزاب [62].

[159] كل إنسان – كما خلقه الله – عالم فرد لا يتماثل مع غيره من الأفراد، وإن تشابه مع الجميع. ولكن الآلية التي يعكسها العلم اليوم على الغرب تفقد الفرد فرديته، وتصب الناس في قوالب جاهزة كالإنتاج المادي! [انظر كاريل: الإنسان ذلك المجهول].

ما صورة هذا التغيير؟

فلننظر في انحرافات البشرية الحالية، لنعرف كيف يكون التغيير الذي يهدف إلى معالجة الانحراف!

هنالك نقطتان رئيسيتان تنحرف فيهما البشرية الحالية انحرافاً جذرياً خطيراً.. أو هو انحراف أصلي نشأ عنه انحراف آخر لا يقل عنه خطورة..

الانحراف الأصلي هو البعد عن الله.. النفور من الدين.. وإقامة الحياة كلها على أساس لا ديني (secular).

والانحراف الذي نشأ عنه هو تشوه التصور الإنساني " للإنسان ". فهو يقوم من ناحية على أساس التصور المادي الحيواني للإنسان، ومن ناحية أخرى على أساس "جزئية" الإنسان.

والعلاج – إذن – هو العودة إلى الله بادئ ذي بدء. وهو تصحيح تصور الإنسان لنفسه. على أساس " **إنسانية** " الإنسان من ناحية. و " **شمول** " الإنسان من ناحية أخرى.

العودة إلى الله لا تعني مجرد إضافة قدر من " الروحانية " على أسس الحياة الغربية الحالية! فهذا المزيج المتنافر لن يصلح الحياة البشرية في شيء! ولن يزيد الناس إلا تمزيقاً واضطراباً وحيرة في مواجهة الحياة!

* * *

إنما المقصود شيء آخر.. شيء يصنع تغييراً جذريا في " التوجه " الإنساني ذاته! فيتجه بادئ ذي بدء إلى الله! لا إلى أحد سواه!

إنه شيء حقيقي. شيء جاد! لا مجرد تلهية وعبث وزخرفة!

التوجه إلى الله معناه إفراده – سبحانه – بالألوهية. معناه حاكمية الله وحده. معناه أن يكون هو – سبحانه – صاحب الأمر الحقيقي بين الناس. هو الذي يضع للناس شريعتهم ومنهج حياتهم. هو الذي يخطط لهم سياسة مجتمعهم وسياسة أموالهم. هو الذي يحدد لهم علاقة الفرد بالمجتمع. وعلاقة الناس بالدولة. وعلاقة الرجل بالمرأة. وعلاقة الأمة بالأمم. وعلاقة " الإنسان " " بالإنسان ".

شيء حقيقي جاد.. لا مجرد تلهية وعبث وزخرفة!

ليس مجرد صلوات لله في المعابد، ولا سبحات روحية مرفرفة، ولا تزجية لأوقات الفراغ!

إنما هو إقامة الحياة كلها على أساس العبودية الحقة لله! وعدم الاستنكاف من عبادة الله على هذا المنوال!

أما المزج بين الحياة الحالية وبين " قدر " من التدين، فقد كان النقطة الخطرة التي بدأ عندها الانفصام الحالي، والتمزق، والحيرة، والاضطراب!

إن الحياة لا تصلح بعبادة إلهين مختلفين. أو إله في السماء وآلهة متعددة في الأرض! نهايتها الحتمية هي ما وصلت إليه أوربا اليوم من تمزق وفساد.

ولا تصلح كذلك بعبادة إله غير الله. فكل إله غير الله باطل، سريعا ما يَعطب ويُعطب عبَّادَه. وآخر هؤلاء الآلهة المزيفين هو الإنسان ذاته.. حين عبد الإنسانُ ذاته! فسريعا ما عطب ذلك المعبود وأعطب نفسه التي تعبده! وأسرع بنفسه إلى الهلاك والبوار!

" أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ! " (160).

" أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ! " (161).

" أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ! " (162).

" أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ! " (163).

" أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ! " (164).

(160) سورة النمل [60].
(161) سورة النمل [61].
(162) سورة النمل [62].
(163) سورة النمل [63].
(164) سورة النمل [64].

وعبادة الله الواحد معناها نقض الأسس الحالية كلها للسياسة والاجتماع والاقتصاد.. وتغيير صورة الحياة بأكملها.

معناها إلغاء عبادة الدولة. وعبادة رأس المال. وعبادة المجتمع. وعبادة الفرد الإنساني.. وما يترتب على كل هذه العبوديات من انحراف.

النظم الجماعية التي تجعل الدولة – أو الزعيم – هو المعبود.. والنظم الفردية التي تجعل رأس المال هو المعبود.. والنظم التي تقدس المجتمع وتجعله محور ارتكازها الآمر الناهي المسيطر، وتلغي بذلك كيان الفرد وتسحق وجوده، فلا يتبقى له إلا كونه فرداً في القطيع.. والنظم التي تقدس الفرد فتنفخ في كيانه على حساب المجتمع، فتفكك المجتمع. كلها نظم باطلة.. منشأ بطلانها هو " العبادة " المنحرفة التي تتوجه بها لغير الله!

ولن تصل هذه النظم إلى " التوازن " الذي يوازن انحرافاتها ويَعْدِلُها إلا بنقض هذه العبادات المنحرفة كلها، والعودة **الحقيقية** إلى عبادة الله.. أي استمداد النظم والمناهج كلها منه، لا مجرد التسلي بالتوجه إليه في ساعات الفراغ!

والانحرافات الاجتماعية والخلقية التي رأينا جانبا منها في شهادة القرن العشرين، والتي تخصصت كتب " غربية " كاملة لشرحها والإفاضة فيها.. لن تتوازن كذلك إلا بنفض العبادات المنحرفة، ومن بينها عبادة المجتمع وعبادة الإنسان لذاته.. أي لشهواته! والعودة إلى عبادة الله، الذي يضع الضوابط المنظمة للحياة البشرية.

* * *

أما انحراف التصور الإنساني " للإنسان ".. وهو فرع من الانحراف الأصلي الذي بعد بأوربا عن الدين، فانفلت قيادها التصوري كما انفلت قيادها الاجتماعي والخلقي.. أما هذا الانحراف فقد أخذ طريقين رئيسيين.

إقامة الحياة كلها على أساس حيوانية الإنسان وماديته.

وإقامتها على أساس المفهومات الجزئية للإنسان.

وكلاهما أنشأ ألوانا من الفساد الخطر في حياة البشرية..

حيوانية الإنسان وماديته ترتب عليها في التصور الأوربي إقامة مجتمع لا تسيره مفاهيم " الإنسان " ولا تصوراته، ولا مشاعره، ولا سلوكه. إنما تسيره في مكان ذلك كله مفاهيم " الحيوان "! ومفاهيم " الآلة "! ومن ثم تضاءل مكان العقيدة في حسه، وانفلتت ضوابطه الخلقية في مجال الجنس، وهبطت علاقة الجنسين عنده إلى علاقة جسدية " بيولوجية! " همها الحصول على اللذة، والإغراق في المتاع. وذلك – بصفة خاصة – هو الذي يسرع بتدمير البشرية كما قالت شهادة القرن العشرين! كما ترتب عليها تحويل الإنسان إلى " آلة " إنتاجية.. تنتج وتنتج وتنتج.. ولا " تحس " إلا على مستوى الحيوان[165].

أما جزئية الإنسان فقد ترتب عليها تضخيم جوانب منه على حساب جوانب أخرى، أو تجاهل الكيان الكلي عامة، ومحاولة " إنشاء " إنسان جديد على أسس فاسدة تصطدم مع الفطرة وتفسد كيان الإنسان.

فالتفسير المادي للتاريخ، والتفسير الجنسي للسلوك، والتفسير الجمعي للحياة، والتفسير " الرجالي " للمرأة [166].. والتفسير الآلي للسلوك [الذي يفسر السلوك البشري على أنه صادر عن " الآلة " البشرية] وغيره وغيره وغيره.. كلها قائم على أخذ جزء من الإنسان والزعم بأنه هو " الإنسان "، وتصور الحياة كلها على هذا الزعم!

وانعكاس هذا الانحراف وذاك على الحياة البشرية المعاصرة واضح شديد الوضوح. فتضخيم الجانب المادي من الحياة على حساب الجانب الروحي والعاطفي. وتضخيم الجانب الجنسي على حساب الجانب الخلقي. وتضخيم الجانب الجماعي على حساب الجانب الفردي [أو العكس].. ومحاولة " صياغة " إنسان جديد لا يحس ولا يفكر على مستوى " الإنسان " وإنما على مستوى الآلة أو مستوى الحيوان.. ومحاولة " إنشاء " امرأة ليست أنثى.. الخ.. الخ.. كلها هوسات نشأت من انحراف التصور الإنساني للإنسان، ولا علاج لها إلا العودة للتصور الشامل للإنسان!

التصور الشامل الذي يتصور الإنسان في حقيقته الشاملة المتكاملة: قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله، ممتزجين مترابطين، يتكون منهما كيان واحد موحد الأجزاء.

---

(165) راجع " كاريل ": الإنسان ذلك المجهول، و " ول ديورانت ": مباهج الفلسفة.

(166) راجع شهادة الطبيبة النمسوية ص 218 – 221.

الجسم والروح حقيقة واحدة.

الجانب المادي والجانب الروحي حقيقة واحدة.

الجانب الاقتصادي والاجتماعي والجانب الخلقي والمعنوي حقيقة واحدة.

كل نشاط الإنسان حقيقة.. وحقيقة مترابطة ممتزجة.

لا ينفصل النشاط الجنسي عن الأخلاق، لأن هذا وهذه جزءان غير منفصلين من كيان " الإنسان ".

والبحث عن الطعام.. والإنتاج المادي.. وتحسين أساليب الإنتاج.. والتقدم العلمي.. كلها لا تنفصل عن النشاط الروحي و " القيم " الخلقية والإنسانية. لأنها جميعاً جوانب متعددة – مترابطة – من كيان واحد شامل متكامل.

ومن ثم لا تنفصل في حياة الإنسان عقيدته عن واقعه. وأخلاقه عن سلوكه. ونشاطه الجنسي عن نشاطه الروحي. ونشاطه المادي عن نشاطه المعنوي.. لأنه لا انفصال في نفس الإنسان بين هذه وتلك. وليست نفس الإنسان " خزائن " منفصلة: خزانة للعقيدة، وخزانة للواقع. خزانة للجنس، وخزانة للأخلاق. خزانة للنشاط المادي، وخزانة للنشاط الروحي. وإنما يواجه الإنسان الحياة بكيانه المتكامل ونشاطه الشامل، وإن برزت – في لحظة – بعض جوانبه وانحسرت جوانب أخرى.. فهي **لا تنفصل** بحال من الأحوال![167]

وبهذا التصور المبني على حقيقة الإنسان، تتوازن الحياة البشرية وتنجو مما فيها من انحراف.

* * *

ذانك هما الانحرافان الأساسيان في حياة القرن العشرين: البعد عن الله، وفساد التصور " للإنسان ".

ومن هذين الانحرافين الرئيسيين نشأت كل الانحرافات الأخرى الجزئية.

[167] راجع كتاب " الدراسات ".

ووصل الانحراف إلى درجة من السوء لا يمكن أن تستمر! لا يمكن أن تستمر دون تدمير البشرية!

وهذه هي النقطة التي ينشأ منها التغيير!

فحين تحس البشرية بالخطر على كيانها ذاته.. حين تقف على حافة الهاوية. تستيقظ! وتسعى إلى التغيير!

وستستيقظ البشرية من هوستها المجنونة لا شك! وستسعى للتغيير!

ستعود – ولا بد – لنظام يتجنب ما وقعت فيه من انحراف.

ستعود إلى الله. وإلى التصور الصحيح للإنسان.

ستعود إلى الإسلام!

فليس في أفكار البشرية كلها فكرة واحدة تُصلح هذا الانحراف كله إلا الإسلام!

فهو الذي يربط الإنسان – ربطاً جاداً – بالله، ويستمد من الله منهج الحياة. وهو الذي يتصور الإنسان على حقيقته الشاملة المتكاملة المتوازنة.

وليس أمام البشرية إلا طريقها المنحرف الذي تسير فيه اليوم ويوصلها إلى الهاوية.. أو الرجوع إلى الإسلام.

ونحن نعتقد – من واقع البشرية الحالي – أنها ستفيق من غشيتها، وتفيء إلى الإسلام! ما لم يكتب الله لها التدمير في هذا الجيل أو الجيل الذي يليه في غد غير بعيد!

ونحن أكثر إيماناً برحمة الله من أن يدمر البشرية – في غوايتها في هذا الغد القريب.. قبل أن تستجيب!

* * *

ولكن هذه لن تكون مسألة سهلة!

حقا لقد بدت بوادر توحي بعودة الإنسان في الغرب إلى الدين!

فالعلماء – أنبياء البشرية اليوم – بدأوا واحدا إثر واحد يصلون بعقولهم العلمية البحتة إلى وجود الله من وراء الدقة المعجزة التي يدار بها الكون!

قال جيمس جيتر العالم الفلكي الذي بدأ حياته ملحدا شاكسا: " إن مشكلات العلم الكبرى لا يحلها إلا وجود إله! ".

وقال أ. كريسي موريسون رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك، في كتابه " Man Does Not Stand Alone " المترجم بعنوان: " العلم يدعو للإيمان ": " إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها تكون الحياة بدونها مستحيلة. وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض، والمظاهر الفاخرة لذكائه، إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارئ الكون [168] ... إن الإنسان ليكسب مزيداً لا حد له من التقدم الحسابي في كل وحدة للعلم. غير أن تحطيم ذرة دالتون – التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون – إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب وإلكترونات طائرة، قد فتح مجالا لتبديل فكرتنا عن الكون والحقيقة تبديلا جوهريا. ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي. وإن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتدع مجالا لوجود مدبر جبار، وراء ظواهر الطبيعة" [169].

وكان أول انعكاس في نفس جاجارين رائد الفضاء الروسي حين خرج إلى الفضاء.. هو البحث عن الله! وإن كانت " الدولة " الشيوعية قد انزعجت من تصريحه بذلك بعد عودته إلى الأرض، وخشيت على ما جهدت في نشره من الإلحاد، فأوحت إلى الرائد الثالث " تيتوف " أن يقول إنه بحث عن الله في السماء فلم يجده!

المهم.. أن رجال " العلم " بدأوا يلوذون بحمى الله.. في داخل معاملهم وأبحاثهم العلمية البحتة.. وذلك أول الطريق!

ثم إن صيحات الخطر تنطلق في كل مكان تنذر بسوء مصير البشرية إن هي داومت السير على ما هي فيه اليوم من انحراف.. وكلها تنادي أن العودة إلى الله هي العلاج، والعودة إلى التفسير الشامل للإنسان!

ولكن الأمر ليس هينا بحيث تكفي فيه صيحات متفرقة من هنا أو هناك!

---

[168] يلاحظ تأثر الكاتب برواسب الحضارة المادية حتى وهو يستشرف بعقله إلى النور الإلهي.. " برنامج ينفذه بارئ الكون ".. إنه تعبير مثقل برواسب الحضارة المادية وأساليبها العملية.. والإدارية!!

[169] العلم يدعو للإيمان. ترجمة محمود صالح الفلكي ص 44 – 45.

إن أسبابا جمة - حقيقية وخطيرة - تصد الناس في الغرب عن الله، وعن النهج القويم للحياة.

* * *

إن الحماقات التي ارتكبتها الكنيسة الأوربية كانت حماقات تاريخية! ولم تكن شيئاً عارضا في حياتها أو حياة البشرية!

يستوي في هذه الحماقات الطغيان البشع الذي مارسته الكنيسة على الناس. والجهالة المخرفة التي عاش فيها رجال الدين في القرون الوسطى. والمفاسد الخلقية الشنيعة التي ارتكبوها في ذات الأمكنة المخصصة للعبادة والقداسة والترفع عن الشهوات. ومهزلة صكوك الغفران.. ثم تقتيل العلماء وتعذيبهم حين يكتشفون حقائق الكون والحياة!

هذه الحماقات كلها قد حفرت آثاراً عميقة في مشاعر الغرب وأفكاره.. ليس من الهين إزالتها.. وهي حصيلة أجيال!

حقا إنها حصيلة غير منطقية! فلم يكن لزاما على الغرب حين عادى الكنيسة أن ينفر من الله ويعادي الدين. وكان بوسعه أن يصحح مفهومه الديني بدلا من تحطيمه. ولكن هذا هو الأمر الذي وقع بالفعل، وهو الذي يواجهنا بنتائجه اليوم أياً ما كان فيها من أخطاء!

والعودة إلى الدين - مهما كانت بوادرها ظاهرة اليوم - ستكون - حسبما نرى بمنطقنا البشري المحدود - بطيئة بطيئة تحتاج إلى أجيال! [ما لم يرد الله غير ذلك! وما أسهل ما يريد الله. وما أسهل ما ينقلب الإنسان فرداً وجماعة من موقف العناد مع الله، إلى موقف التسليم! وهي حالة لها نماذج مكرورة في البشرية، خاصة في أوقات الأزمات!]

وليس هذا هو السبب الوحيد.. فقد لابسته كذلك ظروف وملابسات.

إن " المنطق العلمي " الذي يسيطر اليوم على الغرب، أو " المنطق المادي "، يقف عثرة في سبيل العودة إلى الدين والعودة إلى الله!

إن الإيمان " بقوانين الطبيعة " وثبوتها.. يفسد تفكير الغرب، ويفسد توجهه إلى الله! " فالعلم " كله في الغرب قائم على أساس ثبوت هذه القوانين وعدم تعرضها - ولا

إمكان تعرضها - للتغيير! وهذا حق من أحد جوانبه. فلم يكن العلم ليتقدم خطوة واحدة لولا افتراض ثبوت السنن الكونية، التي تبنى عليها المشاهدات والتجارب، وتستمد منها النتائج والقوانين..

ولكن الغرب.. يريد أن يقيد بها قدرة الله!

ومن ناحية أخرى يتصور أن الله - مع التسليم بوجوده - قد أودع الكون هذه القوانين ثم تركها تعمل بطريقة آلية فتؤدي إلى كل عمليات " الخلق " وكل عمليات الكون، دون تدخل منه سبحانه!

وقد لقيت فتىً ألمانيا - مسلماً! - اجتذبته بساطة العقيدة الإسلامية واستقامتها وشمولها فآمن بأنها الحق، ومع ذلك فهو يجد أزمة عنيفة في نفسه من أجل " المعجزات " لأنها تخالف قوانين الطبيعة!

إنه لا يستطيع أن يتصور حدوث المعجزة بحال! ولا تدخل الله المباشر في شأن من شئون الخلق أو شئون الحياة، بعدما أودعها " القوانين " التي تسير عليها!

وحين قلت له إنه يخطئ في تصور أن تدخل الله المباشر لا يحدث إلا في " مخالفة " قوانين الطبيعة وإنما يحدث هذا التدخل المباشر في كل لحظة للمحافظة على ثبوت هذه القوانين، وإلا ما ثبتت على ما هي عليه.. كانت هذه مفاجأة ضخمة لتفكيره! هذا وهو يقرأ في القرآن: (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ) [170]

فكيف بغير المسلمين في الغرب الذي أفسدته هذه التصورات؟!

لقد نما المذهب التجريبي في العالم الإسلامي في ظل العقيدة الإسلامية، وفي ظل الإيمان بثبوت " سنة الله " [التي يسميها الغرب جهلا وعناداً منه " قوانين الطبيعة! "] ومع ذلك لم يصطدم في حسهم بقدرة الله المطلقة التي تستطيع أن تغير ما تشاء حين تشاء! فآمنوا بالعلم، وآمنوا بالمعجزة؛ في بساطة بلا تعارض ولا تمزق في التفكير! وهذا هو المنهج الصائب في تفهم الحقيقة الإلهية والحقيقة الكونية. ولكن " العلم " في الغرب المبني على نفهم قاصر، يصد الناس عن السبيل!

[170] سورة فاطر [41].

والمتاع الزائد عن الحد...

إنه " الأزمة " الحقيقية في حياة الغرب..

لقد يمكن أن يصطلح " العلم " مع الإيمان " بالغيب " في يوم قريب أو بعيد.. وخاصة بعد البحث في قلب " الذرة " الذي غير النظرة كلها إلى الكون " المادي " وقرب ما بين المادي واللامادي في أفكار الغربيين.

ولكن المتاع الزائد عن الحد مشكلة ضخمة..

من ذا الذي يستمع في لذة هذا المتاع إلى صوت الدين؟!

الشبان والفتيات الذين يقضون أوقات فراغهم أكواما من اللحم المسعور؟

كيف يفيقون؟ كيف تصدق أعصابهم الملتذة بهذا المتاع أنهم مدمَّرون؟!

قد يرى " الحكماء " ما هم فيه من دمار محقق.. أما هم.. وهم يحترقون بالنار المحببة.. هل يحسون – أو يبالون – أنهم يحترقون؟!

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..) [171].

والمتاع الزائد عن الحد اليوم فنون.. وفنون!

إنه ليس ساعات اللقاء الجنسي وحده.. ولكنه كل شيء في حياة الغرب!

العمل هناك – على طريقة الآلة الإنسانية – مرهق للأعصاب، كابت للحيوية والانطلاق. ثم.. ينطلق الناس من أعمالهم، ليزيحوا الكبت الواقع على كيانهم الحي.. ولكن ينطلقون على طريقة الحيوان!

حيوانية الإنسان وآليته.. ذلك تصور القرن العشرين.

[171] سورة آل عمران [14].

ومن أجل احتمال الآلية المملة الرتيبة، توضع أشد المشهيات في الجانب الآخر.. جانب الحيوان!

ولم يكن هذا ضرورة " حتمية " في حياة الناس. ولكنه " ضرورة " في هذا التصور المنحرف المجنون.

ثم.. تدخل اليهودية العالمية.. تنتهز الفرصة المواتية للتدمير!

الإغراء.. في كل صورة..

المرأة مغرية في الشارع.. مغرية في السينما.. مغرية في المسرح.. مغرية في الشاطئ.. مغرية في الغابة.. عارية في كل مكان!

والسينما والمسرح والنادي والملعب.. والشارع والمكتب.. مجالات للإغراء!

والفن.. الموسيقى والأدب والرقص والغناء.

وترف الحياة ونعومتها..

من ذا الذي يفكر في الدين.. أو في الأخلاق.. ليحد من هذا المتاع؟!

*　　*　　*

وكل تنظيمات الغرب القائمة على أساس لا ديني (secular) والتي فرح الغرب بفصلها عن الدين! كيف يعود – بسهولة – فيقيمها على أساس من العقيدة في الله؟

التنظيمات الاقتصادية. والتنظيمات السياسية. والتنظيمات الاجتماعية. و. و. من ذا الذي يرحب بإقامتها على أساس العقيدة في الله، التي تحد من مطامع الطامعين، وتضبط شهوات " أصحاب المصالح " في كل هذه الميادين؟

والمرأة.. والمرأة التي " تحررت " من كل قيد قيدها به الأجيال! كيف تعود؟!

كيف تعود إلى مهمتها الفطرية وتقصر نفسها عليها وهي ترى نفسها اليوم ملء " المجتمع "، وملء المصانع والمتاجر والدواوين والشوارع.. وأهم من ذلك كله.. ملء مشاعر الرجل.. كل رجل؟!

كيف تقبل أن ينحصر سلطانها في بيت واحد ورجل واحد، وهي اليوم ترى " وجودها " واسع الآفاق، يشمل كل رجل يقع عيناه على فتنتها، فيعجب بها ولو لحظة عابرة في الطريق.. وتتجمع اللحظات لتكوّن لها " الحياة "!

* * *

كلا! لا يرجع الناس في الغرب بسهولة إلى الدين! ولا ترجع البشرية كلها التي يحكمها الغرب اليوم، وتنتشر منه إليها المفاهيم، وأنماط السلوك..

لا يرجعون إلا بقارعة!

ولكن القارعة على الأبواب!

إنهم ليسوا مخيرين!

أو هم مخيرون! بين الدمار الشامل الرهيب.. وبين العودة إلى حمى الله ومنهج الله مهما يكن فيه – في تصورهم المنحرف اليوم – من " القيود "!

والدمار يفتح فاه في كل لحظة.. انتهاء سيادة الرجل الأبيض رعب [له!] والخوف على المستقبل في روسيا وأمريكا رعب [لهما] والحرب الذرية رعب يشمل الجميع!

وكلما هم العالم أن يستريح لإبعاد خطر الحرب.. عادت الأزمة تطل من جديد.

القارعة على الأبواب.. والناس ليسوا مخيرين.. أو هم مخيرون بين العودة إلى الله وبين الدمار الرهيب.

وستجد البشرية ذات يوم أن الله أكرم لها وأشفق عليها من أنفسها.. فتعود إليه.

ولن يكون هذا صباح الغد!

إنما تقع القارعة – أو الصحوة – في المعتاد حين يشتد الفساد بالناس جيلا بعد أجيال!

ونحن – حين نقول إن مستقبل البشرية هو العودة إلى الله – لا نرقب هذا الغد القريب الذي يحوي أعمارنا وأعمار هذا الجيل!

فعمر البشرية لا يقاس بعمر فرد أو أفراد في جيل.. إنما يقاس بأجيال بعد أجيال!

ولكنا – مع ذلك – نراه بوضوح كأنه الغد!

نراه.. لأنة سنة " حتمية ". سنة الله.

ستعود البشرية غدا إلى الله...

ولكن.. ماذا يكون يا ترى دور المسلمين؟!

دور المسلمين

دور المسلمين هو أن يكونوا دائما في الطليعة. أن يمسكوا في أيديهم مقدم الزمام.

(هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ **وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**) [172].

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً **لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً) [173].

(**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) [174].

ذلك دور المسلمين: أن يكونوا خير أمة في الأرض، ويكونوا - بهذا - شهداء على الناس وقادة للبشرية.

ولكن الموقف اليوم أن المسلمين في ذيل القافلة لا في مقدم الزمام.

ذلك لأنهم ليسوا مسلمين!

ووعد الله للمسلمين وعد صادق لا يتخلف: " **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً **يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً** وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ " [175].

الشرط أن يكونوا مسلمين!

---

[172] سورة الحج [78].
[173] سورة البقرة [143].
[174] سورة آل عمران [110].
[175] سورة النور [55].

وحين ينحرفون عن الإسلام كما انحرفوا بالأمس وينحرفون اليوم، فليس لهم إلا وعد الله الصادق الذي لا يتخلف: " قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ، قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ" [176].

ولكن لهم – حين يكونون مسلمين – دوراً لهذه البشرية المنحرفة الضالة التي تشقى اليوم بانحرافها وضلالتها!

إنهم – وحدهم في كل الأرض – الذين يملكون المنهج الصالح للحياة.. المنهج الهادي من الضلال.

هم – وحدهم – الذين يملكون المنهج الذي يرأب صدع البشرية ويداوي انحرافاتها المدمرة.

المنهج الذي يرأب الفصام الذي أحدثته أوربا بين الإنسان والله! بين الدين والحياة. بين الدنيا والآخرة. بين الجسم والروح. بين الواقع والمثال.

المنهج الذي يلم شتات النفس البشرية بتوحيد وجهتها وتوحيد عبادتها: تعبد إلهاً واحداً، وتتجه وجهة واحدة. في نشاطها الروحي والمادي. نشاطها الاقتصادي والاجتماعي والسياسي. نشاطها العقلي والفني [177].. كل لون من ألوان النشاط. وبذلك يقف الاضطراب القلق الذي يمزق النفس البشرية اليوم ويأكل نشاطها، ويفسد الشباب ويدمر المجتمع، ويفزع المسئولين عن التوجيه في الدول الكبرى والصغرى على السواء!

المنهج الذي يكفل للنفس البشرية أن تنشط كل نشاطها الطبيعي بلا قلق ولا تصادم، كما يسير الكوكب في مداره الصحيح، موزونا بين الشد والجذب، متحركا حركة اتزان.

تنشط في دنيا العلم بلا تصادم مع العقيدة ولا نفرة من الدين.

---

[176] سورة الأنعام [64 - 65].

[177] انظر كتاب " منهج الفن الإسلامي ".

وتنشط في دنيا الواقع غير مثقلة بالكوابت المعوقة ولا منفلتة من الفرامل الضابطة.

وتمارس نشاطها " الحيوي " كله، بما في ذلك نشاط الجنس، في نظافة تشبع الرغبات ولا تفسد الأعصاب.

وتنظم مرافق الحياة كلها في تعقل واتزان.

ذلك هو المنهج الذي يملكه المسلمون..

وهو هو المنهج الذي تحتاج إليه البشرية لينقذها من انحرافها، وينقذها من الدمار الرهيب.

ولكي تهتدي البشرية إلى حقيقته، فلن يكفي أن تقرأ عنه وتفهمه.. إنما ينبغي أن تراه في صورة عملية واقعية.. صورة منفذة في واقع الأرض.. وذلك دور المسلمين للبشرية!

* * *

ولكن البشرية المعادية اليوم للدين.. والمعادية للإسلام والمسلمين على وجه الخصوص لن تتركهم ينفذونه في واقع الأرض! لن تترك لهم فرصة إثبات حقيقته العلوية!

ستحاربهم حرب الإفناء!

والحرب قائمة بالفعل في العالم الإسلامي من المحيط إلى المحيط.

الحرب الصليبية الجديدة التي بدأت في القرن الماضي وما تزال.. وتساندها الصهيونية.

حرب بجميع وسائل الحرب. بالسلاح والجيوش. بالاستعمار " الاقتصادي " والاستعمار الفكري والروحي.. بإفساد الأخلاق.. بتدمير اهتمامات الشباب الجادة وتحويلهم إلى فتات يتهافت حول السينما والتليفزيون، وأقاصيص الجنس المحموم، ومباريات الجمال ومعارض الأزياء، وسائر ما ابتدعته الشياطين.. يستهلك فيها طاقته الحيوية.

تنسلخون من دينكم – أيها المسلمون – نعطيكم من كل الخيرات: نموّنكم ونحضركم، ونعطيكم قروضا ومشروعات وأدوات وآلات وإمكانيات.. وتصرون على دينكم.. فلن نسمح لكم بالحياة!

تلك هي الحرب المسعورة التي يواجهها الإسلام. حرب لا هوادة فيها ولا هدانة ولا فتور. حرب تشمل حركات البعث الإسلامي من المحيط إلى المحيط. حرب يصرح بها بعض الصرحاء أحياناً كما صرح بها " بيدو " وزير خارجية فرنسا السابق، حين قال عن حرب الجزائر إنها حرب الهلال والصليب ويجب أن تمضي إلى غايتها.. ويخفيها آخرون.

*   *   *

والمسلمون في حاجة إلى فترة طويلة من الجهاد والجهد لكي يستطيعوا أن يؤدوا دورهم للبشرية.

في حاجة أولا إلى تفهم دينهم.. فإنهم لا يفهمونه!

الجهالة الطويلة التي رانت على قلوبهم منذ عصر الركود. وحرب التشويه التي شنها المبشرون والمستشرقون والمستعمرون الصليبيون، وتلامذتهم من " أساتذة " الجيل. والفتنة بالمذاهب الغربية – ذات السيادة – المعادية للدين. والتأثر بما قاله الأوربيون في دينهم كما صورته لهم الكنيسة، والظن بأنه ينطبق على كل مفهوم " الدين ". ثم موقف الضعف السياسي والحربي والاقتصادي إزاء الغرب، الذي يشككهم في كل قيمهم الذاتية، ويسهل عليهم تصديق كل نقيصة في أنفسهم وكل فضيلة في الأقوياء المتمكنين!

هذه الأسباب كلها مجتمعة قد غشت على قلوب المسلمين وأبصارهم فلم يعودوا يعرفون حقيقة هذا الدين. فصارت المهمة الأولى لهم أن يعرفوه.

وهم في حاجة ثانياً إلى أن يعيشوه!

فالمعرفة النظرية وحدها لا تكفي! لا تعطي الطعم الحقيقي لشيء من الأشياء! إنما يعرف الإنسان حقيقة الفكرة حين يعيشها بالفعل، ويتفاعل معها في واقع الحياة.

والإسلام غريب اليوم على قلوب المسلمين وضمائرهم غربته يوم بدأ. أو أشد غربة!

لقد كان غريباً – حقيقة – يوم بدأ. ولكنه كان يواجه نفوسا لم تفسد فطرتها كل الفساد. أو لم تكن عميقة الغور في الفساد. فسرعان ما انجابت القشرة الفاسدة وصفت النفوس للنور الحق.

واليوم يواجه الإسلام – فيمن يسمون " المسلمين " ذاتهم – نفوسا توغل فيها الفساد: الفساد الذي أحدثه الجمود والانحسار والتوقف. والفساد المجلوب من الغرب. والتحلل الخلقي والاستمتاع الزائد عن الحد، الذي يصرف الغرب عن الرجوع إلى الدين. كما يواجه مسلمين تعودوا – بحكم الأمر الواقع تحت توجيه الاستعمار الصليبي – أن يعيشوا بعيداً عن روح الإسلام وتشريع الإسلام. وأن تحكم حياتهم كلها – في الأخلاق والسلوك والتفكير والتنفيذ – مفاهيم غير إسلامية.

لذلك فالغربة اليوم عن الإسلام أشد.

والمسلمون في حاجة – بعد أن يعرفوا الإسلام – أن يعيشوه في واقع الحياة.

ثم هم في حاجة – بعد أن يعيشوه بالفعل – أن ينمّوا الفقه الإسلامي ليواكب الحياة الحاضرة في القرن العشرين ويحكم كل جزئياتها.

وهو جهد ضخم ما في هذا شك. ولكنه ليس الجهد الأول ولا الأخطر! إنما الجهد الأول والأخطر هو أن يعرفوا الإسلام ويعيشوه! وبعد ذلك سيجيء النمو تلقائياً وتدريجياً – في ظل الحياة الإسلامية والمفهوم الإسلامي – على يد الفقهاء المجتهدين.

وفي أثناء ذلك كله هم في حاجة إلى التعرف على علم الغرب كله وأسباب قوته المادية من تنظيمات وبحوث وخبرات. حتى يستعيدوا حاستهم العلمية الأصيلة – التي فقدوها في الأجيال الأخيرة – ويشاركوا مشاركة حية فعالة – على طريقتهم الإسلامية النظيفة – في تلك التنظيمات والخبرات والبحوث.

* * *

كل ذلك يحتاج إليه المسلمون أولا حتى يؤدوا دورهم للبشرية.

وهو جهد ضخم شاق.. ولكنه مع ذلك ضروري. ضروري للمسلمين أنفسهم لكي يعيشوا على مستوى " الإنسان " كما علمهم الله بالإسلام. الإنسان المتنور المتحضر

المتوازن النظيف المتطلع إلى الأمام. وضروري كذلك للبشرية لكي ترى النموذج الواقعي الحي للفكرة النظيفة السليمة، فتتبعها – راضية – لتخرج بها من الظلمات إلى النور، وتتقي الدمار الذي ينذر بإفناء البشرية.

ولكن العداوات المحيطة بالإسلام لن تدع المسلمين يقومون بهذا الجهد!

الحرب الدائرة المسعورة لن تهدأ. لن تفتر.

لن يدع أعداء الإسلام المسلمين يفهمون دينهم أو يعيشونه.

إنه لا مانع لديهم من أن يبقى الإسلام – إذا شاء – صلوات ومشايخ ومساجد للبركة!

ولا مانع لديهم من " تطوير " الدين وتعديل مفاهيمه بإدخال المفاهيم الغربية في صلبه!

أما قيام مجتمع مسلم واع فاهم مثقف نام يفهم الإسلام ويعيشه بالفعل.. فهذا بالذات هو الأمر المرهوب الذي يرهبه أعداء الإسلام.. والذي ينبغي أن يحولوا دونه بكل سبيل!

كلا! لن يدع الأعداء الفرصة لنماء هذا الدين!

ولقد قاموا بالفعل بقتل جميع الإمكانيات بالنسبة لقيام جماعة مسلمة في هذا الجيل!

* * *

ولكن البشر ليسوا هم المحكّمين في دين الله!

" وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ "! (178).

(178) سورة يوسف [21].

ذات يوم في التاريخ توغل الصليبيون في البحر الأحمر وقلبوا سفينة للحجاج وقتلوا من فيها، ونزلوا في جدة، وساروا بالفعل نحو الأرض المقدسة بأقدامهم المدنسة.

لو أن إنساناً وقف يرصد التاريخ في تلك اللحظة، مقطوع الصلة بالغيب المستور، لقال إن الإسلام قد انتهى ولن تقوم له قائمة بعد اليوم.. فليس بعد ذلك شيء..

ولكنا نعلم من التاريخ أن هذه الحادثة بالذات هي السبب في قومة صلاح الدين.. قاهر الصليبيين!

واليوم يخنق الصهيونيون والصليبيون الإسلام في كل الأرض..

ثم.. ثم ينتشر الإسلام في أفريقيا بصورة تزعج أعصاب المبشرين والدول التي تبعث المبشرين!

وينتشر الإسلام في زنوج أمريكا المضطهدين.. في داخل السجون التي تضطهدهم وتشردهم!

تلك إشارة إلى المستقبل!

وهي إشارة موحية للأجيال القادمة من المسلمين!

" وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ "!

صدق الله العظيم.

الفهرسْ

- مقدمة
- عصر التطور
- اليهود الثلاثة: ماركس / وفرويد / ودركايم
- شهادة التاريخ
- الثابت والمتطور في كيان الإنسان
- شهادة القرن العشرين
- الإسلام وحياة البشرية
- الإسلام والرجعيات
- نحن والغرب
- انحرافنا وانحرافهم
- مستقبل البشرية
- دور المسلمين

هذه دعوتنا

– دعوة الى الهجرة إلى الله بتجريد التوحيد، والبراءة من الشرك والتنديد، والهجرة إلى رسوله صلى الله عليه وسلم بتجريد المتابعة له.

– دعوة إلى إظهار التوحيد، بإعلان أوثق عرى الإيمان، والصدع بملة الخليلين محمّد وإبراهيم عليهما السلام، وإظهار موالاة التوحيد وأهله، وإبداء البراءة من الشرك وأهله.

– دعوة إلى تحقيق التوحيد بجهاد الطواغيت كل الطواغيت باللسان والسنان، لإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور المناهج والقوانين والأديان إلى عدل ونور الإسلام.

– دعوة إلى طلب العلم الشرعي من معينه الصافي، وكسر صنميّة علماء الحكومات، بنبذ تقليد الأحبار والرهبان الذين أفسدوا الدين، ولبّسوا على المسلمين...

وهل أفسد الدين إلا الملوك   وأحبار سوء ورهبانها

– دعوة إلى البصيرة في الواقع، وإلى استبانة سبيل المجرمين، كل المجرمين على اختلاف مللهم ونحلهم، {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين}.

– دعوة إلى الإعداد الجاد على كافة الأصعدة للجهاد في سبيل الله، والسعي في قتال الطواغيت وأنصارهم، واليهود وأحلافهم، لتحرير المسلمين وديارهم من قيد أسرهم واحتلالهم.

– ودعوة إلى اللحاق بركب الطائفة الظاهرة القائمة بدين الله، الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله.